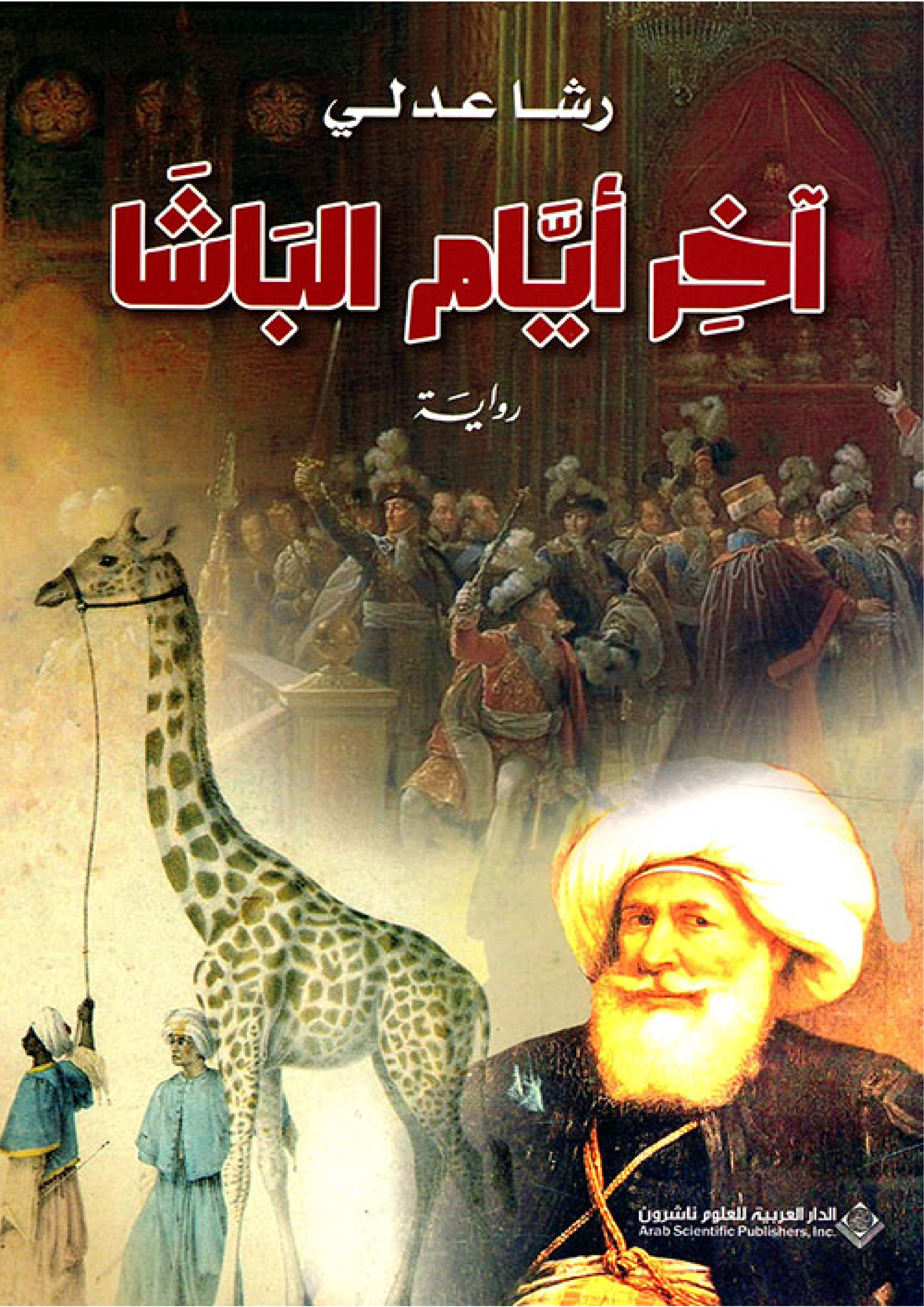


رشا عدلي
آخِر أيَّام البَاشَا
روايـَة
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

Table of Contents

رشا عدلي

آخِر أيَّام البَاشَا

رشا عدلي

آخِر أيَّام البَاشَا

رواية



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الطبعة الأولى :أيار/مايو 2019 م 1440 - هـ

ردمك 978-614-02-3690-5



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 1102-2050 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

تصميم الغلاف :علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان :أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة :**مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

مستوحاة من أحداث حقيقية

(إن شكًّا بلا نهاية ليس شكًّا بالقطع)

(التاريخ ليس أكاذيب المنتصرين، إنه أقرب إلى أن

يكون انتصارات الناجين :أولئك الذين لم ينتصروا ولم ينهزموا...)

جوليان بارنز

إهداء

إلى خالد...

وإلى كل الذين رحلوا دون وداع.

الجزء الأول

1

لندن - البرنامج - ربيع 2017

(هناك شيء ما يحدث لنا في طفولتنا؛ هذا الشيء يظل أثره ملازماً لنا طوال عمرنا.)

كانت هذه البداية لحوار طويل أَجْرَته معه مذيعة برنامج التوك شو في قناة "أي بي سي" وهو واحد من أشهر البرامج البريطانية، فقد حقق أعلى نسبة مشاهدة طيلة أعوام متتالية.

يصوّر البرنامج في أحد مسارح لندن، ويسمح للجمهور بحضوره.

امتلأت القاعة بأكملها وكانت النسبة الأكبر منهم من المهتمين بالثقافة والتاريخ.

شغف الجمهور تجاه اللقاء كان كبيراً جدًّا. فقد صفَّقوا بحماسٍ مُفرط عند دخوله الاستديو وتقديم المذيعة له.

-معنا اليوم الدكتور جهاد مصطفى، بروفيسور التاريخ في (مركز الدراسات الشرقية والإفريقية) وأحد أبرز مؤرخي التاريخ الحديث. وهو في ضيافتنا اليوم للحديث عن كتابه الذي طُرِح في الأسواق مؤخراً بعنوان "الزرافة الدبلوماسية"، وقد أثار هذا الكتاب ضجة كبيرة وحقق مبيعات عالية وتُرجَم إلى عدة لغات خلال أشهرٍ قليلة.

اقتربت الكاميرا من الغلاف الذي حملته المذيعة في يدها. كان مستوحى من بورتريه رسم للزرافة برفقة شخصين يسيران وسط مرجٍ طويل. وبخط ذهبي بارز نُقِش عنوان الكتاب واسم مؤلفه.

-في البداية بروفيسور جهاد نريد أن نعرف ما الذي دفعك لكتابة هذا العمل؟

اعتدل في جلسته وحمحم..

-في الواقع، عرفت قصة هذه الزرافة منذ فترة طويلة. مُعظم الكُتب التي تناولت حياة "محمد علي باشا"، جاءت على ذِكرها، وفي الحقيقة لم تستوقفني مطلقاً، كانت بالنسبة إليّ مجرد هدية دبلوماسية أهداها والي مصر "محمد علي باشا"، لملك فرنسا "شارل العاشر". ولكن منذ عام ونصف تقريباً، تلقيت مكالمة من صديق لي.

2

لندن - شتاء 2015

كانت السابعة صباحاً عندما رن هاتفه .أصابه الفزع، فلم يعتد أن يتلقى أي مكالمات في هذا التوقيت المبكر؛ وشعر بالقلق مِن أن يكون قد حدث لأبيه مكروه، ففي زيارته الأخيرة للقاهرة، لم تكن حالته الصحية مستقرة، تمكنت منه أمراض الشيخوخة، وارتفع مستوى السكر وضغط الدم. والروماتيزم بدأ ينخر عظامه، وحركته أصبحت أكثر صعوبة.

جاءه صوت له نبرة تشبه رنين المعدن:

-صباح الخير عزيزي دكتور جهاد .أنا دكتور أكمل حامد أعتذر لاتصالي بك في هذا التوقيت المبكر؛ ولكنني أحتاج إليك في موضوع هام .لا يحتمل التأجيل.

غلفت صوت جهاد بحة وهو يسأله:

-وما هو الموضوع الذي لا يحتمل التأجيل؟

-إنه متعلق بعملك كبروفيسور وباحث في التاريخ.

قام جهاد من فراشه .وبخطوات ناعسة ذهب إلى المطبخ وضغط على ماكينة إعداد القهوة.

-أوليس عملك في مجال حماية الحيوان؟ !أم أنك قد وجدت أن التاريخ أكثر إثارة.

قهقه الرجل..

-لا، اطمئن لا أزال المدير الإقليمي للصندوق الدولي لرعاية الحيوان في الشرق الأوسط.

-إذن ما الأمر؟!

-الأمر يتعلق بزرافة أهداها محمد علي باشا لملك فرنسا.

ردد خلفه وهو يحاول أن يتذكر..

-زرافة أهداها محمد علي لملك فرنسا ..نعم، ماذا عنها؟

-من الأفضل أن نلتقي ونتحدث.

-حسنا، في الثانية عشرة ظهراً .يمكنني لقاؤك في المقهى الملحق بمبنى المركز..

-تقصد مركز الدراسات الشرقية والإفريقية؟

-هو بعينه.

-إلى اللقاء إذن.

وهو يرتدي ملابسه، حاول تذكر ملامح الرجل التي بدأت تخبو من الذاكرة .لم يبقَ منه غير قوام طويل ونحيف وأنف معقوف.

كالعادة، وفي مثل هذا التوقيت من السنة كان الضباب يخيّم على سماء لندن، والأمطار تهطل بغزارة.

حاول أن يتفادى الزحام بعدم السير في الطرق الرئيسية، ولكن كل الطرق كانت مزدحمة بسبب موسم الأعياد.

بعد أن أنهى محاضرته، حضر اجتماعا مع هيئة رئاسة القسم وفي تمام الثانية عشرة كان يجلس في انتظار صديقه يتناول شطيرة ويتابع الأخبار على هاتفه.

لمحه وهو يدخل مهرولاً، حاملاً معطفه فوق يده، وعلى محياه سيماء الأسف.

-أعتذر عن التأخير .ولكن مؤكد تعلم الزحام المروري في هذه الأيام.

قالها وهو يصافحه بحرارة .ومِن الواضح أن الأعوام الطويلة التي لم يقابله تركت آثارها عليه؛ خطوط أسفل العينين وتهدل الوجنتين.

-هيا ماذا عندك؟

اعتدل الرجل في جلسته .وتبدلت نبرة صوته كما لو أنه بصدد إلقاء خُطبة.

-شهدت أعداد الزرافات في إفريقيا، وتحديداً في جنوب الصحراء الكبرى، انخفاضاً حاداً في الثلاثين عاماً الماضية بنسبة تصل إلى 40 بالمئة، ويعود سبب ذلك بصورة كبيرة إلى قيام السياح بالصيد التذكاري، والصيد غير المشروع، وحوادث السيارات واصطدامات خطوط الكهرباء ولم يتبقَ من الزرافات في العالم سوى (97 ألفاً و 500 زرافة)، وقد أصرَّ المحافظون على حماية البيئة، على تصنيف الزرافات على أنها معرضة للخطر، وذلك من أجل منع الانقراض الصامت لها .هذا الحيوان في ورطة عميقة حقًّا.

بدأ صبر دكتور جهاد ينفد .كان يريد أن يصيح فيه.

-هيا ..ادخل في الموضوع، مالي أنا ومال الزرافات!

ولكنه دون أن يتفوه بذلك ظهر على ملامحه ما يشعر به.

-اعذرني لا بُد من هذه المقدمة حتى تفهم الموضوع .فأنا أقوم ببحث مفصل لتقديمه للجنة دولية، وذلك حتى تنضم الزرافات لقائمة الحيوانات (المهددة بالانقراض)، وفي أثناء بحثي وجدتُ أن هناك عالم أحياء فرنسي اسمه (أتني سانت هيلاري)، قام بأبحاث عن الزرافات قبل مائتي عام وذكر فيها أن هذا النوع من الحيوانات مهدد بالانقراض خلال المائتي عام القادمة على الأكثر .وقد توصل إلى هذه الخلاصة من خلال أبحاث أجراها على زرافة وصلت فرنسا (عام 1827) .وكانت هدية من والي مصر "محمد علي باشا "لملك فرنسا "شارل العاشر ."في الواقع حاولت أن أعرف المزيد من المعلومات عن هذا الرجل وعمله وكيفية توصله لهذه النتيجة، ولكني لم أصل إلى شيء؛ ففكرت في الاستعانة بك لتمدني بمعلومات عنه!؟

كان يراقبه من خلف نظارته الطبية التي نادراً ما كان يخلعها .أخبرته امرأة ذات يوم أن لون عينيه نادر؛ فهو مزيج من البني والرمادي وفي ضوء الشمس يصبح بلون حبة الفُسْتُق، ومِن المُجْحِف في حق نعمة بهذا الجمال أن يخفيها خلف نظارة طبية .ابتسم يومها . لم يخلع عدساته ولكنه كلما نظر في المرآة تذكر هذا (الأخضر الفُستُقي).

-في الواقع أنا مثلك تماماً .لم أسمع عن هذا البروفيسور من قبل بالرغم أني قرأتُ عن أمر هذه الزرافة !على أي حالٍ سوف أقوم بأبحاثي، وأحاول أن أتوصل إلى معلومات.

توجه إلى مكتبة الكلية مباشرة ليبحث عن كتب ودراسات قد تمده بمعلومات .هو المولع بالبحث، كانت تلك الشرارة الأولى التي أشعلت شغفه مجدداً.

3

الإسكندرية - صيف 1826

كان "محمد علي باشا "في قصره بالإسكندرية، يجلس في قاعة كبيرة، تتخلل جدرانها عدة نوافذ تطل على البحر، ويشغلها أريكة إسطنبولية مبطنة بحرير أحمر مطرزة بخيوط مذهبة، صنعها له نجار شهير من مالطا قضى حياته بين أثينا وإسطنبول، تعلم الحرفة والخبرة من نجاري إسطنبول، والفن والإبداع من فناني أثينا.

اعتاد الباشا الجلوس على هذه الأريكة لينعم بالراحة بعد كل يوم طويل وشاق من اتخاذ القرارات ومقابلة القناصل والتشاور مع الخبراء.

بمحاذاته كان عبد أسود طويل يروّح عنه بمروحة من ريش النعام، وكان مدلكه الإيطالي يدلك له عنقه وكتفيه؛ فقد اشتدت عليه مؤخراً آلام العنق التي يعاني منها منذ فترة طويلة، ساعدته يد المدلك التي تجيد عملها بحرفية شديدة على الاسترخاء والشعور بالنعاس.

عندما وجده سكرتيره الأرمني (باغوص باشا) يغط في نوم عميق تركه وخرج بهدوء .كان يعلم أن أفنديناً، جافاه النوم منذ أن تأزمت علاقته مؤخراً بالدول الأوروبية، بسبب حرب المروة .ولم يكن ذلك في مصلحة مشروعه التأسيسي على الإطلاق، ولم يكن من الممكن أن يمضي قدماً في مشروعه دون رضا فرنسا؛ فقد كانت حليفته على الدوام .أما الدول الأخرى فقد كان من الذكاء أن يتجنب شرورها.

عندما طلب منه السلطان العثماني (محمود الثاني) مساعدته في قمع الثورة اليونانية، وافق متحفظاً؛ لأنه كان يتمتع بعلاقات طيبة مع اليونانيين، ولكنه لم يكن في الوقت نفسه يستطيع إغضاب السلطان العثماني، فهو يعلم أن زمام الأمور بين يديه .صحيح أنه أرسى قاعدة متينة ولكن لم يحن الوقت لأن يقول (لا).

أرسل عددا من الجنود بقيادة ابنه "إبراهيم باشا "ظناً منه أن الأمر مجرد ثورة تحتاج إلى إخماد، ولكن الأمور تطورت سريعاً وتحولت إلى حرب فعلية .طلب إبراهيم إمدادات عسكرية وبشرية فأرسل له الباشا ثلاثين ألف جندي .لقد دخل عرين الأسد ولن يستطيع أن يتراجع أو يعتذر، لم يكن عليه سوى أن يتقدم.

حقق إبراهيم باشا انتصارات مذهلة، وتطور الأمر بشكل كبير وسريع وتوحدت إنجلترا وفرنسا وروسيا ضد الباب العالي ومحمد علي، فقد صنّفوها حرباً صليبية ضد الإسلام وخاصة بعد الشائعات التي روّجها البعض بأن الجيش المصري يرتكب مذابح ضد اليونانيين العزل.

عُقِدت اتفاقية لوقف إطلاق النار المؤقت ولكن التحالف الأوروبي خرق هذه الاتفاقية وأطلق النار على الأسطول المصري في موقعة (نوارين) ما أدى إلى تدميره

بالكامل.

منذ أن عَلمَ الباشا بتدمير أسطوله بالغدر وهو غارق في حزنه، هو الذي وقف ذات يوم على رصيف الميناء محاطاً بخبراء وقادة جاء بهم من كل مكان في العالم وحدّثهم بحماس (أريد أن تجعلوا هذا الميناء يعج بالسفن، لا ينقصنا لا المال ولا الرجال، ابنوا لي ترسانة تنافس الترسانات في فرنسا وإنجلترا وإيطاليا)، وفي وقت قليل نُفِّذَت طلبات الباشا . ومن أجل ذلك تكلف الكثير من المال والجهد.

استيقظ الباشا من غفوته مفزوعاً كمَن استيقظ من كابوس، قام يقطع البهو الفسيح ذهاباً وإياباً عاقداً يديه خلف ظهره وهو يدكّ الأرض دكًّا ويصيح:

-أسطول راسٍ في مرساه .لماذا يضربونه؟ وكيف بإمكان فرنسا أن تدمر أسطولا ساهمت في بنائه!؟

صاح على باغوص باشا وطلب منه أن يذهب ويجلب له فوراً (مصطفى بك حلمي) رئيس ديوان شؤون المبعوثين الأجانب.

كان السكرتير الأرمني يعلم تماماً ما الذي تعنيه تلك النظرة في عيني الباشا .لذلك هرع على الفور ليحضر الرجل.

في غضون دقائق قليلة كان مصطفى بك يقدم فروض الولاء والطاعة مقبِّلاً طرف الباشا.

-هل تثق في القنصل الفرنسي؟

-من أي ناحية يا مولانا؟

-هناك مَن يقوم بمحاولات لتشويه العلاقات بيني وبين فرنسا، ولا أعرف مَن تحديداً وراء ذلك، ليتها كانت حقائق، إنها مجرد افتراءات؟ هل تعتقد أن هذا الرجل له يد في ذلك!؟

-ليس من صالح هذا الرجل أن تسوء العلاقات بين البلدين، فهو شخص وصولي، يحاول أن يتدرج في سلم الرتب بسرعة فائقة ومن صالحه أن تصل صورة مولانا في أبهى أشكالها إلى البلاط الفرنسي.

-ومنذ متى أمنح دُون وجه حق؟ أكثر ما يضايقني هو النفاق والرياء.

-ولكن ما الذي يقلق مولانا؟ فقد قطع هذا الرجل عطلته بمرسيليا بناء على تعليمات ملكية وجاء وقدم اعتذار الملك شارل العاشر بنفسه، وأخبرنا أن الحكومة الفرنسية ستساعد الباشا في بناء أسطول جديد.

-المشكلة ليست في بناء الأسطول الجديد، المشكلة في أنني كنت

أضع كل ثقتي في فرنسا، ولكنني الآن تأكدت أن الكل يعمل وفق مصالحه وليس أكثر، بإمكان فرنسا أن تتحد مع إنجلترا عدوها اللدود في سبيل مصالحها في الشرق.

بدأ الباشا في فرك لحيته وتسمر نظره إلى بعيد وتحدث بصوت خفيض كأنه يحدث نفسه فقط.

-منذ أن اعتليت عرش مصر، كنت أعلم ما أنا مقبل عليه .ولكنني لم أكن أتوقع أن الأمر سيكون بمثل هذه الصعوبة، إنها لعبة السياسة القذرة . كما لو أنني أسير في غابة طريقها ممتلئ بالفخاخ المغطاة بأوراق الشجر وعليَّ أن أكون حذراً ودقيقاً وخارقَ الذكاءِ حتى لا أقع فيها .بين كل خطوة وأخرى تتربص بك مصيدة، وقيعة، فخ .منذ واحد وعشرين عاماً وأنا في هذا الصراع .مَن بإمكانه أن يعيش بهذا الشكل؟ كنت ساذجاً عندما اعتقدت أن المماليك هم العدو الحقيقي .فالعدو الحقيقي هو الذي لا يواجهك من أمامك؛ بل من خلفك ويتحين اللحظة المناسبة لطعنك.

كم عام أنفقته وكم رجل ضحيت به في خوض حروب لم تكن أبداً لي، لإشباع رغبات سلاطين مهووسين بالسلطة والحكم لا هَمَّ لهم سوى استنزاف طاقتك وقوتك المتمثلتين في أسلحتك وجنودك، حتى تبقى دوماً راضخاً لهم.

كان صوته ووجهه يعبران عما يحمله من هم وقهر .ولولا أنه يملك رباطة الجأش والذكاء معاً لِما استطاع أن يخفي هذه المشاعر ويظهر دوماً أمام الجميع بقوة وعنفوان.

خرج الباشا من أفكاره ثائراً وصاح :اذهب واحضر لي هذا الرجل فوراً.

4

على الجانب الآخر من القصر في الحي الإفرنجي، وأمام منزل من دورين تحده حديقة أشجارها عالية، ومحاط بحرس لا يغادرون بوابته ليلاً أو نهاراً فقد كان صاحبه مرتاباً، يعيش دائماً متوقعاً الغدر.

توقفت العربة الملكية وصهل خيلها بقوة، بينما توارى مسيو (برناردينو دروفيتي) خلف ستار نافذته ينظر مَن الذي جاء في هذا الوقت.

فوجئ وهو يشاهد رئيس الديوان . أخذ نبضه يعلو حتى كاد قلبه أن يخرج من بين أضلعه.

تساءل هل انكشف أمره؟ لو حدث ذلك فإن مصيراً واحداً سيكون في انتظاره (القتل) وبحركة لاإرادية وجدَ يده تتحسس عنقه.

هرول خارج الغرفة يبحث عن (حسن) حارسه الشخصي؛ ليطلب منه أن يخبرهم أنه سافر إلى القاهرة في مهمة عمل، لكنه في اللحظة التي كان يقف فيها مستندا إلى سور الدرابزين الخشبي لينادي على حسن، كان الباب يُفتَح ويدخل رئيس الديوان الذي رفع نظره إلى أعلى فلمحه يقف هناك.

أشار إليه بيده بما يفيد تعال.

-معالي محمد علي باشا يريدك فوراً.

-لماذا؟ هل حدثت كارثة؟

-إنه أمر مهم وضروري.

-ألا يمكن لهذا الأمر أن ينتظر حتى الصباح!؟

بنبرة التهديد:

-حسناً، يمكننا أن نذهب إلى الباشا ونخبره بذلك.

في طريقه للخروج صاح القنصل:

-انتظر سوف آتي معك.

"مهم وضروري"، هاتان الكلمتان كانتا تتناوبان على مسامعه وهو يرتدي ملابسه، وأفكاره تذهب وتأتي، ترى ما هو المهم والضروري!؟

وصل مسيو دروفيتي إلى مصر في عهد نابليون بونابرت، وهو من أصل إيطالي

وتجنس بالجنسية الفرنسية .كان يتحدث الفرنسية والإيطالية ويتكلم العربية بلهجة غير مصقولة وغريبة وعمل قُنصلاً عاماً لفرنسا في مصر لفترتين .لم يكن قنصلاً عادياً، كان بارعاً في إتقان المراوغات السياسية، لذلك أبقى عليه محمد علي وعيَّنه بالإضافة إلى وظيفته قنصلاً لفرنسا في القاهرة مستشاراً خاصاً له.

لم يكن عقل القنصل وحده الذي كانت تلعب فيه الأفاعي، بل أيضا حسن البربري حارسه الوسيم، فقد كان يعلم تماماً ما الذي يخفيه سيده في الجزء الخلفي من المنزل . دروفيتي كان يظن أنه عندما يحذر حسن بحزم أكثر من مرة بعدم تخطيه عتبة الباب فهو سيمنعه من الاطلاع على ما يخبئه بالداخل.

ولكنه كان على علم بكل شيء، وفي الواقع لم يكن هو وحده الذي يعلم بل أصدقاؤه وجيرانه والمحيطون به أيضاً.

ابتسم حسن بخبثٍ .كانت المرة الأولى التي يشاهد فيها سيده مهزوزاً بهذا الشكل، كطفلٍ فقد أمه وسط زحام.

لم يتأنّق كعادته وبدا مظهره غير مُهندم في معطفه الإفرنجي الطويل من وبر الجوخ.

وهو يهم بالخروج، رمق حسن بنظرة ذات مغزى، وكان على وشك قول شيء ولكنه غادر بخطوات سريعة.

خمن حسن أن سيده قد تورط في أمرٍ جلل، وأنه لا يمكن للعيون هذه المرة أن تغض بصرها عنه، وربما قرر الباشا أخيراً التخلص منه.

5

إنه أغسطس .الجو في مدينة الإسكندرية رطب ولزج .كانت العربة تتأرجح بهم وهي تَعْبُر أزقة وحارات وتقطع بهم الحي الأرمني، والحي القبطي، والحي اليهودي.

عندما وصلوا إلى القصر كان محمد على قد خرج إلى الحديقة لعل نفسه تنشرح قليلاً ويزيل من قلبه الكابوس الجاثم عليه .كان يحب أن يرى الطاووس وهو ينفش ريشه ويمشي مختالاً، على مرمى بصره كانت رقبة الزرافة ممتدة تكاد تلامس الغيمة المتدلية من السماء . ضحك من قلبه من منظر الفيل الأبيض الصغير وهو يحاول مد خرطومه ليأكل من أغصان شجرة الأكاسيا .تفوح في الحديقة روائح زهرة مسك الليل التي تزهر في مثل هذا الأوان ويمنح عبيرها الروح هدوءاً وسكينة .وهذا تحديداً ما كان يحتاج إليه.

انحنى القنصل أمام الباشا حتى كاد ظهره ينقسم إلى نصفين .وحاول أن يستشف شيئاً من ملامحه ولكن، كالعادة لم تفصح تعابير الباشا عن شيء.

-اجلس دروفيتي، أريد أن أستشيرك في أمرٍ؟

-خير يا صاحب السمو..

أخذ الباشا يعقد شاربه ولمعت عيناه ببريق خاطف.

-أنت تعلم أني أخوض حروباً بعضها كان لي يد فيها والبعض الآخر أُجبَرت عليه .مثل مساعدتي للجيش العثماني لقمع ثورة المتمردين اليونانيين، التي تحولت إلى حرب شرسة، ومن المؤكد أنك تعلم أن فرنسا وإنجلترا تؤيدان اليونان، وهناك معلومات خاطئة عن فظائع يرتكبها الجيش المصري هناك وهذا لم يحدث مطلقاً.

ولا أعرف مَن الذي يروج مثل هذه الشائعات !ويهمني أن تتضح الصورة في شكلها الحقيقي للحكومة الفرنسية، فكما تعلم أنا بحاجة إلى تأييدها لي ضد القوى الغاشمة التي تقف أمامي، فهي حليفي على الدوام وأريدها أن تستمر على ذلك.

لذا أريد منك أن تبعث برقية عاجلة إلى الملك، تنفي فيها هذه الشائعات، وتخبره فيها بالحقيقة كاملة .هذا مِن ناحية ..ومِن ناحية أخرى أريد أن أرسل هدية للملك شارل العاشر لمواصلة الود بيننا، وقد اخترتك لتقترح عليَّ هدية أهديها إليه، فأنت التقيته أكثر من مرة وتعرف شخصيته وذوقه.

شعر دروفيتي أن الدماء رجعت تجري في عروقه بعد أن تجمدت، وأصبح بإمكانه أن يطلب فنجاناً من القهوة، ويستوي في جلسته بعد أن كان يجلس على طرف المقعد كمَن هو على أهبَّة الهرب.

تحدث بثقة قائلاً:

-الملك شارل العاشر ذو عقلية مختلفة عن ملوك فرنسا السابقين ربما يمكننا أن نقول :إنه ..إنه...

تنحنح الباشا قائلاً:

-لا عليك، فهمت أنه يحب الهدايا الثمينة، ما رأيك في جوهرة بحجم بيضة العصفور من حجر كريم ونادر، أو سيف دمشقي مُطعّم بفصوص من الألماس، واللازورد، والزبرجد.

-ليس هذا ما أقصده سموك، على العكس، هذه الأمور لا تجذب الملك بتاتاً.

-إذن نرسل له مسلة فرعونية بديعة الصُنع أو تمثالا فرعونيا، ربما كان مولعاً بهذه الأشياء كطبع الفرنسيين.

-لا أعتقد ذلك أيضاً.

زمجر الباشا وتبدلت ملامحه..

-إذن انطق ..لقد لجأت إليك لتقترح عليَّ، وبالرغم من ذلك كل ما تفعله هو أن تزم شفتيك بالرفض.

-الملك شارل واسع الثراء ولن تثيره الهدايا باهظة الثمن .ولا يأبه مطلقاً لهذه الآثار فهي لا تثير اهتمامه مطلقاً.

هز محمد علي رأسه وابتسم وهو يعقد طرف شاربه.

-نعم ..نعم، فهمت مقصدك، يمكننا أن نبعث له بعدد من الجواري الحسّان، من هؤلاء اللواتي يجدن إلقاء الشعر والعزف والغناء وربما الرقص أيضاً ولِم لا؟

كتم القنصل ضحكته، وأشاح بوجهه بعيداً حتى لا يراه الباشا ويظن أنه يسخر منه . وهنا لمح عنق الزرافة الطويل..

ثم أخبره بلهفة:

-يمكنك أن تهديه زرافة.

ثار الباشا وصاح:

-زرافة ..هل جننت؟ أتقترح عليَّ أن أهدي ملك فرنسا زرافة!؟ محمد علي باشا يقوم بإهداء زرافة!؟

-انتظر سموك، لتعلم سبب اقتراحي فربما تبدل رأيك، لقد أصدر الملك شارل العاشر أمراً لوزارة خارجيته لتناشد كل قنصليات فرنسا في الخارج، وكذلك المواطنين الفرنسيين المسافرين إلى شتى بقاع العالم، تزويد حديقة باريس النباتية ومتحف التاريخ الطبيعي الملحق بها، بما يجمعونه من غرائب النباتات والحيوانات .وهذا الحيوان لم يرَه فرنسي في أوروبا من قبل . ولذلك فهي تُعَد هدية مذهلة.

دخل الباشا في تفكير عميق وأخذ يمج من أرجيلته بقوة وعنف.

-ولكن!..

-ثق بـي.

-حسناً، ولكن في حال رفض الملك قبول الهدية؛ تأكد أنك سوف تندم على اقتراحك أشد الندم.

ارتعدت فرائص الرجل من هذا الوعيد.

-وأنت المسؤول عن هذا الأمر بتفاصيله كافة، وأريد لهذه الهدية أن تصل في أقرب وقت.

خرج القنصل مشغول البال بهذا الاقتراح الذي ورط نفسه به، وبدأ من وقتها في تدبير الأمر.

6

الإسكندرية - صيف 1826

في أحد الأزقة الضيقة كانت (مهجة) تملأ القوارير الفارغة بزيت الكتان والأثير وتضعها في سرة وتحكم غلقها، بينما كان أبوها بصوته الأجش، يحثها أن تسرع؛ فالساعة قاربت الخامسة عصراً وعليهما إشعال قناديل الأزقة والمساجد.

-كل شيء جاهز يا أبـي هيا بنا.

وضعت أدواتها على ظهرها، وحملت عموداً حديدياً تعلوه أسطوانة دائرية الشكل في داخلها قطعة من الكتان والزيت، وحمل أبوها درجاً خشبياً وخرجا تلاحقهما دعوات أمها .وعند مفترق الطريق ودعها أبوها.

-احترسي لنفسك يا ابنتي.

ابتسمت ومضت في طريقها .وقف يراقبها وهي تختفي من أمامه وتندس وسط الزحام وهو متأكد أنها في هذا الجلباب البني من الكتان، والعمامة التي تربطها فوق رأسها لن يشك أحد أبداً في أنها فتاة.

منذ عدة أشهر عاقبه رئيس طائفة المشعلجية بعدم صرف مرتبه، لتأخره عن إشعال سراج درب الجماميز .وتسبب الظلام في تصادم عربة كارو تحمل عدداً من النسوة بأحد الجمال .أطاح الجمل بالعربة جانباً، ولولا لطف الله لكانت النسوة وقعن أرضاً، ورُفِع الخمار عن وجوهن، وانكشفت مفاتنهن للغادي والقادم.

اعتاد عم مصطفى الخروج مبكراً للعمل، ولكن ثِقل وزنه مؤخراً وامتداد كرشه أمامه بمقدار مترين؛ جعل حركته بطيئة وأصبح صعوده الدرج لإيقاد القناديل يأخذ منه الكثير من الوقت، والعتمة تحل قبل إيقاد القناديل.

حذره رئيس الطائفة من تكرار ذلك الأمر وإلا سوف يقيله من مهنته، وطلب منه أن يخفض من وزنه لتخف حركته، مؤكداً عليه أن المشعلجي يجب أن يكون رشيقاً وخفيفَ الحركة.

وعده أنه سوف ينقص وزنه في غضون أشهر قليلة وسيصبح أخف من الفراشة وأكثر رشاقة من الغزال، ولكن عم مصطفى لم يستطع أن يفي بوعده؛ فكان ضعيفاً أمام المحمّر والمشمّر وبدلاً من أن يصبح برشاقة الغزالة أصبح في وزن الدب القطبـي، وبطنه السمين تكور أمامه حتى حجب عنه الرؤية.

وبسبب ذلك كساه الحزن والقلق؛ فرئيس الطائفة رجل قاسٍ ومن المؤكد أنه سوف ينفذ تهديده ويطرده من العمل، وخشي من المستقبل المظلم الذي ينتظره هو وأسرته، فلم

يخبر من أمور الدنيا سوى إشعال القناديل، هذه المهنة التي توارثتها أباً عن جد.

لاحظت مهجة تكدر ملامح أبيها، وأنه أصبح عصبـي المزاج وهو الذي لم يكن يكف عن إطلاق النكات، وكانت تعلم تماماً ما الذي يؤرقه ويجعله مهموماً.

كان قد اعتاد أن يصطحبها معه وهي صغيرة؛ لتساعده في عمله، تمد له الخرقة القديمة بعد أن تبللها بزيت الكتان، أو تمد له زجاجة الأثير .وعندما أشرفت على عتبات المراهقة وبدأ جسدها يأخذ شكل الاستدارة كفَّ عن اصطحابها.

كان يحبها ويدللها فهي ابنته الوحيدة، جاء بها إلى الدنيا بعد انتظارٍ دامَ عشرين عاماً بالتمام والكمال لجأ خلالها هو وزوجته؛ لتجربة جميع وصفات العطارين، وزيارة المساجد والمشايخ وكذلك الكنائس والمعابد .أما السحرة والمشعوذون، فلم يتركا أحداً منهم في المدن والنجوع إلا وذهبا إليه .وعندما أيقن الشيخ مصطفى أن امرأته عقيم، ولن يرى له ذرية، كفَّ عن المحاولات .وكأن القدر كان يعانده بعد أن يئس وأقنع نفسه أن هذا مقدر ومقسوم .حملت زوجته ووضعت طفلة كالقمر في تمامه وخوفاً من الحسد أخفياها عن العيون .وعندما كانا يظهرانها تلطخ أمها وجهها برماد الفرن لتبدو قبيحة في عيني مَن يراها.

كان زوجها يلومها على ذلك ويمزح معها قائلاً :الذكر فقط هو الذي يُحسَد يا امرأة، أما أنتِ فأنجبت بنتاً.

في أحد الأيام بينما هو جالس مهموماً بعدما وجد أن الطيور في الحظيرة لم يبقَ منها سوى ديك وفرختين، وأن السمن والطحين قد أوشكا على النفاد .هذا غير مطمئن؛ فإذا طُرِد من عمله فبالتأكيد سيعانون من الجوع خلال الأيام القليلة.

اقتربت مهجة من أبيها :أبـي ..هل يمكنني أن أخرج لمساعدتك، حتى تخفض من وزنك وتستطيع أن تقوم بعملك على أكمل وجه كسابق عهدك؟

عنفها قائلاً" :هل جننت !هل تريدين أن تلوك سيرتنا الألسن ويقولون إن مصطفى المشعلجي يخرج ابنته لتعمل معه.

بصوت لين وهي تربت على كتفه:

-اصبر يا أبـي ..هل تعتقد أنني قد أفعل بك ذلك !سوف أخرج معك في هيئة شاب.

كان على وشك أن يقول شيئاً عندما واصلت كلامها دُون توقف..

-ألم تهرب من أسئلة الأهل والجيران الملحة والفضولية الذين كانوا يطاردونك بها (لماذا لم تنجب حتى الآن؟ ولماذا لم تتزوج امرأة أخرى لتنجب منها؟) بأخبارهم أنك بالفعل تزوجت وأنجبت في إحدى المدن البعيدة عندما كنت تعمل هناك ولداً أسميته (عزيز).

-نعم حدث ذلك منذ زمن وما دخل ذلك في الأمر؟

-إنه الأمر نفسه.

وضعت أمها أكواب الشاي وصحناً فيه فطائر الشريك التي خبزتها صباح ذلك اليوم وجلست تستمع لابنتها وهي تنظر إليها في دهشة.

-سأتنكر في هيئة شاب؛ وأخرج لمساعدتك وسنذيع وسط الناس أن عزيزاً قد عاد للعيش معنا فهو ولد طيب وعلى خُلق جاء من المدينة البعيدة لمساعدة والده .وبذلك لن يستطيع أحد أن يلوك سيرتنا، ولن يستطيع أحد أن يعترض فهو الوحيد المسموح له بمساعدتك كونه ابنك.

فرحت أمها بذكاء ابنتها، أما أبوها فظلّ يعبث في ذقنه الطويلة وهو ينظر إلى مفاتن جسد ابنته التي أصبحت ظاهرة ويفكر كيف بإمكانها أن تخفيها.

دُون أن يتحدث فهمت مهجة ما يفكر فيه؛ ركضت إلى غرفتها وخرجت وهي ترتدي جلباباً طويلاً وفضفاضاً من الصوف، وتضع على رأسها عمامة تلفها عدة مرات كعادة الريفيين .ولأنها كانت خمريه بعينين سوداوين تظللهما رموش كثيفة، ويحدهما حاجبان معقودان، فبدت كصبـي بلغ الحلم لتوه، مظهره تائه ما بين الطفولة والرجولة.

سألتها أمها بعينين اتسعتا دهشة من مظهر ابنتها:

-متى رتبت لكل هذا؟

-لقد ذهبت إلى الخالة نبوية وطلبت منها أن تصنع جلباباً لأخي القادم من قريته البعيدة.

انبهر أبوها عندما رآها، وسعد لأن ابنته تكن له كل هذا القدر من المحبة.

-يا مهجة قلبـي هذا العمل شاق ولن تقوي عليه.

-سأقيد القناديل الموجودة في الحي الإفرنجي فعددها قليل، وهناك يعيش القناصل والفرنجة .وبذلك سأكون قمت بمساعدتك دُون مشقة ودُون خوف مِن أن يكتشف أحد أمرنا.

غمز الرجل لزوجته لتسانده، وهكذا يكونان اثنين ضد واحد ولكن زوجته كان لها رأي آخر..

-دعها تجرب .ومن ناحيتي سوف أكفّ عن طهي الأكل الدسم حتى ينقص وزنك وتستطيع ممارسة عملك بنشاط كسابق عهدك.

ابتسم عم مصطفى وهو يقول:

-من الواضح أنكما اتفقتما عليَّ.

7

كل دقيقة كانت تمر على حسن كان يشعر فيها بالسعادة لغياب سيده .تمنى ألا يأتي أبداً .كان يشعر بلذة وهو يرسم في رأسه عدة سيناريوهات شديدة القسوة وضعها الباشا للتخلص منه، وكان ذلك نابعاً من كراهيته له، كراهيته لغروره، وتعاليه في التعامل مع كل المحيطين به، وأكثر من ذلك كان يكره حتمية استمراره في العمل عنده؛ كسجين لا يستطيع الفرار.

جلس على أريكة سيده ومدَّ قدميه وتذكر ذلك اليوم البعيد ..عندما دخلت مجموعة من الفرسان مدينته بعد أن وقعت بلاده تحت احتلال الجيش العثماني، أثارت جيادهم عاصفة من الأتربة، وتعالت صرخات النسوة وهن يرين أطفالهن الصغار يؤخذن مِن أذرعهن ومِن فوق صدورهنّ.

لم يكن قد تجاوز السابعة من عمره عندما أُخِذَ مِن أحضان أهله .ذلك كل ما تحمله ذاكرته له من هذا اليوم البعيد؛ صوت حوافر الخيل، وصرخات النساء، وزمجرة الرجال . تتداخل دائماً وتَعْبُر مسامعه كصدى مدوٍّ حزين في منامه ويقظته.

أبحرت سفينة بهم وهي تهتز ليس بسبب الأمواج المتلاطمة وحدها ولكن من قوة صراخ وعويل الأطفال .كان بينهم جوعى ومرضى وبالتأكيد كانوا جميعهم فزعين.

حطت بهم السفينة على مرفأ مدينة بورصة التركية، تزامن ذلك مع فجر يوم جديد ومعه بدأت صفحة جديدة من حياته.

وفي معسكر يقع على أطراف المدينة، من اتساعه لم تكن تظهر له بداية من نهاية، تربى هناك تربية صوفية جهادية .تعلم أن ولاءه يجب أن يكون لسلطان لم يره يوماً أو يلمح ذيل عباءته ولكنه سمع أن عباءته منسوجة من خيوط الذهب والفضة، وأن التاج الذي يضعه فوق رأسه يحمل ماسة تعادل وزنه.

في المعسكر تعلم لغة البلد .تعلم عاداتها وتقاليدها، وتدين بديانتها؛ حفظ كيف يؤدي الصلوات الخمس، وكان كلما تلعثم في تسميع التشهد للأوضة باشا مراقب الصلاة، يتعرض للضرب على قدميه بقصبة رفيعة حتى تدميان .لذلك ظل لمدة ثلاثة أيام يردده دُون توقف وأخبره زميله أنه كان يردده حتى في نومه.

عندما وصل الرابعة عشرة صار قوامه كعود سنديان، قوياً ومتيناً، وكانت عيناه السوداوان الواسعتان تشعان ذكاءً ولؤماً .وقد حان الوقت الذي على القادة أن يختاروا من بين الموجودين في المعسكر مَن الذي سيذهب للعمل في القصور، ومَن سيعمل في الدواوين الحكومية، ومَن سيكون سعيد الحظ لينضم (للإنكشارية) فرقة المشاة في الجيش العثماني.

أخبره صفوان صديقه أنه يريد أن يذهب للعمل في قصور السلطان، حيث ما لا

عين رأت من الجواري الملاح الحسان .وبّخه حسن، كيف تكون أقصى أمنياته هي السمع والطاعة للوصيفات والجواري والخصيان!؟

رد عليه :(أوليس أفضل لي من أن أنضم لجنود الإنكشارية، حيث خوض الحروب التي لا تنتهي للإمبراطورية العثمانية).

اكتفى حسن بالنظر إليه شزراً .أما زميلهما عبد اللطيف فكان يتمنى أن ينضم إلى فرقة (السكبان) وهي جماعة خاصة في الفيلق الإنكشاري تخرج مع السلطان للصيد، يقودون الكلاب السلوقية من زمامها ويحملون بأياديهم قضيباً رفيعاً من الخيزران، برؤوس فضية، ويتمتعون بمكانة عالية ولا يشاركون في حملات حربية ما لم يشارك فيها السلطان نفسه.

سخر منه صفوان قائلاً :أن أقود الجواري الحسان أفضل مِن أن أقود الكلاب السلوقية.

ولاحقاً عندما اختلى بنفسه، أخذ يفكر :هل يريد حقًّا الانضمام إلى تلك القوات الجهادية ليخرج معها في مسيرات حربية طويلة، ولصالح مَن؟

أيمكن أن يكون ولاؤه لمن أخذوه من أهله، لمن شتتوا عائلته واغتصبوا أرضه؟

بالرغم من أنه مرت عليه سنوات طويلة في هذا المعسكر، يعلن ولاءه صباحاً .. مساءً للسلطنة العثمانية وسلطانها وحاميها وشعبها وناسها وأرضها وأيضا لكلبها الأجرب، إلا أنه كان يشعر بمشاعر مزدوجة، مشاعر مربكة .هناك شيء يحول بينه وبين انتمائه لتلك الأرض.

هي ليست أرضه وهؤلاء ليسوا أهله، وهذا الشعب ليس شعبه !ولكن أين هي أرضه؟ من أي بلد جاء ومن أي حِضنٍ انتزِع!؟ لا يدري ولن يدري .لذا هو لا منتمٍ وسيحيى عمره كذلك.

أطاحت هذه الذكريات بسعادته لغياب القنصل، وتساءل ما الفرق إذا كان الباشا قد دبّر له ميتة بشعة أم لا؟ ما الفرق بين وجوده من عدمه؟

هل سينعم بذلك بحريته !؟ وأي حرية تلك !عليه أن يتحرر أولا حتى ينعم بالحرية بينما هو مقيد بأغلال لا يمكن أن يتحرر منها.

لذلك عندما دخل مسيو دروفيتي من الباب ووجده حسن أمامه بشحمه ولحمه وبسحنته القبيحة .لم تُصِبْه أي غضاضة.

كان يبدو على القنصل أنه مشوش، مشغول البال والفكر، جلس على مقعد صالونه الفرنسي الطراز، كان قد طلب من نجار يهودي حاذق أن يصنعه له، مطابقا لطقم فرنسي موجود في صالون قصر الألفي باشا .نظر النجار اليهودي إلى الأثاث المتراص في صالة فيلا الألفي، التي اتخذها نابليون مقراً له في أثناء حملته على مصر، وأخبره بدهاء أن هذه

الفخامة ستكلفه الكثير، لم يجادله؛ بل أجابه :(لك ما شئت) وبداخله ابتسامة خبيثة ولسان حاله يقول :(وهل أدفع من جيبـي!).

طلب من حسن أن يأتيه بغليونه، وجلس واضعاً ساقاً فوق أخرى، متأملاً سحاباً من الدخان الكثيف الذي خلّفته عدة مجات عميقة ومتسارعة، علم حسن من هيئة سيده أن وراءه شيئاً ما ولكن تُرى ما هو هذا الشيء!؟

لم يكن القنصل الفرنسي وحده الذي يمج من غليونه بقوة وعنف، كان والي مصر أيضاً يمج من أنبوب أرجيلته المُحلى بالألماس، نفس وراء آخر، حتى اختفى وسط دخانه الكثيف، وهو يعبث في ذقنه البيضاء الكثة التي تلمع بزيت براق جُلِبَ خصيصاً من دمشق.

كان باغوص باشا، شاحب البشرة أصفر، هزيلاً، نحيلاً، ينتعل دائماً حذاء مبطناً من الفرو، يقف بين يديه.

-ما رأيك في كلام هذا الرجل يا باغوص؟

-أخشى أن يكون...

ثم سعل سعالاً متقطعاً...

-ماذا؟

بحروف متقطعة وهو يرتجف كورقة شجر خريفية..

-مِن أن يكون...

-انطق يا رجل ..ما بك !ما الذي تخشاه تحدث؟

قالها بسرعة وكأنه يلقي بشيء ما في جوفه دفعة واحدة..

-يسخر منك.

زمجر محمد علي..

-كيف تجرؤ يا رجل أن تسخر مني!؟

خبطت ركبتا باغوص الواحدة في الأخرى.

-حاشا لله يا مولاي .لست أنا من يسخر منك، أقصد القنصل صاحب هذا الاقتراح.

-بمجرد أن يدور في مخيلتك، أن أحدهم بمقدرته أن يسخر من محمد علي باشا، فهذا معناه أنك أنت الذي تسخر مني، كيف تعتقد أنه أحدهم يملك القدرة على فعل ذلك؟ هل جننت!؟

-ولكن يا مولاي عند التفكير في اقتراح القنصل، يمكنك أن تعتقد

ذلك؛ فأي زرافة تلك التي تهديها لملك فرنسا !؟ ربما لو اقترح أن تهدي إليه سبعاً أو نمراً أو حتى فرساً عربياً أصيلاً؛ كان الأمر مقنعاً إنما ذلك الحيوان الضعيف ذو الرقبة الطويلة.

-أتعلم أن السر يكمن في هذه الرقبة الطويلة!

بصعوبة كتم باغوص ضحكته، وهو يفكر كم هو محتال هذا القنصل الفرنسي!

8

لندن -البرنامج -ربيع 2017

-ذكرت في كتابك أن وراء إهداء هذه الزرافة لملك فرنسا رغبات مستترة، فما الذي تعنيه بذلك؟

-إن التاريخ يصنعه قادة يملكون الكاريزما اللازمة لقيادة شعوبهم . وهذا لا يتحقق وقتما يشاؤون وبصور اعتباطية .فالتاريخ له منطقه المحدد، والزمن له روحه الخاصة والأشخاص القادرون على فهم هذه المعادلة وحدهم الناجحون عبر التاريخ.

ومحمد علي باشا أحد هؤلاء الأشخاص .لطالما كانت عقليته سابقة عصرها .وتحديداً للإجابة عن هذا السؤال علينا مسبقاً أن نعلم علاقة والي مصر مع فرنسا في ذلك الوقت تلخصها مقولته :(ما مِن صديقٍ مخلص لي سوى فرنسا).

في الوقت الذي كان الجميع يتربص به وينصب له الفخاخ ويتوقع سقوطه، لم يجد الباشا من يقف بجواره ومن يسانده بإخلاص سواها .عاش الباشا طوال حُكمه، رهينة للمؤامرات داخلية وخارجية .لذلك كان دائم الشك لا يثق في الآخرين بسهولة .وفرنسا الوحيدة التي كانت تمنحه الثقة، لذلك فتح أبواب بلاده لكل ما هو فرنسي؛ عِلم، تِجارة، ثقافة، وانطلاقاً من هذه العلاقة المتميزة تأسس طوال سنوات حُكمه ما يمكن أن نطلق عليه واقعاً فرانكوفونيا، وعلينا أن نتخيل هذه النقلة من مجتمع يسوده الجهل والتخلف إلى مجتمع ذي ثقافة فرانكوفنية، ومن مدن منغلقة على جهلها إلى مدن كوزموبالتية متحضرة.

خلال فترة حُكمه مصر صادف أن توالى على حكم فرنسا (نابليون الأول - لويس الثامن عشر - شارل العاشر - لويس فيليب)، وكانت علاقته معهم غاية في الرُقي والتحضر ولا نستطيع أن ننكر إن ملوك فرنسا جميعهم دُون استثناء كانوا يحترمونه، ولن نكون مبالغين إذا قلنا يخشونه أيضاً.

-وبرأيك ما السبب في ذلك؟

-كان الباشا ذكياً في التعامل مع ما يسمى وسائل إعلام العصر .لقد استولى على العقول الفرنسية وخلب لبها فكان يُنظَر إليه على اعتبار أنه وريث أفكار نابليون في الشرق .هذا الرجل ذو الذقن البيضاء الكثيفة والعمامة جعل (إدواردو جوان الشاعر الفرنسي المعروف ينظم فيه بيت شعر قال فيه)يا خليفة الله يا أبا إبراهيم، يا حدقة عين ذلك الشرق الذي هو عين أخرى للعالم فلتكن لمصرك الشابة مثل ندى الصباح).

استطاع في وقت قصير أن يؤسس دولة حديثة بفضل خبراء وعلماء وعسكريين جاؤوا بأنفسهم يعرضون خدماتهم عليه، وهؤلاء أصبحوا مجرد موظفين في مصر .يعملون تحت قيادة وإدارة الباشا وليس العكس كما حاول بعض المؤرخين إيهامنا .من أشهر عبارات الباشا (أدين بكل شيء لفرنسا، إن مَن ساعدونا على الخروج من البربرية التي كنا منغمسين فيها هم الفرنسة، إن مؤسساتي وتنظيم قواتي وأسطولي ليس إلا ثمرة هذا العمل النبيل .. فكيف لي أن لا أحب الفرنسيين!؟).

إنها حقيقة يا سادة لا يمكن تجاهلها، وعلى الذين يتخذون من هذه المقولة، سهماً مضاداً يغرزونه في قومية الباشا أن يضربوا رؤوسهم في الحائط ويخبرونا ما الضرر في ذلك؟ فكل ما فعله محمد علي لبناء مصر الحديثة بمساعدة الفرنسيين كان لمَن؟ أليس لمصر ولصالح المصريين.

-ولكن بروفيسور جهاد تشير جميع الكُتب التاريخية إلى أن محمد علي باشا كان يستعين بالفرنسيين

ويتجاهل وجود المصريين، ألا تجد في ذلك تمييزاً وعنصرية؟

-إن أكثر التُهم سذاجة التي أُلقِيَت في حق هذا الرجل، أنه يستعين بالغرب !أوَلسنا في زماننا هذا نرسل أولادنا لتلقي علومهم في الخارج، ألا نجلس واضعين ساقاً فوق أخرى ونخبر أصدقاءنا أن أولادنا يتلقون علومهم في المدارس الدولية الأمريكية والفرنسية والألمانية، أوَليس الباحثون وأساتذة الجامعات يلهثون وراء المِنح والبعثات في أوروبا وأمريكا ويتمنون العمل في جامعاتها، ألم ترسل المؤسسات والشركات الكبرى موظفيها إلى الخارج للحصول على دورات تدريبية؟ إذن لماذا يتحدث بعض المؤرخين عن هذا الأمر بالذات وكأنه عمل شائن.

ورأى المؤرخ (جاك تاجر) أن الطريقة التي كان محمد علي يعامل بها الفرنسيين ستكشف هذه التُهم الباطلة فالرجل يقول) :كان يعتبرهم مثل الألماس الخام الذي يجب أن تشتريه جملة وتخمينا ومع الاستخدام تكتشف أن عدداً كبيراً لا يساوي شيئاً ولا يصلح إلا للتخلص منه ولكن هناك حجراً نفيساً وسط هذه الكومة .(دعونا لا ننكمش في جحورنا ونردد كالببغاء دُون وعي ما حاولوا أن يحشوا عقولنا به بأن الباشا كان يكره المصريين ويحتقرهم ويعاملهم بتعالٍ و ...و...

-دعنا نعدْ مرة أخرى إلى موضوع الكتاب، بعض المؤرخين أشاروا إلى أن إهداء الزرافة للملك شارل كان خدعة من دروفيتي قنصل فرنسا في مصر وقتها ليهزأ بها من الباشا وتهتز صورته أمام الملك وتسوء العلاقات بين البلدين؟

-عفواً، ولكن هذا رأي المؤرخين، ذوي الثقافة الضحلة والنظرة المحدودة، ليس هناك مبرر واحد لذلك .فالقنصل كان ينعم بمكانة وحرية في ظل حكم محمد علي .وفي الواقع أن هؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم مؤرخين

يجب عليهم، قبل إلقاء التُهم جزافاً، أن يبحثوا ليعلموا أن الزرافة كانت وقتها حيواناً نادراً .ويحكي قيصر روما في أحد مواكب انتصاره (عام 46) قبل الميلاد وهو على ظهر زرافة (أحضرها معه من الإسكندرية، وهي سودانية بلا ريب)، ووصف ذلك المشهد كُتَّاب وشعراء مثل (بيلينيوس وهوراس) واستمر ذلك الاهتمام بالزرافات حتى العصر الإسلامي حين عُقِدَت)اتفاقية البقط عام 651م (بين حكام مصر المسلمين ومملكة المقرة المسيحية، ووردت الزرافة في تلك الاتفاقية إذ نصت على أن يدفع حكام المقرة لحكام مصر جزية سنوية تشمل 400من الرقيق وعدداً من الجِمَال وفيلين وزرافتين .وكان عرض الزرافة للعامة في الاحتفالات مصدراً للفخر عند الحُكَّام الفاطميين والمماليك، مثلما كان عند حُكَّام الرومان.

9

لندن - شتاء 2015

شعر جهاد بأن الدماء أخذت تجري مرة أخرى في شرايينه، وحماسه بدأ يدب اتجاه أبحاثه .كان شغفه قد فتر اتجاه الأبحاث وعقد الندوات وإلقاء المحاضرات، وذلك بعد أن قدم أطروحته الأخيرة التي تعرض بسببها لهجوم لاذع وشنيع من المؤرخين المصريين وأساتذة التاريخ.

لطالما كانت أبحاثه التاريخية خارجة عن القواعد الثابتة التي وضعها كهنة التاريخ . كان التاريخ بالنسبة إليه قصة شيقة، لا يسمح لنفسه بسردها مرتين، كانت مسألة لياقة، ألا يقدم للآخرين حكاية استهلكت من قبل .كان يبحث عن معلومة جديدة يدسها داخل الحكاية، وبتقديمه دائماً للجديد جعل من التاريخ سرداً جذاباً، جعل منه طريقة مثيرة للجوء للماضي، للبقاء أطول وأحيانا للهروب .لذلك تعرض دائماً لهجوم لاذع، وبالرغم من ذلك واصل ولم يتوقف .ولكن في مرحلة ما من عمر الإنسان يشعر فيها بالسأم من بخس الآخرين حقّه، وكان قد وصل إلى هذه المرحلة.

تخصص في دراسة تاريخ مصر الحديث وفُتِنَ بـ) محمد علي باشا (ولجأ إلى نظرية جديدة في دراسته له تحيل جميع القرارات التي اتخذها خلال العقود التي حكم فيها مصر للبناء النفسي لشخصيته، لذلك خرجت دائماً دراساته وأبحاثه التي أجراها مختلفة ومغايرة عن كل ما كتب عن الباشا بواسطة مؤرخين مصريين وغربيين.

بعد أن عُيِّن مُعيداً في الجامعة وبدأ في العمل على أطروحته)آخر أيام محمد علي باشا (رفض المشرفون مناقشتها .واتهموه أنه يريد أن يشوه التاريخ، وكوّنوا عصبة ضده، وقتها كان عمره وخبرته لا يسمحان له بمواجهتهم .قرر السفر لاستكمال دراساته العليا في الخارج بعد أن تأكد أنه بهذه الطرق التقليدية لن يصل إلى شيء.

وبدأ العمل على مشروعه، الذي راودته فكرته منذ أن كان طفلاً صغيراً .فصورة الباشا التي احتواها كتاب التاريخ للصف السادس الابتدائي، كانت بمثابة بطاقة تعارف قدَّمها الزمن له.

بعمامته البيضاء، بذقنه الكثة، بشاربه المعقوف، وبهذه النظرة في عينيه .هذه النظرة التي كان يخبئ ورائها سراً عميقاً.

على شفتيه كان شبح ابتسامة شعر أنها موجهة إليه ..إليه وحده.

كان دائماً مشحوناً بطاقة هذه الصورة، لم يستوعب أن هذه الملامح الودودة تحمل هذه القسوة التي كُتِبَت عنه .نحى كل ما قرأه عنه جانباً وكتب هو، وحاول أن ينفي التهم الغاشمة التي أُلصِقَت به.

لذلك بمجرد ذِكر اسم الباشا، يتبادر إلى الأذهان في الأوساط التاريخية اسم دكتور جهاد مصطفى فقد أصبح مرتبطاً به .وأخذت الجامعات في أنحاء العالم تتواصل معه ليلقي المحاضرات عن تاريخه.

وفي قاعة المحاضرات يعرف كيف يجتذب انتباه الحضور، كمطرب محترف يعرف تنغيم صوته واللعب بالصمت والموسيقي، ليجعل الحضور أكثر انتباهاً وإثارةً .لذلك لم يكن في القاعة التي يقدم فيها محاضرته موطأ لقدم وكان سعيداً بذلك لأن قاعات المحاضرات والندوات التاريخية كانت دائماً خاوية على عروشها.

جلس لعدة ساعات متواصلة، مطأطأ الرأس بين عدد من الكتب والمجلدات التي افترشت مكتبه في منطقة بلومزبري بلندن، وعندما انتهى أجْرَى اتصالاً.

-الرجل الذي تبحث عنه هو (أتني جريجوري سانت هيلاري وهو من مواليد فرنسا في عام 1772وتُوفيَّ في عام 1844)، هذا الرجل قد خرج مع بونابرت في حملته الحربية على مصر، ليس كجندي بالتأكيد، ولكن كعالِم من العلماء الذين ضمتهم الحملة العلمية .وحقق الكثير من الاكتشافات في وادي النيل والدلتا .بعثه ملك فرنسا لاستقبال الزرافة عند وصولها إلى ميناء مرسيليا لتبقى تحت إشرافه حتى تصل سالمة إلى باريس .وسانت هيلاري صاحب نظرية مهمة تعتمد على التشريح المقارن للمخلوقات الحية والمنقرضة، ومن هنا يتضح أن هذا الرجل كان مشغولاً بالتفكير في مثل هذه التجارب، ومؤكد قد أجرى تجاربه على الإفريقية الجميلة.

قاطعه دكتور مصطفى عند ذِكر الإفريقية الجميلة وكأن جميع المعلومات المهمة التي أخبره بها لا تعني له شيئاً.

-ولكن مَن هي الإفريقية الجميلة؟

قهقه دكتور جهاد، فبدا أصغر من عمره بأعوام كثيرة .جميع من عرفوه من رجال ونساء كانوا يخبرونه أن ابتسامته تمنحه عمراً أصغر، ولكن للأسف لم يستغل هذه الميزة، فكان من النادر أن يبتسم، يبدو دائماً مهموماً بأمرٍ ما!

-إنها الزرافة يا عزيزي، التي تحاول أن تحميها من الانقراض .لقد أطلق عليها صحفي فرنسي هذا الاسم.

-أشكرك جدًّا عزيزي جهاد .الآن قد وضحت الأمور ولكن هناك شيئاً آخر ربما تملك معلومات عنه.

لم ينتظر أن يسأله ما هو هذا الشيء؟ كان يعلم شغفه بمثل هذه الأمور ويحاول بقدر الإمكان أن يستفيد منه.

-من أين جُلِبَت هذه الزرافة؟ هناك بعض المصادر تقول إنها من دارفور ولكن هذا ليس صحيحاً فمقارنة زرافة دارفور بهذه الزرافة تبين أن

عنق زرافة دارفور أكثر طولاً، وهناك مصدر آخر ذكر أنها من كردفان، وآخر أنها من سنار، ومؤرخ فرنسي قال إنها أُصطِيدَت من منطقة بالقرب من الحدود مع أثيوبيا؟

-نعم، لاحظت ذلك .هناك الكثير من تضارب المعلومات عن أصل هذه الزرافة، لكنني في الواقع لا أستطيع أن أفيدك في ذلك.

بعد برهة من الزمن قضاها وهو يحُك ذقنه النابتة التي كانت في حاجة إلى أن تُحْلَق لولا أن تليفون صديقه هذا الصباح أربكه وجعله ينسى أن يفعل ذلك.

-على أي حالٍ سألجأ إلى مؤرخ سوداني زميل ربما يفيدنا في الأمر.

-أشكرك جدًّا في الحقيقة لا أعرف مِن دُونك ماذا كنت أفعل؟

أغلق السماعة وعلى وجهه تعبير السخرية (لا أعرف مِن دُونك ماذا كنت أفعل)، لطالما سمع هذه العبارة هو مثلهم تماماً عندما يريدون مساعدته، يتذكرونه، يتصلون به، يسألون عنه وعن أخباره وصحته وأبحاثه؛ ثم يتطرقون إلى غايتهم وبعد أن يجيبهم، يغلقون الخط، وهم يرددون العبارة ذاتها .ربما يعودون مجدداً للسؤال عن شيء أو يختفون للأبد.

هي أيضاً كانت تقولها، ولكنها كانت تلفظها بطريقة مختلفة، نبرتها كانت أقرب للهمس وبها الكثير من الدلال .في إحدى المرات مدت أصابعها عبر الطاولة ولمست أصابعه وفي عينيها نداء غامض .سحب يده وفي رأسه يقين واحد أن هذه الفتاة تحاول أن تستميله ليمنحها درجات أعلى في أطروحتها التي يشرف عليها.

كان يفوقها بسنوات كثيرة وكانت جميلة وذكية .سؤال واحد ظلّ يتردد في عقله، ما الذي يجذب فتاة جميلة إلى بروفيسور التاريخ !صحيح هو يتمتع بوسامة لافته وقوام رشيق، ولكنه يسير عكس اتجاه الزمن، يتسلل من باب خفي، ليضيء دهاليز الماضي.

سألها ما الذي يعجبك في رجل محاط بكتب ومجلدات التاريخ طوال الوقت .رجل كرَّس نفسه للبحث العلمي والتنقيب في الماضي والأهم من ذلك أنه نادراً ما يبتسم.

ابتسمت وهي تجيبه) :نعم ..أحبها تلك شاعرية كآبتك (وارتبطا .ولأنه ليس من الممكن بناء حياة أسرية على (شاعرية الكآبة) انفصلا بعد ثلاث سنوات من الزواج.

10

الإسكندرية - صيف 1826

على غير العادة استيقظ مسيو دروفيتي، في السادسة صباحاً، احتسى عدة فناجين من القهوة وخرج إلى حديقة منزله .توجه إلى بناء صغير على أطرافها، وضرب باب الغرفة بعصاه الأبنوسية عدة ضربات متتالية؛ استيقظ حسن فزعاً على صوت الضربات التي ظلت تلاحقه دُون هوادة، ولم تمنحه حتى فرصة أن يضع عمامته.

قام مسرعاً وهو يتوعد السقا إن كان هو من يفعل ذلك، فتح الباب باغته شعاع شمس أخذ يفرك عينه وهو يتأمل سحنة القنصل مندهشاً.

وبحركة لا تخلو من العنجهية، أزاحه القنصل جانباً بطرف عصاه، ودخل ينظر إلى أرجاء غرفته بازدراء.

-أمَا زلت نائماً أيها الكسول؟

لم يَعْتَدْ حسن أن يقابل أحداً دُون عمامته، كان يشعر أنه عارٍ .منذ أن كان بفيلق الإنكشارية وكان (كتخدا بيه) المسؤول عن هيئة ومظهر الجنود يعاقب بقسوة من وجد غطاء رأسه معصوباً بشكل سيئ أو غير مُهندم، ومنذ ذلك الحين اعتاد أن لا يخلعه أبداً . صحيح أن عمامتهم مختلفة فهي من اللباد وتُطوى من الخلف وتنساب بين الكتفين .في الثكنة الخاصة بهم كانت تتردد على مسامعه مراراً وتكراراً وهي أن (حجي بكتاش) صاحب ومؤسس الطريقة البكتاشية الصوفية التي يتبع منهجها جنود الفيلق الإنكشاري جُرحت ساق ابنه فقطع كُمَّ جلبابه ليلف له ساقه، واحتراماً من الابن وضعها فوق رأسه ومنذ ذلك الحين اتخذها الإنكشارية طريقة للباس الرأس لم تتبدل على مر السنين.

لذلك تركه يوبخه وانشغل بعقد عمامته، مما أثار عصبية القنصل أكثر فعنّفه قائلاً:

-اترك ما بيدك، واسمعني جيداً وانتبه لما سأقوله؛ تذهب فوراً إلى كبير صانعي السفن مسيو (ميج) ورئيس عمال النجارين مسيو (جينوسلنج) ورئيس مرافئ الإسكندرية، ولا تأتي إلا وهم معك.

ردد حسن خلفه:

-كبير صانعي السفن ورئيس عُمَّال النجارين ورئيس المرافئ .. الآن!؟

-نعم ..وللمرة الثانية لا تأتي إلا وهم برفقتك وإلا حسابك سيكون عسيراً يا بربري.

رمقه حسن بنظرة لم تعجب القنصل.

كان يعلم تماماً أن حسن يمقت لقب البربري الذي أطلقه عليه عندما قُدِّم للعمل عنده، كان تَعَامُله بتعالٍ في إصدار الأوامر يثير غضبه ونبهه أكثر من مرة أنه يمقت هذه الطريقة؛ فهو جندي سابق في قوات الإنكشارية ويجب أن يكِن له الاحترام، ولكن القنصل سخر منه مشيراً إلى أنه مجرد عبد جاء لتلبية الأوامر، ونكاية فيه كان حسن في أوقات كثيرة لا يُلبِّي مطالبه ويرمقه بنظرات يملؤها الغِل والغضب .وفي إحدى المرات استشاط القنصل غيظا عندما أجابه حسن أمام مجموعة من ضيوفه بطريقة وجدها القنصل إنها تخلو من الاحترام فصاح فيه :(ألم أطلب منك أن تكُف عن سلوك البرابرة هذا وتصبح شخصاً متحضراً، ولكني سوف أؤدبك حتى تعرف كيف تعامل أسيادك)، ومن يومها لم يتوقف القنصل عن مناداته بالبربري حتى لُصِق اللقب فيه.

ارتدى حسن ملابسه على عجل وهو يسب ويلعن وخرج وهو يفكر أن هذا الرجل قد أصابته لوثة عقلية .فما السبب في استدعاء هؤلاء الرجال في هذا التوقيت المبكر؟ ولكنه خمن سريعاً أن استدعاءهم العاجل له علاقة بمقابلته بالباشا أمس.

وكصباح كل يوم كان الصخب والجلبة .السقاؤون الذين يملؤون قِربهم المصنوعة من جلد الماعز .ويطوفون الشوارع يصيحون بنداءاتهم لبيع المياه .وتحذيرات أصوات غاسلي الثياب لفض الطريق وهم يسيرون منحنين، تنوء ظهورهم بحمل القفف الممتلئة بالثياب المتسخة التي جمعوها من المنازل وعليهم إعادتها مع اقتراب العصر لأصحابها نظيفة وتفوح منها الروائح العطرة.

ولأن الباشا قد أصابه الولع بالتشييد والإنشاءات كان من المستحيل تمييز صياح باعة الفاكهة والخضار الجائلين عن الضوضاء التي تصدر عن أدوات البناء في أيدي العمال.

ابتهج عندما قابل بائع القهوة المتجول لأنه كان بحاجة إليها، فقد خرج دون حتى أن يبل ريقه بشربة ماء .يضع البائع عدته فوق كتفه، عصا يتدلى منها جنزيران؛ أحدهما معلق به دورق القهوة والآخر به عدة أكواب من الألومنيوم.

سكب له الرجل عدداً مِن الأكوابِ تجرعها على رشفة واحدة الواحد بعد الآخر .ثم واصل طريقه بنشاط واجتاز بسرعة سوق العطارين . كانت روائح التوابل والأعشاب التي تُجْلَب من أصقاع أخرى في العالم تهب عليه، باعة لحوم مشوية والفطائر المحشية موزعة في سلال من القصب موضوعة على ظهور البغال.

كانت الرياح الباردة القادمة عبر البحر تلفح وجهه وتذهب به إلى هناك؛ إلى هذا اليوم العاصف الذي قرر مصيره، عندما وقفوا في طوابير طويلة لتحديد فرقة كل منهم، قبلها بعدة أيام كانوا قد خضعوا لعدة اختبارات بدنية وذهنية بِناءً عليها تم اختيارهم، مَن تفوق في الأمور البدنية وحدها كان مصيره العمل في قصور السلطان، ومَن كان فائق الذكاء فذهب للعمل في الدواوين الحكومية، أما مَن تفوق في الاثنين فقد انضم إلى فرقة الإنكشارية في الجيش العثماني .وكان هو ضمن عدد قليل منهم.

وفي مقرهم الجديد في ثكنة التدريب التي تقع على الحدود، وزعوا لكل منهم زياً عسكرياً .في البداية فرحوا به ولكن مع الوقت تأكدوا أنه حِمل ثقيل على الروح والقلب .فقد تبدلت حياتهم كلياً منذ أن ارتدوه، ظلوا يعيشون تحت قيود؛ أوامر مشددة وقواعد صارمة وتدريبات شاقة ليل نهار.

أفاق مِن أفكاره أمام بيت كبير النجارين، طرق الباب وطلب من خادمه أن يبلغ سيده أن القنصل الفرنسي يريده فوراً .اختفى الخادم برهة، وظهر مجدداً، وأخبره أن سيده سيلحق به .أجابه بحزم :أنه ينتظره ليصطحبه معه.

أما رئيس صانعي السفن فكان مِن الواضح جدا أنه شعر بالضيق فقد زمجر صائحا) :ما الكارثة التي وقعت في الكون ليحتاجني قنصل فرنسا في هذا الصباح الباكر؟.(

وحده رئيس المرافئ، وبالرغم أنه كان مشغولاً على الإشراف في إفراغ شحنة، تهللت أساريره ورسم فوق وجهه ابتسامة عريضة عندما علم أن القنصل يريده.

وكان حسن يعلم تماماً سر سعادته، فهو يتعامل مع صائدي الحيوانات الإفريقية ومهربي البضائع ويعرضها على القنصل ويحصل منه على عمولة مجزية، والقنصل بدوره يبيعها بأموال طائلة لأغنياء أوروبا أو يهديها إلى ملوكها للوصول لمبتغاه.

ساروا معاً، أربعة رجال بأعمار مختلفة من أقوام مختلفة .رئيس النجارين يعتمر قبعته من الخوص بحواف من الجلد، ورئيس صناعي السفن يرتدي قبعة من اللباد، ويضع رئيس المرافئ قبعة من الفرو، أما حسن فكان يلف عمامته خمس لفاتٍ الواحدة فوق الأخرى بنظامٍ واتساقٍ .كانوا يسيرون في صمت تعبث بهم رياح قوية.

وفي بيت القنصل اجتمعوا حول طاولة مستطيلة، وجَّه القنصل حديثه لرئيس المرافئ وبلهجة آمرة:

-أريد منك أن ترسل في جلب (زرافة) من إفريقيا على وجه السرعة.

ردد الرجل خلفه في اندهاشٍ..

-زرافة!

-نعم، زرافة ألم تسمع بها من قبل!؟

-من المؤكد أنني أعرفها ولكن ترحيل هذا الحيوان ونقله بأمان لمسافات طويلة يُعَد أمراً في غاية الصعوبة.

-علينا إذن أن نذهب إلى ﷴ علي باشا لنخبره برأيك هذا.

انتفض الرجل في مقعده عندما سمع سيرة الباشا.

-على أي حالٍ أفضل وسيلة لنقل الزرافة هي استئناسها .ولا يمكن

استئناس الزرافة إلا إذا تم اصطيادها وهي صغيرة حتى تعتاد التعامل مع البشر.

-هذا ليس من شأني .عليك أن تصدر أمراً باصطياد زرافة وتشرف على ذلك بنفسك، وتجلبها إلى هنا في أسرع وقت.

ثم نظر إلى رئيس صُنّاع السفن ورئيس عُمال النجارة وباللهجة الآمرة نفسها..

-وأنتما عليكما صناعة سفينة خصيصاً لنقل الزرافة إلى فرنسا، ولتعلما أن عملية نقل الزرافة سيكون خلال طقس سيئ، لذلك يجب أن تراعيا ذلك، ربما بإمكانكما أن تصنعا قبواً كبيراً في السفينة لوضع الزرافة فيه.

قاطعه رئيس النجارين..

-ولكن رقبة الزرافة طويلة جدًّا فأي قبو هذا الذي سيكون بمثل هذا الارتفاع؟

-في الواقع لا أعلم، هذا عملك .وفي جميع الأحوال يجب أن تسافر هذه الزرافة سالمة غانمة إلى فرنسا وإلا ستلاقون جميعكم عقابكم من الباشا.

سمع حسن الذي كان يقف على مقربة منهم ما يدور .فظهرت على وجهه ملامح الاندهاش والسخرية .انتظر القنصل حتى ذهبوا وبلهجة آمرة أخبره..

-أما أنت يا حسن فعليك أن تأخذ دروساً في اللغة الفرنسية .صحيح أنك مُلم ببعض كلماتها من خلال وجودك هنا وتعامُلك معي منذ عدة سنوات . ولكن يلزمك أن تتقنها، فأنت الذي سوف تتولى شؤون الزرافة!

ضحك حسن بسخرية..

-أتولى شؤون الزرافة ..أي زرافة تلك التي عليَّ أن أتولى شؤونها !من الواضح أنك نسيت أنني جندي في قوات الإنكشارية ولا أجيد سوى القتال.

-كنت يا بربري ..والآن أنت عبدٌ لي وعليك تنفيذ ما أقوله لك.

ثم قام بخطوات حازمة .كان يظهر ضئيل في بذلته الإفرنجية، وقبل أن يخرج من الباب التفت وراءه..

-من الغد سأرسل لك معلماً للفرنسية ليس أمامنا وقت.

(ليس أمامنا وقت) ظلت هذه الجملة تتردد داخل عقله ..هل حقًّا ينوي هذا الرجل أن يرسله مع الزرافة إلى تلك البلاد البعيدة التي لا يعرف أين تقع؟ وكم من الوقت ستستغرق هذه الرحلة؟ وهل سيعود منها سالماً؟

هذه الأفكار ذهبت وجاءت به، وجثمت على نفسه وروحه كالكابوس وكاد قلبه أن يخرج من بين أضلعه .هو العاشق للنفس الأخير منه كيف بإمكانه أن يبعد عن حبيبته!؟

عندما أوشكت الشمس على المغيب كان في انتظارها بجانب البوابة التي تأتي كل يوم لتشعل قنديلها.

11

في المقهى الذي اعتاد المكوث فيه بمنطقة الأزبكية جلس مسيو دروفيتي مع ديليسبس يدخنان الغليون ويتناولان القهوة.

قال القنصل:

-في الواقع أنا احترت في فهم طبيعة هذا الرجل .فهو يتمتع بذكاء لا حدود له.

-بالتأكيد .انظر كيف استطاع أن ينفرد بحكم مصر ومعه خمسمائة جندي فقط وتخلص من المماليك والإنجليز.

-في فرنسا يطلقون على مذبحة المماليك (برومير محمد علي)، إنهم يشبهونها بالانقلاب الذي قام به نابليون للتخلص من حكومة الثورة الفرنسية.

-أنه يخطو على درب نابليون، ويحلو له أن يُطلَق عليه نابليون الشرق.

-ربما لأن كلاًّ منهما قضى على أنظمة سياسية دامت لقرون، كل منهما اهتم بالإصلاحات وفي الوقت نفسه خاض كل منهما الحروب.

رد ديليسبس بسخرية:

-ولا تنسَ الأهم من ذلك، نابليون بقيَ في نظر الغرب دخيلاً اعتلى السلطة بفضل الثورة، وفي الشرق ما زالت الإمبراطورية العثمانية لا تنظر لمحمد علي إلا على أنه باشا ثائر، انقضّ على حُكم مصر وعيّن نفسه والياً عليها رغم أنف السلطان العثماني .لذلك فهما يتشابهان في كثيرٍ من الأمور.

-إذن فلنطلق عليه إمبراطور الشرق.

قهقها معاً وطلبا من النادل أن يحضر لهما المزيد من القهوة.

-لا أعرف كيف استطاع الملعون باسكال كوست في هذه الفترة القصيرة باستمالة الباشا إليه!؟ لقد بدأ في تشييد الوزارات والقصور في القلعة.

-الباشا يضع فيه كل ثقته؛ فقد جاء بناء على توصية من مسيو جومار وهو المشرف على البعثات التابعة لوالي مصر في باريس.

-لقد أقنعه ببناء فرساي صغير في شبرا، أيكات، ومتاهات ومضمار خيل، وحوض كبير محاط بمجموعة من الأروقة مع أربعة أجنحه

للديوان، ومسجد للصلاة، وممرات طويلة تحفها الأشجار، وزخرف قاعة الطعام بمناظر من كِتَاب (وصف مصر)، أما قاعة البلياردو فقد أُسْتُوحِيَتْ من مشهد إيبير روبير (أروقة تحت الأطلال).

-والغريب حقًّا أن الباشا قد منحه حق بناء المساجد وأصدر فرمان لدخوله أي مسجد في أي وقت يشاء.

-هو بالنسبة إليه)المعماري سنان (الذي صنع العصر الذهبي للعمارة العثمانية.

-لقد منحه لقب (معماري في خدمة صاحب السمو والي مصر)، على أي حالٍ أجد أن باسكال يستحق ذلك وأكثر فهو عبقري حقًّا.

نظر ديليسبس إلى القنصل وفاجأه بسؤاله:

-ولكن ألا تخشى العواقب التي سوف تقع فوق رأسك في حال لم تصل هذه الزرافة سالمة!؟

ظهر على القنصل الارتباك وهو يجيبه:

-ما الذي يمكن أن يفعله؟ هو يحاول إرضاء ملك فرنسا .ولن يجرؤ مهما حدث، أن يعاقب ممثل الملك.

-وهل تعتقد أنه بمثل هذه السذاجة .من المؤكد أنه سوف يدبر لك شيئاً ويكون بعيداً عنه تماماً.

وضع دروفيتي يده على عنقه وهو يتخيل أن الباشا دبر له جريمة بشعة، بفصل عنقه عن جسده .ولكن الباشا يأمر بقطع الرقاب لتعليقها على البوابات لتكون عِبرة، وإن فعلها في السر فلن يستطيع أن يرهب أحداً بذلك.

نظر إلى ديليسبس الذي كان على وجهه شبح ابتسامة وتهيأ أنه يقول له:

-ربما يعلقها في الممرات الطويلة المظلمة في سجون القلعة.

لاحظ ديليسبس أن القنصل سمَّر نظره عليه.

-ما بك يا رجل؟

وفي طريقه إلى البيت تساءل ما الداعي لكل هذا القلق !؟ ألم يبعث عدداً من الخيول الدنقلاوية إلى ملك سردينيا، ودستة من الخراف النوبية البيضاء إلى المستشار الروسي وتمساحاً نيلياً إلى ملك هولندا .إذن ما المشكلة في إرسال زرافة إلى ملك فرنسا!؟

12

كان من الواضح من لهجة مسيو دروفيتي مع رئيس الموانئ أنه لن يسامح ولن يتهاون أبداً .وإن أمر اصطياد الزرافة لا عبث فيه .لذلك ما أن انفض اجتماعه معه حتى بدأ اتصالاته بعملائه في منطقة النيل الأزرق ومنطقة كردفان ودارفور .وأخبرهم أنه يريد زرافة صغيرة وفي سبيل ذلك سيمنح صاحبها مبلغاً مالياً كبيراً.

لم يمر أسبوع حتى تلقى القنصل من رئيس المرافئ خبر بصيد الزرافة، بالمواصفات المطلوبة من جنوب شرق سنار، ووقتها فقط استطاع القنصل أن يتنفس الصعداء.

بعد عدة أيام وصلت الزرافة سالمة غانمة إلى ميناء الإسكندرية .وكان في استقبالها مسيو دروفيتي بنفسه وعدة أعضاء من الهيئة الدبلوماسية الفرنسية.

تجمعوا في الميناء وبأيديهم النظارات المكبرة، يتطلعون عبر المياه المتلاطمة، إلى سفينة تبخر عباب البحر، تحمل على ظهرها زرافة، ورجل إفريقي من دارفور يقوم برعايتها يسمى عطير، وبقرتين لتزويد الزرافة باللبن اللازم لإشباعها.

وما إن رست السفينة حتى أسرع رئيس المرافئ مع القنصل والوفد الدبلوماسي لاستقبال القادمين من مجاهل إفريقيا.

حملها التاجر الذي قام بجلبها وقدمها لدروفيتي، الذي مد ذراعه ثم ضمه مرة أخرى متردداً في حملها

واكتفى بقوله :(شكراً تبدو زرافة جميلة حقًّا) .

لم يعجب سلوكه التاجر الإفريقي الذي تبدو الشراسة على هيئته.

-ولماذا لا ترى البضاعة التي أرسلت في جلبها؟ لتتأكد أنها كما طلبتها تمام.

تحدث بعنف كما لو يريد أن يلكمه .أثارت طريقته خوف دروفيتي .فمد يده وربّت على ظهر الزرافة بحنان.

-نعم ..تبدو تماماً كما طلبتها، شكراً لك.

ثم نظر إلى رئيس المرافئ الذي كان يتابع ما يحدث دُون أن يتدخل.

-أعطه ما اتفقنا عليه.

-وإلى أين سوف ننقلهم؟

-إلى مزرعتي، لقد أعددتُ للبرنسيسة مكاناً لائقاً بها.

عندما كان يهم بالذهاب وقع نظره على حارسها .شاب في العشرين تقريباً، أسود البشرة، بقوام نحيف، طويل.

كانت هيئته تبدو غريبة، يرتدي بنطالاً واسعاً وصديرية ضيقة من الفراء ويعلق في عنقه سلاسل تدلي منها ريش وأنياب حيوانات برية، ويضع على جانبه الأيمن رمحاً طويلاً.

-وأنت ما اسمك؟

نطقها بالعربية التي لا يجيدها تماماً فكتم عطير ضحكته وهو يخبره.

-عطير.

-أنت المسؤول عن هذه الزرافة، عليك أن تبقيها سعيدة ومبتهجة دائماً وإلا عقابك سيكون وخيماً.

كانت لهجة القنصل شديدة .فشعر عطير بالندم وتساءل ما الذي جاء به إلى هنا؟ وما معنى أن يدخل البهجة في قلب زرافة .لم يشأ أن يخبره أن هوايته هي الركض وراء الزرافات في الغابة، ورميها بالحصي والطوب!؟

بعدها جلس القنصل وسط عدد من أصدقائه في حديقته يحتفل بهذه المناسبة.

وضع الطاهي الشاة التي نقعها لمدة يومين في مجموعة خاصة ومنتقاة من التوابل والبهار في سيخ طويل، وفاحت رائحة شهية في الجو وهو يقلبه على الحطب.

ابتسم تاجر الحرير وهو يقول :يا لها من رائحة يسيل لها اللعاب.

غمز له القنصل..

-انتظر وسترى ما الذي يسيل له اللعاب حقًّا.

ثم أشار إلى سكرتيره الخاص.

دخلت فرقة غوازي، تجمع أعضاؤها في دائرة كبيرة حول رئيستها، التي أخذت في تأدية رقصة النحلة وفيها تمثل أجمل الراقصات في الفرقة أن نحلة قرصتها، وتبدأ في خلع ملابسها قطعة ..قطعة لتبحث عنها .ثم تنهض على قدم واحدة وقد أطلقت الثانية في الهواء وتلف في جميع الاتجاهات.

تنحني فيتموّج لحمها ويهتز، عيناها سوداوان واسعتان، كتفان مليئتان، ونهدان يترجرجان.

سال لعاب الرجال وجحظت أعينهم وتسمرت نظراتهم، وهم يشاهدون العرض المغري المثير.

بعد انتهاء الرقصة تقدمت الراقصة بخطوات يشوبها الإغراء ونظرات يملؤها الفسق، وهمست في أذن القنصل تسأله إن كان يريد بعض المتعة.

فأشار إلى سكرتيره أن يذهب بها للدور العلوي.

بصوت متهدج اقترب منه رجل سمين..

-لا أعرف ما الذي يضايق الوالي من الغوازي ولماذا أمر بنفيهم خارج القاهرة وهن يرفهن عن الشعب المسكين.

-أمره غريب حقًّا .لماذا يترصد لهذه الفئة التي ترفه عن الرجال المساكين.

تعالت قهقهاتهم وقاموا لتناول الغداء.

13

لندن -شتاء 2015

بحث في مفكرة هاتفه عن رقم المؤرخ السوداني وأستاذ التاريخ بجامعة أكسفورد)إسماعيل درغام(، وعندما لم يجدها اتصل بالدليل، رسالة صوتية طلبت منه أن ينطق باسم الشخص، وفي أقل من عشر ثوانٍ كانت أرقام الرجل وعناوينه بحوزته.

تواعدا أن يلتقيا في مكتب بروفيسور إسماعيل بجامعة أكسفورد في الواحدة من بعد ظهر الغد.

لطالما كان مبنى جامعة أكسفورد يذكره بوحشة أيامه الأولى، التي جاء فيها إلى إنجلترا، كان ذلك في مثل هذا الوقت من نهاية العام، شجرة الميلاد العملاقة تتوسط المبنى، الطلبة يذهبون ويجيئون، وظل صفير الرياح الباردة بينما يعبر هذا الممشى الطويل ليصل إلى المباني الإدارية يلازمه خلال لياليه هناك .هو القادم من البلاد الدافئة كان من الصعب عليه التأقلم مع هذا الجو .وبالرغم من مرور الأعوام ما زالت تلك الوحشة تغمره.

وجد بروفيسور إسماعيل في انتظاره بمكتبه بهيئة بسيطة.

بروفيسور إسماعيل الذي لا يحب أن يضيع وقته أبداً دخل في الموضوع مباشرة.

-في)عام 1821م (بعث محمد علي بابنه إسماعيل باشا بحملة بغزو السودان، وفي الحقيقة وقتها لم تكن هناك سودان فقد كانت مجموعة من الممالك؛ مملكة سنار، مملكة كردفان، وهكذا .بادئاً عصراً من الحكم الاستعماري يسمى بـ" التركية"، وبحكم سيطرة محمد علي باشا على السودان في تلك السنوات، فقد كان بمقدوره إصدار أوامره بفعل أي شيء يريده.

هنا قاطعه جهاد بعد أن ترك فنجان القهوة على المكتب.

-عذراً دكتور، تقصد فتحاً وليس غزواً، فلم تكن هناك بلاد لغزوها. فكما قلت هي ممالك وقبائل متنوعة الديانات، ومختلفة العادات والتقاليد وتميل للبربرية في أغلب الأوقات.

-عزيزي، دعنا لا نستعمل كلمات منمقة هو كان غزواً وليس فتحاً؟

بنبرة لا تخلو من بعض الحدية أجابه جهاد.

-هل تعلم أن أكبر تحدٍّ يواجه التاريخ كعلم هو الموضوعية وكيفية تفسير الأحداث والوقائع بشكل حيادي .أتعلم لماذا تطلق على فتح محمد علي

للسودان)غزواً(؟ لأنك تدرس هنا في أكسفورد، أحياناً تضطر الظروف المؤرخ الشرقي أن يدرس التاريخ طبقاً لرؤيا الغرب واقتناعاته فما نسميه (فتحاً) يطلق عليه الغرب (غزواً)، ولعلك تطلق أيضاً على الفتح العربـي للأندلس غزواً ..أليس كذلك دكتور؟

حافظ دكتور إسماعيل على هدوئه..

-حسنا ..بالرغم من اتهامك لي بأنني أدرس التاريخ وفقاً لميول الغرب، وهي الاتهامات نفسها التي وُجِهَت إليك من قبل المؤرخين المصريين !ولكني لن أناقشك في هذه الشكليات فهي لا ترتقي إلى مستوى أفكاري.

لم يجبه جهاد فواصل الرجل كلامه بكل هدوء..

-إنها قناعات شخصية عزيزي، وأحدّثك من منطلق أنه عندما يدخل جيش مدينة آمنة بحملة عسكرية ويحتلها، هذا في اعتقادي غزواً .وقس على ذلك جميع ما يحلو للبعض أن يطلق عليه فتوحات وحدث في مثل هذا السياق .والآن دعني أكمل حديثي فلا أملك الكثير من الوقت.

-بعد أن غزا محمد علي السودان، صارت هذه البلد بناسها وأرضها وخيرها ملكاً له .صحيح أن هذه هي نفسها سياسته في مصر، ولكنه هناك كان ينشئ مصر الحديثة، بينما كانت السودان بالنسبة إليه المتجر الكبير الذي يزود به مطبخه ليصنع منه أشهى الأكلات.

بعد معركته مع قبيلة (الشايقية) وهزيمتهم وعد إسماعيل باشا ابن محمد على الذي كان يقود الحملة مكافأة 50قرشاً لكل من يقطع زوجاً من آذان العدو ويأتي بها إليه؛ وأدى هذا العمل الوحشي إلى كثيرٍ من التشويه للمدنيين حيث انتشروا في القرى وبدأوا بتقطيع آذان كل من وجدوه في طريقهم أرأيت أكثر من ذلك عنفاً !أما هذا العنف والقسوة من دواعي الفتوحات العظيمة أيضا !؟ بعدها توالت المعارك حتى وقعت السودان كلها تحت حكم محمد علي.

وضع عامل البوفيه فنجانين من القهوة وغادر.

-وأعتقد أنه بعد كل ذلك كان إصدار أمراً من الوالي بصيد زرافة تحت السمع والطاعة..

قام من مكتبه وجلس في المقعد المقابل له دُون أن يتوقف عن الكلام..

-والتوقعات المتباينة في أصل الزرافة هي نظرة الأجانب نفسها للسودان عبر القرون، فلم يكن السودان سوى مكان شاسع شديد الغموض . وهذه الزرافة تم صيدها من منطقة النيل الأزرق جنوب شرق سنار .ومن المؤكد أن رحلة هذه الزرافة إلى مصر حدثت مع ارتفاع منسوب النهر .ولا

بُد أن تكون نقلت على صندل، وأنزلت عند الشلالات على الحدود المصرية - السودانية .أتعلم عزيزي أن الرقيق كانوا ينقلون إلى مصر سيراً على الأقدام!؟ أرأيت هذا التمييز بالطبع هي زرافة لوالي مصر؛ فيجب أن تُنْقَل على كفوف الراحة .على أي حالٍ هذا كل ما أعرفه عن رحلة الزرافة وأتمنى أن أكون قد أفدتك.

-لقد لاحظت في أثناء بحثي أن التضارب في أصل الزرافة هو نفسه التضارب في هوية (حسن البربري) أحد حارسيها .هناك تضارب في الأقوال عنه، فمثلاً وصفه أحد المؤرخين بأنه نوبـي، بينما ذكر مؤرخ آخر أنه عربـي، وذُكر أيضاً أنه خادم زنجي وعبد لدروفيتي، هل عندك فكرة عن اصله؟

-للأسف لا .فبناء على وصف المؤرخين الغربيين للرجلين اللذين رافقا تلك الزرافة يتضح الالتباس في تصورات الأوروبيين فيما يتعلق بلون البشرة، والهوية، واللغة.

شكره جهاد ووقف يصافحه فالرجل كان ودوداً معه ويكفي أنه تقبل نقده له بصدر رحب.

-ولكن أليس من الغريب بعد كتابك الأخير (آخر أيام الباشا) وأهمية وخطورة ما ورد فيه أن تبحث عن زرافة أهداها الباشا لملك فرنسا؟

-هناك تاريخ مخبوء في دهاليز تاريخ آخر، مثل الدمية الروسية التي تخفي داخلها دمية أخرى .الزمان والمكان والتفسيرات والتأويلات جميعها بعضها فوق بعض ودورنا في المقام الأول كباحثين أن نبحث ونفتش في أروقة الزمن.

14

عندما خرج من المكتب كان الجو أشد برودة، واكتست سماء لندن بغيوم بنفسجية، أعماقه أيضاً كانت مكسوة مثلها بطبقة سميكة من الغيم.

عندما ذكر الرجل كتابه (آخر أيام الباشا) شعر بحزن عميق، فدراسته التي عمل عليها لسنوات طويلة، ما بين البحث، والقراءة، والاستقصاء، والتحري؛ كانت نتيجتها في النهاية وللأسف، العداء والهجوم واتهامه بالخداع والتزييف .لم يحاول أحد من هؤلاء أن يناقشه، أن يبرهن عكس ما كتب، أن يرد على ما توصل إليه بحجج وبراهين.

لقد أفنى عمره في البحث عن تاريخ الرجل الذي فُتِنَ به، وكلما تعمق في البحث عنه أكثر زاد افتتانه به .وكان على يقين بأن ليس هناك من أحد فهم عقليته مثله، حتى مَن عاصروه.

لذلك لم يتقبل عقله حقيقة أن يكون الباشا قد أصابه الهذيان والخرف .رغم أن جميع الوثائق الأجنبية والعربية أثبتت ذلك حتى نوبار باشا الرجل الذي كان يثق في مؤرخاته كتب) ..أعلن الأطباء أن محمد علي أُصِيبَ بخرف الشيخوخة، لقد فقد ذاكرته ولم يَعُد يتعرف إلى أحدٍ ويتلفظ في بطءٍ بكلمات غير مترابطة ..(ومع ذلك لم يصدق .لقد أصبح رمزاً بالنسبة إليه، وصعب أن نتصور أن الرموز تُصاب بالخرف.

بحث في الوثائق، فتش في الأوراق، قرأ في الكتب والأبحاث، زار جميع المكتبات ومراكز التوثيق في العالم التي فيها وثائق ومعلومات عن تاريخه، وتوصل إلى عدد من المعلومات كانت قليلة جدًّا، ولا يستطيع أن يتخذ بها حكم مطلق بأن محمد علي قد خضع لمؤامرة أفقدته عقله؛ ولكنه أخذ بها وظلّ يبحث ويفتش ليثبتها.

أخذه الوقت وهو يتريض باحثاً في تلابيب أفكاره .هبط الليل مبكراً كما في هذه الأيام من هذا الشهر وهذا أفضل بالنسبة إليه لأنه يمحو رتابة وكآبة الصباحات المضبّبة.

جلس على مقعد خشبـي في ساحة عامة يراقب المارة، وشعور قاتل بالوحدة يلازمه في هذا التوقيت من العام .لطالما كان موسم الأعياد هو موسم الحزن بالنسبة إليه ولم يختلف الأمر في مصر عن هنا.

نظر إلى البنايات من حوله وشعر بالحزن أنه لا يعرف أحداً في هذه الشقق الهادئة المضيئة ربما كان آنذاك دق بابهم وتناول عشاءه برفقة أشخاص يبعثون على الدفء والطمأنينة.

أخرج من حقيبته مفكرته الخاصة وبدأ في كتابة النقاط المهمة التي أخبره بها دكتور إسماعيل .برقت في رأسه فكرة خاطفة وهي كتابة رحلة)الزرافة الدبلوماسية (منذ صيدها من إفريقيا إلى غاية نفوقها في فرنسا .مِن عاداته تسجيل تلك الأحداث المخفية في طيات

التاريخ التي يمر عليها المؤرخون مرور الكرام، بالرغم أنها تحمل معها رؤيا وأفكاراً وإشكاليات مغايرة وغير تقليدية.

هو في حاجة لفعل ذلك الآن ليبزغ اسمه مجدداً .ولكن المعلومات التي توصل إليها قليلة .بالكاد يستطيع أن يطرحها في مقالة .ويعلم تماماً أن الجميع ينتظرون كتابه الجديد بعدما أثاره عمله الأخير من جدل لا حصر له .قرر البحث عن حارس الزرافة المدعو حسن البربري .عن أصله وفصله، هناك شعور يمسه بأن وراءه شيئاً ما؟

تذكر الكلمات التي نصحه بها في بداية حياته العملية أستاذه في التاريخ إبراهيم عبد التواب الذي يكِن له كل الاحترام)إن كنت تنوي البحث فعليك أن تعمل في أرض الواقع، وليس بين دهاليز معتمة والجلوس لساعات طويلة في الأرشيف، وتصفح أوراق قديمة والاكتفاء بتخيل الأحداث؛ كل ذلك لن يكون كافياً لفهم ما جرى .(لم تغادر هذه النصيحة ذاكرته، وحمّسته ليذهب إلى شركة الطيران على الفور ويحجز تذكرة إلى باريس مستغلاً بذلك عطلته بمناسبة أعياد الكريسماس وآخر العام.

15

الإسكندرية - خريف 1825

في الحظيرة الواسعة بمزرعة مسيو دروفيتي وُضِعَت الزرافة والبقرتان رفقة عطير.

عندما شاهدها حسن وقع حبها في قلبه، كانت وديعة وجميلة، بعينين كبيرتين ممتلئتين بالدهشة، تظلِّلهما رموش كثيفة، شعر أن في وداعتها شيئاً من مهجة !؟ اقترب منها وربّت على رأسها فأغمضت عينيها مستأنسة به.

سأل حسن عطيراً الذي كان يقف بجوار الزرافة كحارسها الأمين:

-ما اسمها؟

-مَن؟

-هذه الزرافة.

-اسمها زرافة !لم نَعْتَدْ أن نطلق أسماء على حيوانات الغابة ولكن هناك علامات مميزة نميزهم بها.

-إذن سأسميها مهجة.

-ردد وراءه (مهجة) اسم جميل ويليق بها.

-كم عمرها؟

-عند اختفاء الشمس من السماء سيكون عمرها 71يوماً.

ضحك حسن..

-ما كل هذه الدقة؟

لقد حملتها بين يدي منذ أن كان عمرها يوماً.

-هل أنت الذي قمت بصيدها؟

-بالتأكيد لا، ولو عرفت أن هناك من سوف يأتي لقتل أمها وصيدها لكنت أنقذتها .أعيش في الغابة بين الزرافات وأعلم عنها الكثير .لذلك اختاروني لأكون حارساً ومشرفاً عليها خلال رحلة نقلها إلى مصر .
وأخبروني أني سأحصل في مقابل ذلك على جرة من الدنانير الذهبية من الباشا.

هذا الأسود ذو العيون الجريئة والقامة الفارعة والشعر بخصلاته المجعدة المتشابكة، أحبه حسن وأشفق عليه .فمن الواضح أن معاشرته للحيوانات جعلته لا يعلم النوايا الخبيثة للبشر .فأي جرة دنانير هذه التي يتحدث عنها؟

-على أي حالٍ ..يمكنك أن تشاركني غرفتي.

-لا، لن أترك الزرافة إلا بعد حصولي على جرة الدنانير الذهبية.

ابتسم من سذاجته وتساءل عن الذي حشا عقله بهذه الأفكار؟

لم يشأ أن يخرجه من أحلامه الوردية، ويخبره أنه واحد من ضمن مجموعة كبيرة من الرجال على رأسهم القنصل وراء صيد هذه الزرافة، صحيح أن الباشا دفع الكثير مقابل الحصول عليها ولكن بعد أن يحصل القنصل على نصيب الأسد، ثم يوزع بقية المال، فلن يبقى له إلا الفتات هذا إذا تبقى له شيء.

16

عندما لمحها قادمة، كان يريد أن يركض إليها ويحتضنها، نعم، كان بإمكانه فعل ذلك ولن يشك فيه أحد .ولكن كيف سيكون رد فعلها؟ يعلم أنها تبادله مشاعره ولكنها خجولة لا تفصح عن شيء .وما حاجته في أن تفصح !؟ عيناها نابتا عن لسانها وأخبرتاه عن كل شيء.

اقترب منها وساعدها في إشعال القنديل ثم همس في أذنها :غداً في الزمان والمكان نفسه.

لم تجبه اكتفت بهز رأسها .لم يتذكر أنه سمع صوتها وهي متخفية.

عندما شاهدها للمرة الأولى، بقوامها النحيف الممشوق، اندهش .فقد اعتاد على رؤية المشعلجي سمين الوزن، الذي يقف على الدرج وكرشه يتأرجح أمامه.

اقترب وسأله عن عم مصطفى، هل أصابه مكروه؟ هزت رأسها بما يفيد النفي.

ثم سأله :وأنت ما اسمك؟

-عزيز.

حاولت أن تنطقها بصوت خشن، فخرج صوت غريب وهي تتصنع بأنها مشغولة بإضاءة القنديل ولم تلتفت إليه.

أثار سلوكها الغريب شكوكه، وتكون لديه انطباع، بأنه شاب قليل الكلام لا يحب الحديث وهذا يخالف سلوك طائفة المشعلجية، الذين يحبون الثرثرة، مثلهم مثل السقاة والحلاقين .بإمكانهم في أقل من عشر دقائق أن يسردوا لك أخبار الحي كله؛ من ذهب ومن جاء، ومن تزوج ومن أنجب، من سرق ومن سُجِن .وعزا ذلك إلى أنه جديد في المهنة، لم يتعلم أهم فنونها على الإطلاق.

وفي أحد الأيام لحظة مرورها من البوابة، انزلقت إحدى قدميها ووقعت من فوق الدرج .وقعت عمامتها وانسكب شعرها أسود غزيراً كشلال، تسمر في ذهول وفوجئ بمظهرها.

نسيت آلامها، كل همها كان أن تلملم شعرها وتخفيه تحت العمامة.

سألها في دهشة:

-لماذا؟

نظرت إليه دون أن تنطق وكان في عينيها الكثير من الألم، والكثير من الخوف

ومن الخجل.

ومن الأجدر أن يسأل نفسه (لماذا) وقع حبها في قلبه في هذه اللحظة بالذات؟

17

في الصباح الباكر خرج القنصل، بصحبة الزرافة وحسن وعطير للذهاب إلى قصر الباشا الذي جاء في زيارة خاطفة للإسكندرية وذلك ليعرض عليه الزرافة، حتى يعلم أنه حريص على تنفيذ أوامره .فقد تم صيد الزرافة بأسرع وقت وهدية ملك فرنسا أصبحت جاهزة.

انطلقت بالقنصل عربته الخاصة التي يرفرف علم فرنسا على أحد جانبيها .ويجرها جوادان أسودان وأمامه ثلاثة رجال يسبقونه ليفسحوا له الطريق، ويتبعه حسن وعطير ومعهما الزرافة في عربة أخرى.

تقطع العربة بهم الطريق مسرعة وعطير ينظر حوله مندهشاً.

-ما أجمل هذه المدينة !وما أغرب هؤلاء الناس مختلفي الوجوه والملامح واللسان؟

-نعم إنها الإسكندرية، قِبلة الأجانب يأتون إليها من كل حدبٍ وصوبٍ، منِ إيطاليا، واليونان، وفرنسا، ويمكنك أن تجد الشامي والمغربي، والتركي والرومي أيضاً، إنها ميناء تجاري واسع وكبير.

أشار عطير إلى نفسه وضرب صدره بقبضة يده.

-والإفريقي أيضاً.

كان منظره وهو يقولها بحماسٍ ورمحه يبرق إلى جانبه، كمَن يؤدي عرضاً مسرحياً .فكتم حسن ضحكته.

فتح الحراس بوابة القصر للقنصل، وكادوا أن يغلقوها أمام العربة الأخرى لولا حسن الذي أخبرهم أنهم برفقته.

عَبَرت بهما العربة ممراً طويلاً مُبلطاً بالبازلت، وعلى جانبيه كانت أشجار السنط والأكاسيا والسرو والليمون متراصة في مشهد بديع وتبعث بروائح خلابة .انبهرا حسن وعطير عندما لاح القصر بناء مهيباً من فوق ربوة عالية.

وفي قاعة الاستقبال بين نافذتين تسمحان برؤية البحر، كان محمد علي يجلس ممسكاً غليوناً مزيناً بالألماس .ورأسه مغطى بطربوش عثماني، تلف جسده عباءة مزخرفة يشدها من الخصر حزام معدني.

كان برفقته كلونيل (سليمان باشا الفرنساوي) الذي تربطه به علاقة وطيدة .منحه الباشا الثقة الكاملة في كل ما يخص الأمور العسكرية، مما يؤهله لأن يكون الرجل الرئيسي

في تكوين وإنشاء جيش وطني قوي.

لم تكن ثقة الباشا في الكولونيل من فراغ فقد كان في جيش نابليون وحقق معه أمجاداً كبيرة، ثم غادر فرنسا وجاء إلى القاهرة للقاء محمد علي باشا وعرض خدماته عليه، يومها أخبره محمد علي بثقة (انجح وأياً يكن طموحك فكرمي سيكون أبعد من ذلك)، وقد نجح الرجل ومنحه الباشا كل ما يتمناه.

حمل على كاهله مسألة الجيش، التي كانت تؤرقه منذ أن اعتلى عرش مصر . فبجانب أنه كان يملك أحلاماً وآمالاً عريضة، بفتوحات وانتصارات، كان على يقين أن مؤامرات داخلية وخارجية تتربّص به للتخلص منه، لذلك كان لا بُد من تكوين جيش في أسرع وقت.

انحنى القنصل أمام الباشا الذي أذن له بالجلوس ثم صافح الكولونيل..

-مرحباً بالرجل ذي الأفكار المبتكرة ..هاتِ ما عندك؟

-كل شيء تم كما أمرت سموك وهدية الملك جاهزة وهي معي الآن في حال أردت رؤيتها.

كان سليمان باشا يستمع باهتمامٍ، فلم يكن يعلم بأمر الهدية، واستغرب فلم يكن من عادة الباشا أن يخفي عليه أمراً .فماذا لو كان الأمر بالغ الأهمية هكذا، إنها هدية ستُمنَح إلى ملك فرنسا.

أمر الباشا حارسه بأن يجيئه بالزرافة.

وخلال دقائق قليلة، كان حسن يقف أمامه بزيه العسكري الذي ظل محتفظاً به واعتاد أن يرتديه في الخروج للمناسبات المهمة .أما هيئة عطير فكانت غريبة حقًّا؛ يرتدي سروالاً واسعاً، وصدرية مصنوعة من جلد حمار مخطط، وحذاء من جلد الأيل ..ويعلق رمحاً إلى جانبه في حين تسكن الزرافة في وداعة بين ذراعيه.

ركعا أمام الباشا وقبَّلا طرف عباءته، وأخذا في ذلك الكثير من الوقت حتى أن حسن وهو مطأطأ الرأس شغل نفسه في تأمل الحيوانات المغزولة على السجاد، بينما تغلغل الدخان المتصاعد من المبخرة الموضوعة جوار أريكة الباشا في ثيابهم وأجسادهم.

ابتسم الباشا لهيئتهما الغريبة والمبهجة في الوقت نفسه.

اطمأن دروفيتي عندما وجد سيماء البهجة على ملامح الباشا .وأخذ الزرافة من عطير وتقدم إليه، فتأملها ثم هز رأسه بالرضا..

-عفارم .ومتى سوف يتم نقلها؟

-لقد أمرت رئيس الورش البحرية، ورئيس النجارين، بصناعة سفينة بمواصفات معينة حتى تصل هذه الجميلة في أمان إلى فرنسا .وسيتم

ذلك خلال أسابيعٍ قليلة.

-أسابيع !بالإضافة إلى الوقت الذي سوف تقطعه الرحلة، بذلك ستكون المدة طويلة، حاول أن تصل الهدية في وقت أقل من ذلك.

-يمكن لسموك أن تصدر أمراً للعمال بالانتهاء من صناعة السفينة في أقرب وقت، فهذا يتوقف عليهم.

-سأفعل .وعلى هذين الرجلين أن يصلا إلى فرنسا بهذه الهيئة .أعلم أن الفرنسيين يعشقون كل ما هو مثير .فالمماليك الذين اصطحبهم معه نابليون لفرنسا بعد حملته على مصر، كانوا يتقدمون موكبه بملابسهم وهيئتهم الغريبة. وكانوا محط إعجاب ودهشة الشعب الفرنسي كله.

تقدم باغوص باشا من محمد علي وهمس في أذنه بشيء ما جعله يترك القاعة ويخرج.

امر القنصل حسن وعطير أن يذهبا.

اقترب سليمان باشا الذي كان يرتدي زيه العسكري كاملاً وبخطوة حازمة ولهجة حادة.

-ما هذا الذي تفعله أجننت؟ هل تهزأ بالباشا؟

-ما الذي تقصده!؟ ثم كيف تسمح لنفسك أن تحدثني هكذا؟

-كيف تشير على الباشا، أن يرسل زرافة، لجلالة الملك شارل العاشر، ملك فرنسا العظيم!

-هذا أمر لا دخل لك فيه .أنا القنصل الفرنسي، الذي أُمثِّل بلادي هنا، أما أنت فشخص يمكنه أن يتخلى عن أي شيء للوصول إلى طموحه، ألم تكفِك رتبة البكوية والمناصب التي حصلت عليها، لقد طمعت في الحصول على القيادة ونيشان الباشوية اللتين لم تُمْنحَا لك وأنت قبطي، ومن أجلهما تخليت عن دينك، مثلما تخليت عن ضميرك .أما أنك لا تدري أني أعرف حقيقتك!؟ وأدري أنك عميل مزدوج تضع أخبار الباشا وجيشه وخططه في جعبة فرنسا.

-كيف تجرؤ على الحديث معي بهذا الشكل !أيها اللص المريض ألا تعلم أنك عارٌ على فرنسا.

بدأت أصواتهما تعلو بعد أن فقدا أعصابهما .ولو لم يدخل الباشا القاعة في هذا الوقت لكانا تشابكا بالأيدي.

لم يحاول محمد علي أن يسألهما ماذا حدث؟ ولماذا يتشاجران؟

سليمان باشا الفرنساوي كان قد سقط من نظره، عندما خرج من دينه من أجل غرض ينتفع به، ودروفيتي هو مجرد شخص وصولي .ولكن طالما الأمور في النهاية، تصب في مصلحة بلده، فلا يعينه شيئاً آخر.

كان يعلم تماماً أن ما يمر به مجرد وقت، ثم بعدها سيتحقق ما تمناه كثيراً، وصرح به لأصدقائه ورجاله المخلصين (إنها مجرد مرحلة وعاجلاً أو آجلا، ستكفي مصر نفسها، بنفسها)

أنهى محمد علي جدالهما بقدومه.

-هيا فالمأدبة جاهزة.

مأدبة الغذاء، أعدَّها طهاة فرنسيون .رُصِيَت الأطباق من بورسيلين السيفر، وأكواب الكريستال البوهيمي .اعتاد الباشا أن يتناول الطعام الإفرنجي مع المبعوثين الأجانب والقناصل، وكان يأكل مثل أي جنتلمان بالشوكة والسكين في مأدبات الغذاء التي تكون عادة في الثانية عشرة ظهراً، آخذاً بنصيحة طبيبه كلوت بك بأن يبكر من موعد غذائه، وفي تمام السادسة مساءً اعتاد أن يتناول عشاءه، وسط حريمه ولا يُقدَم له حينئذ سوى الأطباق العثمانية.

بعد أن تناولوا الأطباق الشهية .مدت صينية عليها شتى أنواع الحلويات وأخرى بها صنوف من الفواكه.

اكتفى الباشا بتناول القهوة وسأل القنصل وهو ينفث من أرجيلته:

-هل هناك عواقب أخرى بإمكانها أن تعرقل وصول الزرافة بأقصى سرعة لفرنسا؟

-ليس هناك أسباب أدمية فكل شيء منظم .أما الأسباب القدرية فليس لنا دخل فيها، كغرق السفينة، ومرض الزرافة أو موتها.

زمجر الباشا..

-كُف عن التفوه بهذه الكلمات .انطق بالخير ليتحقّق يا رجل .من الآن سيشارك عمال مالطا وليفورنو الأكفاء في صناعة السفينة، وسيواصلون العمل ليل ..نهار .وقبل سفرها أَرسِل حارسها إلي ضريح السيدة زينب، ليطلب من القائم عليه، حجاب حفظ للزرافة وتأكد أن يُعلَّق هذا الحجاب في عنقها ولا يُخلَع بتاتاً.

هز القنصل رأسه بالموافقة .ولم يندهش، فهو يعلم تماماً افتتان الباشا بمثل هذه الأمور، واعتقاده الراسخ بالأولياء الصالحين.

18

في طريق عودتهم كانت الدهشة تملأ أسارير عطير وكان يلهث ونبضه يعلو وهو يقول:

-لا أصدق أنني كنت أقف بين يدي محمد علي باشا .الذي لمجرد ذكر اسمه ترتعد فرائص الرجال .والأعجب من ذلك أنه رجل طيب وكريم وليس كما يصورونه لنا بأنه قاتل وقاسٍ وما إلى ذلك من صفات!

ابتسم حسن دُون أن ينطق :ربما هو كذلك حقًّا !من يعرف ما الذي يخبئه كل شخص بداخله.

-وما هذه الفخامة والثراء؟ لا أصدق أن هناك أحداً يعيش في مثل هذا الترف والبذخ..

تبدلت نبرة صوته المفعمة بالفرح والحماس بأخرى يملؤها اليأس..

-ولكن لماذا لم يمنحني جرة الدنانير الذهبية؟

لم يتمالك حسن نفسه من الضحك.

-هل هناك ما يدعو للضحك أم أنك تسخر مني؟

-لأنك تسأل عن دنانير ذهبية وفي الواقع لا أعرف من الذي أوحى لك بأمر هذه الدنانير، كما أن العملة هنا ليست دنانير.

-وهل أخطأت خطأً فاحشاً .أليست كلها أموال !ولم أحصل على شيء.

-انسَ أمر هذه الجرة .لقد ادخر لك القدر صنيعاً أجمل من ذلك بكثير، سوف تصطحب الزرافة في رحلتها إلى فرنسا.

-ومَن أخبرك أن ذلك أفضل بالنسبة إليّ؟ لا أريد الذهاب إلى هناك.

-على أي حال يمكنك أن ترجع أدراجك وتبلغ الباشا أنك لا تريد السفر.

اقتراح حسن أخرس عطير الذي صمت تماماً ثم فجأة تحدَّث بغضب:

-أريد المال لأساعد أهلي فأنت لا تتخيل مدى الفقر والجوع الذي نعيش فيهما هناك . لقد بدأ الأهالي في قريتنا عقد اتفاقيات مع تجار العبيد لشراء أطفالهم بدلاً من سرقتهم وصيدهم بالشباك كالحيوانات، وفي الحالتين

هم سوف يُساقون كالنعاج لبيعهم في سوق النخاسة.

شعر حسن بمعاناته فحاول أن يصبره قائلاً:

-اصبر وربما بعد انتهاء رحلتك ستحصل على الكثير من الأموال.

-أنا لا أعرف حتى كيف أنطق اسم هذه البلد؟ ثم أين تقع؟ ومَن أهلها؟ وأي ديانة يعتنقون وبأي لسان يتحدثون؟

-يمكنك أن تنتظر الذهاب إلى هناك ووقتها ستجد إجابات لكل أسئلتك.

عطير كان يملك أسئلة بعلامات استفهام كبيرة، لذلك لم يتوقف عن طرحها .وفي الوقت نفسه أثارت هذه الأسئلة حزن حسن، فهو أيضاً لا يعرف أين تقع هذه البلاد؟ ولكن المؤكد أنها بعيدة ..بعيدة جدًّا.

هو ليس حزيناً لسفره إلى هناك فكل البلاد عنده سيان .هو حزين لفراقها لأنها الخيط الوحيد الذي يربطه بهذه الأرض .نعم بإمكان العشق أن يربطنا بأرض وإن لم يكن لنا جذور بها.

فجأة شعر حسن بازدراء تجاه كل ما يحدث .تجاه استبداد الباشا وتجاه انتهازية القنصل وأيضا تجاه نفسه .إلى متى سوف يظل مقيداً بالسلاسل والجنازير؟ متى بإمكانه أن يتحرر وأن يصبح مِلكَ نفسه وعبدَ آماله وأحلامه هو وحده؟ لماذا جعله قدره دائماً في خدمة الغير وتحت رحمتهم؟

منذ أن انضم إلى قوات الإنكشارية وهو يعيش تحت قيد تعليمات وأوامر صارمة . شارك بناء عليها في معارك قاسية .ذهب للقتال في أراضٍ بعيدة، لم يسمع عنها.

كان دائماً قاب قوسين أو أدنى من الموت، جثث زملائه كانت تفترش الأرض من حوله، دُون أن تستوقف أحداً .ويعلم تماماً أنه مثلهم في أي وقت بإمكان ضربة سيف أو رصاصة طائشة أن ترديه قتيلاً ووقتها لن يتذكره أحد.

في المعسكر يخبرونهم أن التاريخ سيتذكرهم دائماً .إنها الكذبة الكبرى والخديعة الآثمة، التاريخ لا يتذكر هؤلاء النكرات الذين تصبح أجسادهم وجبة شهية مستقرة في أجواف الطيور الكاسرة.

19

باريس - شتاء 2015

وضع ثلاث بذلات وبيجامتين في حقيبته الجرارة الصغيرة وحمل معطفه فوق يده . فهذا كل ما سيحتاجه خلال أيامه القليلة هناك.

وصل قبل منتصف الليل بقليل .كانت باريس تحتفل بقرب أعياد الكريسماس على طريقتها الخاصة .فالشوارع كلها مزينة ومضاءة .بعث فيه ذلك شعور ببهجة بددت بعض الوحشة التي ألمت به في الأسابيع الماضية.

حصل على قسط وافر من النوم وخرج في الصباح الباكر، للذهاب إلى الأرشيف الدبلوماسي الفرنسي في ضاحية (لاكورنوف) .بُني المقر على مساحة 28 ألف متر مربع . وبكل تأكيد كانت تقبع ذاكرة العالم في هذا المكان الذي يضم نحو 25ألف معاهدة تاريخية ثنائية وجماعية .و 430ألف مخطوطة ووثيقة ومجموعات من تاريخ فرنسا وأوروبا والعالم منذ القرن السادس عشر.

لم يُسمَح بالدخول إلا لحاملي بطاقات تفيد أن لهم علاقة بالتاريخ .أساتذة، مؤرخون، باحثون.

لم يلاقِ أي مشكلة في هذا .تعرض للتفتيش بدقة مفرطة؛ طلب منه ضابط الأمن أن يخلع حزامه وساعته وحذائه وأي شيء فيه معدن، ثم طلب منه المرور عبر البوابة الإلكترونية.

نبهه موظف الأمن أن التصوير بكل أشكاله ممنوع وفي حالة انتهك ذلك سيتعرض للحبس .وبنبرة أقرب للتهديد منها للتحذير.

-عليك بغلق هاتفك المحمول، وعدم فتحه إلا بعد الخروج من المبنى بنصف ساعة على الأقل.

كان يريد أن يسأله :ولماذا تحديداً نصف الساعة؟

ولكنه لم يفعل فسحنة الرجل لم تفتح الشهية لأي حديث.

توجه للكونتر، أدخل بيناته وحصل على كارت ممغنط، يمنحه الدخول إلى قسم العلاقات الدبلوماسية المصرية الفرنسية.

سار لأكثر من نصف ساعة، بين ممرات وأروقة وصالات فسيحة وأخيراً كان في القسم المنشود، وضع الكارت على الجهاز فَفُتِح باب معدني.

كانت القاعة فسيحة ممتلئة بالضلف والخزائن والأدراج، التي تضم الوثائق

الدبلوماسية بين البلدين .مما يدل على ارتباط التاريخ المصري بالفرنسي ارتباطاً قوياً.

أدخل مفردات البحث على الجهاز ولمدة ساعتين أخذ يصول ويجول بين طرقات الماضي.

أسماء ..صور ..أحداث ..فرمانات ووثائق .كل ذلك جعله يتساءل عن عدد الوجوه النائمة في دهاليز الزمن.

توصل لمعلومات مدهشة عن رحلة الزرافة .منذ أن كانت مجرد اقتراح من قنصل فرنسا لوالي مصر محمد علي باشا، حتى قضت نحبها.

وبالإضافة للوثائق الدبلوماسية التي عثر عليها كانت هناك أبحاث تناولتها وعناوين كُتُب جاءت على ذكرها، مجموعة من الصور واللوحات الفنية مسجلة في التاريخ المرئي . كان كل شيء مسجل ومحفوظ وكأن الزمن لم يمر.

المعلومات التي عثر عليها بخصوص حارسها (حسن البربري)، تؤكد إنه كان يعمل عند قنصل فرنسا في مصر واصطحب الزرافة في رحلتها مع عبد إفريقي اسمه (عطير).

أما الوثائق المرئية فكانت أكثر إفادةً له، فقد وجد صوراً بالطباعة الحجرية وعدداً من اللوحات التشكيلية .كانت إحدى هذه اللوحات تصور موكب الزرافة وهو في طريقه إلى باريس عبر المروج الخضراء ولكن الأهم من ذلك كان بورتريه لحسن، أشارت المعلومات إلى أنه معروض بمتحف اللوفر.

20

الصباح الباريسي مجدداً .طلب قهوة وكرواسون، والناس من حوله يتحركون في كل الاتجاهات .لم يكن على عجل، وكان عليه أن يعيش الحياة بعكس مجرى الزمن، إلى الوراء ...دائماً إلى الوراء.

بعد أن أنهى إفطاره وتصفح بريده الإلكتروني .ذهب إلى متحف اللوفر حيث وجد نفسه وجهاً لوجه مع حسن البربري.

اللوحة معروضة ضمن فنون القرن التاسع عشر في قاعة الاستشراق .ولِمَ لا يكون هناك؟ فكل ما في هذا الرجل يكاد ينطق بشرقيته .وخاصة تلك العمامة فوق رأسه .كانت اللوحة موقعة باسم الفنان (كلود ماري بول دووبوف) ومؤرخة (عام 1827)، إنه العام الذي وصل حسن فيه إلى باريس بصحبة الزرافة .توقف طويلاً أمام صورته؛ رجل وسيم الطلة عينان تشعان بالذكاء، وشارب معقوف وحاجبان كثان، لف الرجل العمامة فوق رأسه خمس لفات متتالية بشكلٍ منسقٍ، ليس هناك عقدة أكبر حجماً من الأخرى .ويظهر من تحت عمامته البيضاء طرف من طاقيته الحمراء، بينما هناك بعض خصلات هاربة توكد أن شعره بلون الليل.

يضم شفتيه وينظر إلى الناحية الأخرى باتجاه شيء ما، وكأن هناك ما يثير اهتمامه في الاتجاه الآخر من الحياة .يرتدي صدريةً حمراء مرصعة بأزرارٍ ذهبية، وبنطاله أبيض واسعاً، كانت الملابس عسكرية ولم يستطع أن يبرهن إن كانت الملابس تخص جنود الإنكشارية أم قوات الباشي بازوق، فقط كانت الملابس خليطاً منهما.

لدقائق لم يستطع أن يحول نظره عنه، كان فيه شيء ما لم يفهمه، وكأن روحه ما زالت تسكن في اللوحة، هو الذي توارى طيفه منذ زمن بعيد.

سأله بصوت خفيض:

-أي حياة تلك التي عشتها يا رجل!؟ حتى تُعلَق صورتك في متحف اللوفر ويشاهدها ملايين الناس من أنحاء العالم المختلفة عبر جميع الأزمنة؟

فضوله تجاهه كاد يقتله !مَن هو؟ ما أصله؟ وكم عمره؟ وهل بقى في فرنسا أم عاد إلى مصر؟

ظلّ مرابطاً أمام اللوحة لفترة أطول من المعتاد، أثارت شك رجل الأمن الذي وقف يراقبه من بعيد، قرر أن يأخذ جولة سريعة في المعرض بعد أن طبعت اللوحة في عقله.

كانت خبرته بالفن التشكيلي تكاد تكون منعدمة، هو لا يعرف من بين آلاف اللوحات المعروضة هنا سوى لوحة الموناليزا، ويجهل حتى اسم صاحبها.

يتذكر أنه في إحدى الليالي كان مصاباً بالأرق ولا يستطيع النوم، فأخذ يدير قنوات التليفزيون لعله يعثر على شيء يبدد سأمه .وجد برنامجاً يعرض لوحة فنية لفتاة غاية في الجمال، وكان هناك أستاذ في تاريخ الفن يقوم بشرح تفاصيل اللوحة بدقة متناهية أدهشته؛ النافذة المفتوحة وراء الفتاة هي أمنيتها للهرب، عقد اليدين تعبير عن مشكلة تواجهها، نظرتها المواربة سر لا تريد الكشف عنه .لم يدع الرجل شيئاً في اللوحة إلا وقد فسره بشكل غريب ومخالف لكل انطباعاته عن اللوحة، كان الأمر أشبه بعراف يقرأ لك قدرك من خلال خطوط يدك.

وهو يهم بالخروج من المعرض وقع نظره على إعلان عن محاضرة بعنوان (المرأة ما بين الحقيقة والخداع في الأعمال الفنية والوثائق التاريخية)، يقدمها بروفيسور "أنطوان جوزيف "أستاذ تاريخ الفن بأكاديمية الفنون ودكتور "زينة نعمان "أستاذة تاريخ الاستشراق بجامعة السوربون.

كان موعد الندوة في السابعة مساء في إحدى قاعات مركز تاريخ الفن الحديث، قرر أن يحضرها وكان يملك الوقت، بالإضافة إلى أنه يفضل هذا النوع من المحاضرات.

21

عثر بصعوبة على مقعد في نهاية القاعة التي كانت تضج بالجمهور، لاحظ أن البروفيسور أكثر فصاحة من زينة التي كانت تتحدث بصوت خفيض ومتردد.

كان من الواضح أن الرجل يحمل عدائية للشرق وعاداته، فقد كان يدافع عن أعمال المستشرقين التي حاولوا فيها أن يمثلوا الشرق في أبشع صوره، ويقول إن ما جاء فيها هو الحقيقة وربما كانت الحقيقة أشد قسوة.

بعد أن فتح الباب للمداخلات .طلب الدكتور جهاد المناقشة، فأذنت له مديرة الندوة.

-لا نستطيع أن ننكر أن المرأة الشرقية احتلت حيزاً كبيراً من اهتمام المستشرقين، وقد وجدنا أن شغف الغربيين كان في موضوعين مترابطين هما :الحجاب والحريم، وكتبت "جودي مابرو "في كتابها (تصورات الرحالة الغربيين عن النساء في الشرق الأوسط)، إن أوروبا قد سُحِرَت بالحجاب والحريم ونفرت منهما في آن .فقد عمل هذان الرمزان من جهة أولى، على الحيلولة بين المراقب الأوروبي ورؤية النساء أو الاتصال بهن، مما أيقظ لديه مشاعر الإحباط والسلوك العدواني، ومن جهة ثانية فقد وفر فرصة الجموح بالخيال والتلويح بتجارب غريبة وشهوانية، ولذلك طالما وجدنا في لوحاتهم المنظر المعتاد الذي رسموه للنساء وهن في مخادعهن، أو وهن مستلقيات بدلال على الأرائك العثمانية، يحيط بهن الجواري والأغوات، وهذا المشهد الذي أراد المستشرقون إيهامنا به، صعب من فرط تكراره تصور أن هؤلاء الحريم كان بإمكانهن صناعة شيء آخر غير الاستلقاء بدلال داخل جدران الحرملك .وهذا يعطي انطباعاً راسخاً بأن المرأة الشرقية كسولة ولعوبة، لقد ألغى معظم الفنانين الاستشراقيين الشرائح المجتمعية المتعددة في البلاد الشرقية وركزوا فقط على شريحة معينة من النساء .وهذا عكس الحقيقة التي صورها عدد قليل من لوحات الاستشراقيين .فمثلاً لوحة)فلاحة مصرية(تجسدت فيها المرأة العاملة المصرية التي تعمل بكد وتعب .وهناك لوحات لشرقيات وهن يمارسن الزراعة وينقلن الماء ويغسلن الملابس، أو وهن يمارسن مهنة البيع، وغير ذلك من المشاهد التي تقدم المرأة الشرقية، بصورة موضوعيّة.

استرسل في الحديث وجذب انتباه الحضور، وكانت وثائقه شاسعة، وحججه دامغة، وأمثلته قوية، مما جعل البروفيسور يترنح من فوق منصته.

وفي نهاية الندوة صفق الحضور والتفتوا للخلف لتحية الدكتور جهاد الذي بادلهم التحية بإشارة من يده.

وهو في طريقه للخروج سمع صوتاً خفيضاً من ورائه فالتفت..

-عفواً، أنا زينة نعمان، أردت أن أشكرك .في الواقع كانت مناقشتك عظيمة.

كانت ترتدي فستاناً بلون الجمل من صوف الجيرسيه، وتضع معطفاً فوق يديها . يبدو وجهها شاحباً ولم يفلح ماكياجها الذي وضعته على عجل لإخفاء ذلك.

-عفواً.

-هل تسمح لي بدعوتك على فنجان قهوة؟

-بكل سرور.

جلسا في المقهى الملحق بالمركز وكانت الطاولات شبه خالية والإضاءة باهتة.

-أنت هنا للعمل أم لقضاء عطلة؟

-أستطيع أن أقول الاثنين .وأنتِ، هل تعيشين هنا منذ فترة؟

أجابت بصوت خفيض بالكاد أن يكون مسموعاً.

-نعم منذ فترة، لقد درست التاريخ في السوربون..

واصلت دُون توقف وكأنها تقدم له بطاقتها كاملة..

-مصرية من ناحية الأم وتركية من ناحية الأب.

كان خاتم زواجها الذهبـي يطوق إصبعها فسألها:

-وزوجك؟

-زوجي فرنسي، يعمل طبيب عيون.

لم يكن فضولياً، ومن النادر أن يبادر أحد بالأسئلة ولكن معها كان الأمر مختلفاً ولم يكن يعلم السبب!

بعد أن رشفت من فنجان اللاتيه عدة رشفات متتالية..

-يلح القدر بمصادفة الشخص ذاته مرتين أو ثلاث، وإن لم تحدثه فأنت الخاسر، لذلك قررت أن أنتهز هذه الفرصة لأحدثك.

-عفواً، ولكن هل التقينا مسبقاً!؟

-نعم، عدة مرات كانت أولاها في سينمار بجامعة القاهرة منذ عدة سنوات، وفي إسطنبول بجامعة المعمار سنان في مؤتمر بمناسبة إحياء ذكرى السلطان محمد الفاتح، ومنذ عامين في مؤتمر بجامعة بكين عن العلاقات

التاريخية الأفروآسيوية، واليوم ها نحن مجدداً.

-عفواً، فأنا...

قاطعته..

-لا داعي للاعتذار، جميع هذه الندوات كنت أنتَ عضواً متحدثاً فيها وأنا كنتُ مجردَ ضيفٍ.

ومن بين الكثير من الضيوف لم تكن لتلاحظ وجودي .اليوم حدث العكس وكنت أنا المتحدثة..

ابتسم وهو يقول:

-ولذلك لاحظت وجودك.

-أعتقد أنك تبدو سهل المراس عن ذي قبل، ولا أعرف ما إذا كنت فقدت لغزك؟ أو بالأحرى اللغز الذي نسجته حولك.

-لا أتذكر أنني كنت أملك لغزاً لأفقده.

كان وميض خفي ينبعث منها.

-وهل أنتِ سعيدة بالعيش هنا؟

-الأمر ليس أكثر من أن نكون مطمئنين في مدينة غريبة، حيث لا أحد يعرفنا.

ظهرت على محياه علامات القلق.

-هل هناك من يضمر لك شرًّا؟

-قضيت فترة من عمري بين بلد أمي وبلد أبـي، وهناك لا يجيدون سوى طرح الكثير من الأسئلة ويتملكهم الفضول تجاه كل ما تفعله، كنت أشعر أني مراقبة، لذلك أرى أن الحياة في بلد أوروبـي بعيد عن كل ما يَمُتّ لك بصلة ملائمة لشخصيتي.

مرت برهة من الصمت كسرتها قائلة:

-وهل أنت متزوج؟

-كنت ..هجرتني بعد سبع سنوات من زواج سعيد، يمكنك أن تقولي إنها إحدى تلك الزيجات التي تنتهي بلا سبب حقيقي.

هز رأسه..

-ولكنها انتهت.

حكى لها عن نفسه، عن ماضيه وعن ذكريات كان يجد أنها عديمة القيمة، ولكنها مع الوقت اكتسبت قيمتها كالخمور المعتقة.

-عابرات قطعن وحدتي، نساء مستعجلات بين موعدين، بين رجلين، كنت مساحة للراحة بالنسبة إليهن .دائماً أنا في حياة المرأة أبدو كظل وهذا يناسبني.

-اعذرني فأنا لا أحب هذا النوع من العلاقات.

ابتسم وهو يخبرها:

-ولا أنا .على أي حالٍ كان هذا في زمن سابق.

صمتت ..لم تسأله والآن.

ثم فجأة، وكأنها تذكرت شيئاً ونظرت إلى ساعة يدها..

-يجب أن أذهب ..إلى اللقاء.

لم يفق من ذهوله برحيلها المفاجئ، حتى وجدها أمامه مجدداً!

-هذا رقمي، في حال إذا أردت لقائي مرة أخرى.

مدت له ورقة دَوَّنت عليها رقم هاتفها بقلم رصاص وبخطٍّ يبدو مرتبكاً.

في هذه الليلة كان من الصعب أن يتذكر ملامحها، أصبحت كطيف لم يبقَ منها شيء سوى صوتها الذي أخذ يرن في أذنه (تبدو سهل المراس عن ذي قبل، فقدت لغزك الذي نسجته حولك).

كان صوتها يعبره كما تعبر موسيقى الرياح بين الأشجار.

22

الإسكندرية - خريف 1826

وقف حسن وقتاً أطول أمام المرآة يعقد عمامته ويبرم شاربه، وبعد أن تأكد من أناقة هندامه، خرج للقائها في مكانهما المعتاد. مراكب شراعية تتمخطر بهما فوق مياه البحر، وتهدهدهما على وقع الحب، الحب.. لا أكثر.

كانت ترتدي قفطاناً مطرزاً بورد الخزامي، اقترب منها وأزاح شالها الحريري فانساب شعرها بلون الليل وبرائحة مسكه، صبغ شعاع شمس المغيب بشرتها فتلألأت.

همست في أذنه (أحبك) فكان صوتها يحمل نكهة القرفة؛ صوت له مذاق، له رائحة. اقترب منها وضمها، أخبرها أنه سوف يسافر إلى بلاد بعيدة باردة.

بنبرة أقرب للبكاء..

-متى ستعود؟

ابتلع البحر الشمس ولم يبقَ منها غير وهج طفيف، تأمله وكساه الحزن وهو يخبرها:

-لا أعلم!

طمأنته: سأنتظرك.

تسمّرا معاً. يستمعان لهذه التموجات الموسيقية التي تعبرهما، مستسلمين للجزر والمد بين روحيهما المتعبة.

وعندما حانت لحظة الوداع، ضمها إليه؛ سمعت طقطقة عظامها بين ذراعيه القويتين.

-عديني أنك ستنتظرينني..

-أعدك.

بكى، كانت بمثابة وطن له. هو الذي لم يعرف له وطناً.

كانت أرضه وهويته المشتتة، كانت انتماءه.

وكان كيانها المفقود، وآدميتها المبعثرة، وتأكيداً على أنوثتها المسلوبة.

لذلك كان على يقين من أنها ستنتظره، وكانت على يقين من أنه سيعود.

23

صقل حسن لغته في مدة قياسية، واستطاع تنمية فصاحته، باطلاعه على كُتب الأدب التي مده بها مدرس اللغة الفرنسية.

بينما لم تغادر عطير دهشته تجاه كل ما يدور حوله حتى بعد مرور الأسابيع، هو القادم من وسط الغابات .كل شيء بالنسبة إليه كان غريباً ومثيراً ومختلفاً.

قبل السفر بأيامٍ قليلة سافر حسن إلى القاهرة لزيارة ضريح السيدة زينب بناء على تعليمات الباشا.

وطلب من القائم عليه، حجاباً لحفظ الزرافة .بعد أن صنعه له الرجل مسح به السور النحاسي للضريح وعطره بالمسك ثم وضعه في كيس من القطيفة الحمراء وربطه في عنقها بحبل طويل.

استدعى القنصل الطبيب الفرنسي كلوت بك؛ للكشف على الزرافة والحارسين المرافقين لها ليتأكد من سلامة صحتهم قبل السفر، ثم قدّم له قوارير ضد نزلات البرد والحمى والإسهال والأمراض كافة التي يمكن أن يصابوا بها خلال رحلتهم البحرية.

بخبثٍ سأل دروفيتي كلوت بك:

-سمعت أنك تنوي تكوين طبيب لكل 3000نسمة، وصيدلي لكل 10000نسمة من خلال مدرسة الطب التي أنشأتها وألحقتها بمستشفى أبو زعبل.

-نعم سأفعل ذلك، وفي غضون سنوات قليلة ستنفذ تلك الخطة.

-جميل حقًّا فأنت تعمل بجد وبضمير، ولكن هل هذا نابع من داخلك أم هو تملق للباشا؟

-تملّق للباشا!؟

-لينعم عليك بلقب بك مثلاً.

-عزيزي دروفيتي، أعتقد أنك أنت آخر مَن تتحدث؛ فرائحتك القذرة فاحت حتى أزكمت الأنوف.

قالها وغادر بعد أن رماه بنظرات احتقار.

ذهب القنصل إلى الميناء ليتفقد السفينة، وعندما أعجبته شكر رئيس النجارين ورئيس صناعة السفن، فقد بُنْيَت في وقتٍ قياسي وبالمواصفات الخاصة لحماية الزرافة

وتوفير الراحة والأمان .وطمأنهما أنه سوف يخبر الباشا أن الأمور جرت على ما يرام وسيطلب منه أن يجزل لهما العطايا.

أخذت استعدادات السفر تجري على قدم وساق .في وقت مبكر من الصباح .كان أسطى بهجت الخياط الشركسي، يأخذ مقاسات حسن وعطير ليخيط لهما ملابسَ على الشاكلة الغربية ذاتها التي يرتدونها كما أمر الباشا.

طلب الأسطى بهجت من حسن أن يرفع ذراعه اليسرى، أخبره أنه لا يستطيع أن يرفعها أكثر من ذلك.

فَهَمَ الرجل السبب فقد لمح ندبة غائرة في باطن ذراعه، تشير إلى جرح قديم.

-من الواضح أنه كان جرحاً عميقاً.

-كان عميقاً ..كعمق بئر مظلمة.

استمر الرجل في أخذ قياساته، بينما كان هو في أرض المعركة يسمع حوافر الخيل وصهيلها وهي تركض وتخلف فوقه تلالاً من الغبار تنعدم معه الرؤية، يسمع صرخات قوية وآهات مكبوتة وأنّات لفظ الأنفاس الأخيرة.

كان مكوماً بين المصابين والأموات بعد تلقيه طعنة من رمح، استقرت في باطن ذراعه اليسرى وكادت أن تشطره نصفين، بقى بين الحياة والموت غائباً عن الوعي لمدة أسبوع.

درجة حرارته ما إن تستقر حتى ترتفع مجدداً، وهو بين الصحو والغياب أخبره الطبيب أن ذراعه ربما تتعرّض للبتر بنسبة كبيرة إذا تغلغلت فيها الغرغرينا، وعليه أن يعذره فليس أمامه شيء ليفعله.

غمغم حسن بما يفيد :افعل ما شئت.

عندما أفاق تحسس ذراعه وعندما وجدها تمتم بحمد الله وسجد شاكراً، لاحقاً أخبره الطبيب إن العناية الإلهية وحدها هي التي أنقذته .كانت آخر محاولة لإنقاذه وإذا لم تنجح فكان عليه بتر ذراعه، ولكن بعد أقل من 24ساعة من عملية الكي التطهيري بالسيخ المحمي التي نفذها له؛ منعت المرض أن يتفشى في أنسجة الذراع وحجّمته.

وأضاف بصوت متأثر:

-للأسف، لن تستطيع أن تستعمل ذراعك بالمقدرة نفسها مجدداً، ويؤسفني أن أخبرك أنك لن تمارس الجندية مرة أخرى لأنك معاق حرب.

ابتسم بسخرية؛ كان يريد أن يخبره أنه معاق منذ زمن، معاق روحياً وهذا أقسى أنواع الإعاقة.

24

باريس - شتاء 2015

في الصباح التالي اتصل بالرقم الذي تركته له على الورقة وهي تخبره (في حال أردت مقابلتي مرة أخرى) .نعم كان يريد ذلك بشدة.

لذلك فور أن تناول إفطاره اتصل بها واتفقا أن يلتقيا في الثانية ظهراً في أحد مقاهي شارع الشانزليزيه.

كانا يجلسان متواجهين وكان المصباح المتدلي على الطاولة يضيء وجهها.

-لقد حضرتُ لك محاضرة في جامعة بكين منذ عدة سنوات، أعتقد إنها كانت بخصوص كتابك (آخر أيام الباشا).

-حقًّا.

-يومها اندهشت؛ كانت آراءك بخصوص موت محمد علي تخالف جميع الحقائق.

-أي حقائق!

-الحقائق والشواهد عن آخر أيام الباشا.

-لو تعلمين أن آخر أيام الباشا، قضاها منعزلاً في قصر رأس التين بالإسكندرية في رعاية عدد من الخدم، وكانت هناك تعليمات مشددة بعدم الزيارة .من أين إذن جاءت تلك الشواهد والأدلة القاطعة!؟

-وفي المقابل لم يكن هناك أي دلائل حقيقية تستطيع أن تستند عليها في أن هناك مؤامرة حيكت للتخلص منه.

-الهلاوس التي أصابت الباشا كانت نتيجة عقاقير تُزَج له في الطعام والشراب.

-ولماذا لا تؤمن بأن ذلك كان نتيجة طبيعية للشيخوخة.

-هذا في حالة أن حالته تدهورت شيئاً فشيئاً، ولكن التدهور في حالته حدث فجأة وبعدها بدأ يأخذ تطورات غاية في الخطورة في وقت سريع وقياسي .لقد بحثتُ في الأمر وسألتُ عدداً من الأطباء النفسيين وكلهم أجزموا أن هذه الحالة تحتاج من عام لثلاثة لتصبح ما كانت عليه.

-ولكنك تتهم ابنه إبراهيم بتدبير مؤامرة للتخلص منه وهذا اتهام في

غاية الخطورة لأنه غير مبني على مستند وأيضاً وجهت هذه التهمة للباب العالي.

-ذكرت أن هناك أعداء كثيرين يريدون التخلص من الباشا)إنجلترا - روسيا - السلطان العثماني وإبراهيم(، وهناك شواهد كثيرة على كلٍّ منهم.

-حسناً، لو اعتبرنا أنك تملك شكوكاً لإثارة ذلك، أعتقد أنه ليس من الحق أو الإنصاف أن تشكك في نسب إبراهيم إلا إذا كنت تملك براهين قاطعة. هناك أمور لا نستطيع خوض الجدل فيها إلا إذا كنا على يقين منها!؟

-عزيزتي، أنا لم أطلق الافتراضات اعتباطياً، هناك أقاويل بأن محمد علي تزوج أمينة هانم وكانت مطلقة، وفي أخرى إنها كانت أرملة، ووثيقة (جورج بلانا) الضابط في مدفعية مشاة الحرس الإمبراطوري، الذي ترك وظيفته العسكرية ليعمل سكرتيراً لملك هولندا وسافر إلى مصر (عام 1823) كتب فيها (إبراهيم باشا ابن محمد علي بالتبني .لمحمد علي ثلاثة أولاد من أمينة هانم وُلِدَ أكبرهم في حياة زوج أمه السابق وفي بلد يقيم فيه هذا الرجل).

ارتشف من كوب المياه الممزوج بالنعناع الذي وضعه النادل أمامه وقد ظهر عليه التوتر والقلق.

-والدليل على ذلك، الفرق بين عُمْر محمد علي وإبراهيم باشا، عشرون عاماً فقط، فهل تزوج محمد علي وأنجب قبل عامه العشرين !؟ ولو فرضنا أن ذلك قد حدث فهناك أمر مثير للدهشة؛ فمحمد علي أرسل ابنه الأصغر طوسون على رأس حملته ضد الوهابيين، وعندما تُوفيّ بعث بإبراهيم، وبالطريقة نفسها أرسل ابنه إسماعيل لحملة السودان .وعندما تُوفي بعث بإبراهيم وتلك إشارة إلى أن محمد علي كان يريد المجد لابن من صلبه، وعندما لم يَعُد في حوزة محمد علي أولاد في عمر القتال عندها فقط أرسل إبراهيم.

وفي موقعة قونية التي حدثت (عام 1832) ومثلت النقطة القصوى في صراع مصر ضد الباب العالي في الأناضول .جرت محادثة بين قنصل روسيا والباشا، كان شاهداً عليها (هامون) مؤسس الكلية البيطرية في مصر، ورواها في مذكراته .كان القنصل الروسي في اجتماع مع محمد علي باشا وأخبره أن ابنه إبراهيم هو أعظم رجل في الإمبراطورية، فصاح فيه الباشا بغضب (وإبراهيم هذا ..من هو!؟ مِن أين جاء حتى تجرؤ على أن تصفه أمامي بأنه أعظم الرجال!؟).

-الأمر كله عبارة عن مجموعة من التخمينات لا تكفي للبت في الأمر، وكونك مؤرخاً كان عليك أن لا تثير تلك الإشكاليات الحساسة إلا إذا كنت تملك دليلاً موثوقاً به.

لم تمنح له فرصة لمقاطعتها فقد واصلت بنبرة الهجوم ذاتها..

-وبالنسبة إلى السلطان العثماني ماذا عنه؟

لم يهتم للطريقة التي تحدثه به فقد اعتاد على ذلك من كثيرين كانوا يجدون في أبحاثه مثار استفزاز لكل المعتقدات الثابتة والراسخة في أذهانهم.

-في البداية لم يكن محمد علي بالنسبة إلى الباب العالي سوى باشا متمرد، وعاجلاً أو آجلا سيرجع أدراجه ويقدم فروض الولاء والطاعة للسلطان، ولكن ذلك لم يحدث وظلت شوكة محمد علي تكبر حتى أصبح لا يُستهان بها .في بداية حُكمه حاول ألا يعادي الباب العالي؛ بل قدم الجيش الذي تفانى في صنعه للإمبراطورية وذلك في حملة إبراهيم ضد الوهابية وضد المورة في اليونان، وفي السنوات الأخيرة ساءت العلاقة بين الطرفين بشكل كبير عندما ذهب إبراهيم بحملة عسكرية لضم الشام وتقدم إلى الأناضول وانتصر على الجيش العثماني في موقعة نزيب.

كان واضحاً أن السلطان بكل السبل يحاول القضاء على تابعه القوي حتى لو كان ذلك في هلاكه وهلاك إمبراطوريته نفسها .ففي الوقت الذي رفض فيه محمد علي مرور 6000 جندي من المفروض أن يتوجهوا إلى الهند عن طريق البحر الأحمر، ورفض عرض إنجلترا بإنشاء خط سكة حديد بين القاهرة والسويس على نفقتها الخاصة، وذلك حتى لا تتعرض ولايته التابعة للإمبراطورية العثمانية للخطر، وقع السلطان العثماني مع اللورد بونسونبي معاهدة تجارية تمنح إنجلترا أكبر الفرص في تركيا، وذلك لأن هذه المعاهدة كانت تعارض نظام الاحتكار الذي ترتكز عليه قوة محمد علي المالية، ومؤكد كانت ستضر بقوة محمد علي الاقتصادية .هل هناك انتقام أكثر من ذلك؟

-ولماذا لم تنتقد الاعتداء السافر للباشا على الإمبراطورية العثمانية؟ وآمال إبراهيم العريضة لإسقاط السلطان العثماني والإمبراطورية.

-لأنه لم يكن لمحمد علي أي دخل في ذلك، هذه الحملة كانت من تدبير إبراهيم الذي لم يستمع لتحذيرات الباشا.

-وهل صدقت !؟ إبراهيم لم يكن يملك الشجاعة للقيام بذلك وحده . إبراهيم كان شجاعاً وبطلاً في أرض المعركة فقط .إنما بالنسبة لوضع الخطط وتدبيرها كان أقل ذكاء وذلك بناء على رأي الكولونيل سليمان الفرنساوي قائد الجيش المصري .هذه الخطة من المؤكد أنها وُضِعَت بتدبير من الباشا واتفقا على أن يظهر الأمر كما لو أنه دُون رضاه، حتى في حالة فشل الحملة، يحفظ للوالي ماء الوجه ولا يتعرض للوم وعقاب .ولكنه كان واهماً فالإمبراطورية العثمانية لا تُقهَر.

-عزيزتي، لولا لجوء السلطان العثماني لروسيا وإنجلترا لإنقاذه من الجيش المصري كانت الخطة التي تتحدثين عنها أياً كان صدقها من عدمه

قد نجحت، ولكن لماذا أشعر أنك متحيزة لأمر الإمبراطورية العثمانية وضد محمد علي باشا؟ على ما أظن أنك مصرية ..تركية في الوقت نفسه.

-الأمر ليس له علاقة لا بمصر ولا تركيا، الأمر له علاقة بالتاريخ والواقع والحقيقة.

-ولماذا تعتقدين أن ما تقولينه هو الحقيقة وما أقوله كذب **!؟** جميع الكتب ذكرت إن حملة إبراهيم للتعدي على الإمبراطورية العثمانية والاستيلاء على القسطنطينية، كان محمد علي ضدها وقام بها إبراهيم دُون مشورته.

-ولماذا عليَّ أن أصدق الكتب إذا كان ما دُوِّن فيها ضد قناعاتي؟

-إذن لا تلومي عليَّ في شكوكي وتكهناتي التي هي ضد ما دُوِّنَ في الكتب أيضاً.

كانت قد فقدت أعصابها وهذا القناع البارد الذي كانت ترتديه قد تمزق وهي تلقي عليه اللوم قائلة:

-في الواقع لا أفهم كيف بإمكانك أن تكون ضد المؤرخين التقليديين، وتهتم في المقام الأول مثلهم بدراسة التاريخ من أعلى .الرجال العظام والحروب العظيمة والقرارات الكبيرة؛ أنا ضد ذلك .أنا أؤيد دراسة التاريخ من أسفل؛ دراسة الشخصيات الثانوية، الشخصيات البسيطة التي ليس لها باع في السياسة .العمال، الطلبة، النساء، ومدى تأثيرهم على التاريخ في أزمنة معينة .التاريخ من أسفل يساعد الذين وُلِدوا دون ملعقة من ذهب في أفواههم حتى يستطيعوا تصحيح المجرى العام للتاريخ السياسي .كالشاب التونسي البسيط محمد بوعزيزي الذي فجر ثورات الربيع العربي وغيره كثير.

-أنا معك في أن الحياة اليومية في حقيقتها هي جزء من التاريخ وعلينا ربطها بالأحداث الكبرى .في أوروبا ظهرت موجات من المؤرخين الجدد يعيدون تفسير التاريخ من خلال أشكال مغايرة ومختلفة وهذا ما يجب أن يحدث عندنا، نحن نحتاج ثورة على الطرق التقليدية في تفسير التاريخ.

-الأهم من ذلك أن نملك استعداداً للتجربة وذلك بأن نكون أكثر تقبلاً للنتائج المضادة وذلك كله يحتاج منا شجاعة قبل كل شيء.

-هذا تحديداً ما فعلته في كتابي (آخر أيام الباشا) لذلك تمت مصادرة الكتاب من المكتبات.

-في الواقع لم أقرؤه ولكني قرأت عدة مناقشات عنه.

-سأرسل لك منه نسخة إلكترونية فلم أحمل منه نسخاً ورقية.

اعتذرت منه باستقبال مكالمة .كررت فيها كلمة نعم عدة مرات.

بعد أن أنهتها سألته بنبرة أخف وقعاً:

-ولكن لماذا لم تفكر أن تقوم بطلب إعادة تحليل رفات الباشا، لتقطع الشك باليقين؟

-فكرت في ذلك، ولكن بعد الهجوم الذي تعرضت له بعد نشر كتابـي خاب أملي.

-لقد فكرت ولكن لم تضع فكرتك حيز التنفيذ .حاول ربما تنجح.

مرت عليهما لحظات من الصمت .كانت ترتشف بالشاليمو من كوب عصير الرومان ببطء وتلذذ وكأنها تستعيد هدوءها مجدداً.

-أين تسكنين؟

-نحن نسكن بيتاً بحديقة في الدائرة الخامسة.

استوقفته كلمة نحن لماذا كانت حريصة على النطق بها .كان بإمكانها أن تخبره (أسكن بيتاً بحديقة).

فجأة قامت، قررت أنها تأخرت، استعاد وجهها القناع الشاحب .وبقيَ وحيداً على الطاولة وحدسه يخبره أن هذه الوحدة ستصبح رفيقة وفية كلما تعلق الأمر بها؛ بانتظارها، بتركها تذهب، وعلى أمل لقائها.

الجزء الثاني

25

البحر المتوسط - خريف 1826

في 29 من أكتوبر عام 1826صعد حسن البربري وعطير والزرافة وبقرتان إلى السفينة le due Fratelliالتي تعادل قوتها مائتي حصان، للذهاب إلى الأراضي الفرنسية محملين بمؤن تكفيهما طوال فترة الرحلة، وبحقيبتين تحتوي كلٌ منهما على دزينة ثياب، صنعها لهما الخياط الشركسي.

وبِناءً على أوامر مسيو دروفيتي بأن يصممها لافتة للأنظار، تاهت ثياب حسن ما بين الزي العسكري للإنكشارية،

وملابس بهلوان؛ ألوان مُزركشة وخيوط مذهبة وأزرار ونياشين لامعة.

ومن الواضح أنه أغدق على ثياب عطير الكثير من الريش الملون، فظهر كما لو أنه من الهنود الحمر.

هدد حسن بأنه لن يرتدي هذه الثياب، فوضع القنصل على وجهه قناعه البارد وبنبرة صوته التي تتحول للخنافة في بعض الأحيان:

-هذه الثياب صُمِّمَت على ذوق الباشا، وإن كان ذوق الباشا لا يعجبك فهذه مسألة أخرى!

قبل إقلاع السفينة بقليل أخبرهما القنصل؛ بأنهما يمثلان والي مصر وأوصاهما بأن يتحليا بالأخلاق الكريمة والسلوك الجيد .وعليهما أنْ ينسيا نهائياً تصرفات الهمج والبربر، فالقطر الفرنسي شيء والقطر المصري شيء آخر تماماً .وفي حال بَدَرَ من أي منهما تصرف غيرُ لائقٍ؛ فالعقاب سيكون قاسياً جدًّا.

نُقل عدد من الصناديق من فيلا القنصل ووُضِعَت في قبو السفينة، وأخبر القنصل حسن بكل ثقة أن هناك شخصاً سيقابلهما في ميناء مارسيليا لاستلام هذه الهدايا التذكارية.

-يا له من أفَّاق!

سأله عطير:

-لماذا؟ ماذا تحتوي هذه الصناديق!؟

-تحتوي على آثار فرعونية، فهو يتاجر فيها، وأحيانا يمنحها لأصدقائه كهدايا ليحصل على الامتيازات.

-إنها سرقة.

-يمكنك أن تقول مصالح.

ظهرت ملامح الاندهاش على وجه عطير..

-لا، ليست مصالح.

-أنت ما زلت صغيراً، ولا تفهم مثل هذه الأمور.

-لا يا عزيزي حسن، الأمر ليس مصالح .هؤلاء الأوروبيون يعتقدون أن محمد علي وبلاده وخيرها ملك لهم، إنه الأسلوب نفسه الذي يتخذه الباشا تجاه إفريقيا، فهو يشعر بأن هذه الأراضي بكل ما فيها ملك له ونحن لسنا سوى عبيده .مثل شعار الغابة" :القوي يأكل الضعيف."

-من الجائز أن هذا صحيح، ولكن فلنبتعد نحن عن هذه الأمور.

وُضِعَت الزرافة التي كانت تطول يوماً بعد آخر بصورة مذهلة، في قبو السفينة الذي صُنِعَت منه فتحة تستطيع منها أن تمد عنقها.

الأيام كانت تمر ثقيلة في هذا المكان الذي ليس له قرار ولا استقرار؛ أنفقها حسن في القراءة والاطلاع لينمي لغته ويسلي نفسه .بينما كرس عطير اهتمامه بالزرافة .ينظف جسدها بليف من وبر الماعز، يقلم أظافرها، يصفف وبرها .ويحرص على أن يحلب البقرتين بالتناوب .ما أن يفرغ السَّطْلُ من أمامها حتى يملأه مرة أخرى آخذاً بنصيحة القنصل بأن يجعلها مبتهجة دائماً لا تشكو جوعاً ولا عطشاً.

وفي الليل يصعدان إلى سطح السفينة، يتأمل حسن النجوم ويتذكر حبيبته .وبِلُغة الإشارة يجري عطير حديثاً مع طاقم السفينة من البحارة الإيطاليين.

26

باريس - شتاء 2015

سارا معاً على طول رصيف أورليون، كانت القوارب تشق نهر السين والريح تهب باردة مصحوبة بأمطار قوية .كانت ترتدي معطفاً واقياً من المطر وتفرد مظلتها؛ فخبأته معها تحتها.

في طريقهما أخبرها عن تفاصيل قصة الزرافة الدبلوماسية وبحثه عن حسن.

-مِن الواضح أنك اقتنعت بمصطلح التاريخ من أسفل، وها قد بدأت في البحث عن أشخاص منسيين في أروقة الزمن.

-بالرغم أن الأمر جاء عن طريق المصادفة وليس أكثر؛ ولكني على يقين أن هناك أشخاصاً يلعبون دورَ كُمْبَارس في خلفية المشهد؛ ولكنها بشكل أو بآخر تؤثر في مجريات التاريخ.

عرّجا على متحف (أورسيه) ليشاهدا لوحة (موكب الزرافة) المعروضة هناك، كان يظهر حسن فيها بجانب وجهه وبملابسه الغريبة مع عطير والزرافة ويسيرون في مرجٍ فسيحٍ.

تأملت اللوحة :يبدو وسيماً .ولكن لماذا لُقب بالبربري؟

-أعتقد أنه لم يُطلَق عليه بربري للون بشرته. اعتاد عوام المصريين إطلاق كلمة (بربري) على أصحاب البشرة السمراء؛ لأن كلمة (بربر) تعني الكلام السريع غير المفهوم، لذلك أطلقوها على أهل الجنوب الذين يسكنون النوبة وأسوان، الذين يرطنون بِلُغة غير مفهومة.

-بما أنه ليس من ذوي البشرة السمراء، أُرجِّح أن هذا اللقب اكتسبه لأنه من إحدى قبائل البربر الأمازيغ، الذين يعيشون في شمال إفريقيا!

-وأيضاً اعتاد الغرب إطلاق كلمة بربري على العرب عندما يشبهون سلوكهم بالهمجية.

هزت رأسها وهي تقول:

-الأمر محير حقًّا!

-حتى ملابسه لن نستطيع من خلالها أن نعلم إذا كان يتبع جنود الإنكشارية أو الباشي بازوق، فهي تجمع بين الاثنين .هذا القميص لملابس الإنكشارية وهذه التنورة الواسعة يُطلق عليها (الفستونيلا) يرتديها جنود

الباشي بازوق.

-وماذا عن غطاء الرأس؟ ألا يكشف عن شيء؟

-للأسف لا .الإنكشارية يعتمرون عمامة تتدلى من بين الكتفين، والباشي بازوق يعتمرون عدة عمامات صغيرة الواحدة فوق الأخرى بألوانٍ زاهية يربطها طوق تتدلى منه سلاسل وحُلي .وهذه العمامة التي يلفها فوق رأسه هي عمامة شعبية يلفها عوام المصريين.

نطقت بحماس كأنها اكتشفت شيئاً:

-ما رأيك أن نذهب إلى أرشيف حديقة النباتات ونبحث هناك في سجل الموظفين؟

-هل تعتقدين أن الأرشيف يضم هذه الوثائق بعد مرور كل هذا الزمن!؟

-دعنا نجرب .هيا نذهب الآن، أعتقد أنها لم تغلق أبوابها بعد.

كانت تتحدث بحماسة على غير عادتها؛ شعر بغبطة لأنه نجح أخيراً في إثارة حماسها تجاه شيء ما.

-سأذهب غداً صباحاً، الآن نحن معاً فدعينا نستمتع بذلك.

رمقته بنظرة فارغة لا تحمل أي معنى.

تمشيا حتى حديقة قريبة تقع وسط مربع سكني، دفعت باب السياج الصدئ الذي يعطي إيحاء بأن المكان مهجور ولم يَعُد يرتاده أحد؛ الأشجار كثيفة وكثيرة تعكس ظلالها على حديقة يملؤها الحصى ..وهي تجلس على المقعد الخشبي لاحظت أن خيط أحد جوربيها النايلون قد اِنْسَل وظهرت عليها ملامح الضيق.

مر الوقت ولم تتحدث، تقوقعت داخل نفسها .شعر بالحسرة لأنه لم يستغل تلك الحماسة التي تلبستها منذ فترة قصيرة ووافق على اقتراحها بالذهاب إلى أرشيف حديقة النباتات.

تأملها، كانت تبدو في الملابس التي اعتادت ارتداءها امرأة من أربعينيات القرن الماضي .معطفٌ يتخطى الرُكبة بقليلٍ بياقة واسعة .حِزامٌ عريض بأبزيم معدني، جورب نايلون من اللون البيج، حذاء من الأسود اللامع بكعب عالٍ رفيع .تصفيفة شعرها الكاريه.

لا يعرف ما إذا كانت هذه الموضة قد عادت مرة أخرى رائجة كَحالِ بعض موديلات الماضي !؟ أم أنها تتعمد أن تظهر كذلك .على أي حالٍ كانت هذه الهيئة ملائمة لشخصيتها الكتيمة.

أخبرته وهي مخلفة له ظهرها .تسير على أوراق الشجر الذابلة مستمتعة بصوت

خشخشة الورق تحت قدميها (غداً نلتقي).

وتركته متحيراً في أمرها .كان يظن أنه كلما عرفها أكثر سيفهمها أكثر، ولكنها كانت تزداد تعقيداً.

على أي حالٍ وعدته بلقاءٍ وكان هذا الوعد كتذكرة فرح، سرعان ما تفتت عندما تلقى مكالمة منها في المساء :(أعتذر، لن أستطيع المجيء غداً)، ثم أغلقت الخط دُون أن تمنحه فرصة أن يسألها (لماذا؟).

شعر بحزن لإلغائها موعدهما .فكر أنها ربما كانت مرتبطة بشيء مع أسرتها .لم يستطع أن يتخيل حياتها خارج لقاءاتهما؟ وتساءل كيف تقوم بدورها كأم وزوجة بهذه الشخصية الغريبة؟ وبأي طريقة يمكنها أن تُدلّل طفلها أو تداعب زوجها؟ كان من الصعب تخيل ذلك .كما كان من الصعب تفسير علاقته بها وفهم مشاعره تجاهها .كان كل ما يخص هذه المرأة بالنسبة إليه عسيراً على الفهم.

27

مارسيليا - شتاء 1826

بعد ثلاثين يوماً بالتمام والكمال. ثلاثين يوماً بين أمواجٍ عاتية وتأرْجُح السفينة بين صعود وهبوط لاح المرفأ. جلس حسن في مقدمة السفينة يراقبُ الشواطئ الفرنسية بمنظار مُكبّر.

رست السفينة في ميناء مارسيليا وسرعان ما أُخْلِيَتْ وسط اهتمام فائق النظير. كان في استقبال السفينة القادمة من مِصر وتحمل على ظهرها هدية الملك، حاكم مدينة مارسيليا وأعضاء من الحكومة ووفد دبلوماسي. وخرجت أيضا الجالية المصرية التي تقيم في المدينة لاستقبال الوفد القادم من مصر وهم يحملون الأعلام المصرية.

وجد حسن وعطير نفسيهما وسط طوفان من البشر. وراحت عيناهما تتفحصان في دهشة تلك الوجوه الملونة.

ابتسم حاكم المدينة الذي كان يرتدي معطفاً عليه شارة الجمهورية الفرنسية وهو يربت على ظهر الزرافة بحنان.

-كائن غريب حقًّا. ما اسم هذا الحيوان؟

رد حسن:

-زرافة.

حاول أن يردد اسمها خلفه (ز ..ز ..راف)، وهو ينظر إلى سكرتيره الذي بدوره أخذ يحاول أن ينطق الاسم، وبعد برهة سريعة كان جميع الموجودين ينظرون بعضهم إلى بعض ويحاولون نطق الاسم، وكلما نطقه أحدهم بطريقة صحيحة أخذوا يصفقون.

أخبرهم الحاكم أنه خصص لهم مزرعة خلال إقامتهم في مارسيليا، مُلحق بها حظيرة، وقد وضع بها مدفأة لتنعم الزرافة بالدفء والراحة، كما وضع تحت أمرهما سكرتيراً خاصاً ليشيرا إليه بأي شيءٍ يحتاجانه.

اقترب عطير وهمس في أذن حسن..

-يا ليتني كنت زرافة!

ضحك حسن؛ فرمقه الحاكم بنظرة قاسية؛ فتذكر وصية القنصل بأن يتحليا بالذوق والأدب. فمِن الجائز أن الضحك في هذه البلاد ممنوع.

سار الموكب وسط الجمع الدبلوماسي والجالية المصرية التي ترفع الأعلام عالياً،

ومن حين لآخر تهتف باسم (مصر) .وخرج سكان المدينة الهادئة لمشاهدة رجلين مظهرهما مثير، برفقتهما حيوان غريب طويل العنق.

عند وصولهم إلى المزرعة، ذهب كلٌّ في طريقه، بعد أن ودعوا الوفد المصري متمنين لهم أوقاتاً سعيدة.

كانت إقامتهما في بناء عتيق صمم على الطراز الباروكي، يقع وسط حديقة كبيرة، تشغل جدرانه الزخارف واللوحات الفنية وبلا شك كان يفوق منزل القنصل أناقة وذوقاً.

حضر الطاهي بكرشه السمين الذي يمتد أمامه عدة أمتار وقدم لهما قائمة الطعام وطلب منهما أنْ يختارا وجبة العشاء .لم يفهم عطير شيئاً .ولم يحير حسن نفسه كثيراً، لأن هذه الأصناف لم يسمع عنها من قبل .فأشار إلى أول وجبة في القائمة .استسلما في هذه الليلة لنوم عميق بعد رحلتهما المتعبة.

في الصباح فتح حسن الشرفة، كان على مرمى البصر أمامه البحر ممتداً إلى ما لا نهاية بلون اللازورد وغيوم بيضاء متفرقة تتوسد زرقة السماء، وطيور النورس ترفرف وهي تضرب جناحيها بقوة؛ كان المشهد أشبه بلوحة فنية.

منذ صغره علم أن لكل مدينة عِطرها الخاص بها .وكان عِطر هذه المدينة غريباً ومختلفاً .كان أكثر نعومة وخفة من مدن الشرق التي تنبعث منها روائح البهار الحار، وروائح المسك والعنبر، وروائح البخور والأرجيلة، وروائح النرجس والتمر حنة؛ روائح فواحة، ثقيلة، تملأك، تعبقك، وتطاردك أينما كنت.

بينما في هذه البلد روائح بسيطة، منعشة تَعْبُر في هدوء.

عطير الذي استيقظ على غير عادته في وقتٍ متأخر من هذا الصباح صاح قائلاً:

-ما هذه الأَسرَّة هل هي مصنوعة من ريش النعام !؟ لم أستطع أنْ أغادر الفراش بسببها.

ابتسم حسن فقد كانت الفرق بين البيئة التي جاء منها عطير وبين ما هو فيه الآن كبيراً جدًّا، لذلك التمس له العذر فهو أيضاً تلبسته الدهشة جراء كل ما شاهده منذ قدومه حتى الآن.

بعد الإفطار، أخبرهم السكرتير أن مسيو (اتني جريجوري سانت هيلاري) عالم الأحياء الشهير سوف يحضر في تمام الثانية عشرة ظهراً، وسيحضر شخص يدعى (جوزيف عبيد) من الجالية المصرية التي تقطن هنا ليقوم بالترجمة .وبعدها هناك عدد من رجال الصحافة سوف يأتون لتغطية الحدث .وأنهى حديثه مؤكداً:

- لذا يجب أنْ تستعدا وتكونا في أبهى مظهر؛ فمِن المتوقع أن يأتي أحد الفنانين لرسمكما لتطبع بعد ذلك صورتكما طباعة حجرية وتنشر في الجريدة.

قام حسن بترجمة ما قاله السكرتير لعطير.

-ولكن ما معنى أن يرسمونا وما سبب قدوم العالِم؟

هز حسن له رأسه بما يفيد..

-عزيزي، أنا مثلك لا أعرف شيئاً!

-حسناً، سأذهب لأحمم الزرافة لتبدو نظيفة وجميلة.

قبل وصول البروفيسور جاء (جوزيف عبيد)، وهو شاب وسيم، يتأرجح عمره ما بين الخامسة والثلاثين والأربعين .بعينين عسليتين واسعتين وشعر بني وبشرة بيضاء لوحتها الشمس فاكتسبت لوناً برونزياً .يبدو مفتول العضلات واسع الصدر.

للوهلة الأولى من يراه يعتقد أنه فرنسي، أباً عن جد، ولكنه ما أن ينطق باللهجة المصرية حتى تتأكد هويته .مازح حسن، وداعب عطير، وأشاع بهجة في المكان.

تلعثم عطير في نطق اسمه..

-يمكنكم أن تنادوني يوسف ..يوسف عبيد.

سأله حسن:

-هل تعيش هنا منذ فترة؟

-انضم والدي إلى جيش بونابرت في حملته على مصر.

ردد عطير وراءه في سخرية..

-تقصد انضم إلى جيش العدو.

-في الواقع لا يمكننا أن نقول ذلك .أعداء الأقباط الحقيقيون هم المماليك، جعلونا نعيش تحت لائحة طويلة من القواعد الحازمة، كانوا يُحرِّمون علينا الكثير من الأشياء؛ ووصل الأمر إلى أنهم حددوا لنا لوناً واحداً لأحذيتنا ومنعونا من ركوب البغال، والسير من أمام المساجد .كنا نعيش في أحياء خاصة لها بوابات ضخمة تغلق علينا ليلاً .حُرِّم علينا بناء الكنائس بل وهدم الموجود منها .لذلك لا أخجل من أن أعترف بأن الأقباط وجدوا في بونابرت خلاصهم .رَافقَ والداي نابليون إلى فرنسا .وانضم أبي إلى فيلق المماليك وهو فيلق من القوات الإمبريالية، كان جنودها يعتمرون عمائم وملابس شرقية. وأكسبهم هذا الزي شهرة كبيرة فقد كان من ضمن فانتازيا نابليون الاستشراقي ومن أجل هذه الشهرة ظل نابليون متمسكاً بوجودهم.

لاحظ يوسف ملامح الامتعاض على وجه عطير.

-هرب هؤلاء المصريون، المتعاونون السابقون مع أفراد الجيش

الفرنسي المنسحب (عام 1801م)، واستقروا هنا، وهم في الواقع خليط من أصول مختلفة .أبناء البلد المصريون وهم من المسلمين والمسيحيين، ومنهم أيضاً سوريون وألبان وعثمانيون كانوا يقيمون في مصر، وبعض هؤلاء اصطحبوا أيضاً خدامهم من الجواري والعبيد.

باللهجة الهجومية نفسها سأله عطير:

-وإن كان الأقباط انضموا إلى الجيش لاضطهادهم من قبل المماليك، فلماذا انضم إليه مسلمون؟

أجابه يوسف ببرود وهو يلف تبغه بحنكة وبطء:

-واضح أنك في حاجة لقراءة التاريخ .على أي حالٍ أحوال البلاد تحت حكم المماليك كانت قاسية، والمسلمون أيضاً كانوا يُضْطهَدون بالضرائب الباهظة .لقد اِدّخر المماليك لأنفسهم مباهج الحياة، بينما تركوا الشعب يعيش في فقر مدقع.

ما بين حماس عطير وبرودة يوسف كان حسن غير معني بشيء .يعلم تماماً أن الحملات والحروب والفتوحات لا تخلف وراءها سوى جثث لا يعيرها أحد أدنى اهتمام.

حاول أن يبدل دفة الحديث..

-وماذا تعمل هنا؟

-الكثير من الأشياء يمكنني أن أقول :(سبع صنايع والبخت ضايع) كما يقول المصريون.

قهقه وواصل حديثه..

-أنا نجار وصياد وأعمل في التبليط والبناء، وأفرز العنب في مصنع النبيذ، وفي الشتاء أقوم بقطع الأشجار لأحصل على الحطب، وأحياناً أعمل مترجماً كما هو الآن.

ضحك حسن..

-كفى يا رجل .لقد تخطيت السبع صنائع بكثير..

شعر حسن بانسجام مع يوسف ونادراً ما شعر بذلك مع أحد.

-ولكن هل تعرف السبب في زيارة هذا العالِم؟

-سانت هيلاري من أشهر علماء الأحياء .وقد كان بصحبة نابليون في حملته على مصر .ومن المؤكد أنه جاء بأمر ملكي ليتفقد هدية والي مصر ولتبقى تحت رعايته .ومن ناحية أخرى بما أنه عالِم في الحيوان فبالتأكيد أنه

يملك رغبة في رؤية الزرافة.

وفي الموعد المحدد وصل بروفيسور سانت هيلاري بصحبة رجلين آخرين .كان من الواضح حقًّا أنه رجل يتمتع بالعلم والذكاء، لم يحاول أن ينظر إلى حسن أو إلى عطير . الزرافة وحدها هي التي أثارت انتباهه .أخذ يقيس ويفحص كل جزء فيها؛ وركها، ساقيها، حوافرها، عنقها، خصرها، وتفقد رأسها وعينيها وفتح فمها ليرى أسنانها حتى ذيلها لم يسلم منه.

ثم أخذ يُدوِّن ما اكتشفه في دفتره الخاص وبعدها توالت الأسئلة:

-أين يعيش هذا النوع من الحيوانات؟ على ماذا يتغذى؟ ما أقصى طول يصل إليه؟ ما أطول عُمْر يحياه؟ متى يبدأ موسم تزاوجه؟

تكفل عطير بالرد على جميع أسئلة البروفيسور التي قام يوسف بترجمتها له.

وأخيراً رفع الرجل نظره إليهما كأنه اكتشف وجودهما.

-حسناً، الذهاب إلى باريس سيستغرق وقتاً طويلاً .فالزرافة ستذهب سيراً، ليس هناك أي مركبة تستطيع أن تحملها .لذلك لن نستطيع أن نبدأ الرحلة إلا مع بداية فصل الربيع .لقد بدأ الطقس في البرودة والأمطار لن تتوقف .بالإضافة إلى موسم الثلوج الذي سوف يصل قريباً.

نفث من غليونه وأضاف..

-وهذا النوع من الحيوان يعيش في البلاد الحارة، والطقس الأوروبـي غير ملائم له بالمرة .فتجنُباً لأي مشكلات قد يتعرض لها، سنؤجل رحلة الذهاب إلى باريس حتى بداية الربيع.

تبادل حسن وعطير النظرات .هذا معناه أنهما سوف يمكثان في هذه المدينة لمدة أربعة أشهر على الأقل.

تحدث حسن بالفرنسية موجهاً كلامه إلى البروفيسور..

-ولكن هذه مدة طويلة جدًّا .ما الذي سوف نفعله هنا !؟ كما أننا مرتبطون بمشاغل في مصر.

-لا أستطيع أن أُخاطر ببدء الرحلة في مثل هذا الطقس .ثم يمكنك أن تجد كثيراً من الأشياء لتفعلها، فالزرافة تحتاج رعاية خاصة؛ طعاماً، ونظافة، وترفيهاً .سوف نضع لها جدولاً خاصاً شاملاً، فلا تقلقوا، وستجدون أن هذا الجدول سوف يشغل معظم وقتكما.

انتظر حسن حتى ذهب وصاح..

-ما الذي يقوله هذا الرجل !؟ أي زرافة تلك التي ستشغل معظم

وقتنا، أنا لا أستطيع أن أقضي في هذه المدينة كل هذا الوقت.

أخبره يوسف واثقاً:

-اترك لي هذا الأمر وأعدك بأنك لن تشعر بالملل على الإطلاق.

-ليس الملل وحده .يجب أن أعود إلى مصر في أقرب وقت.

ابتسم يوسف فقد تأكد من هذه الوحشة التي يشعر بها، أن له حبيبة هناك ويتشوق للرجوع إليها.

قبل أن يغادر أخبرهما يوسف أن عُمدة الجالية في مارسيليا ينظم لهما دعوة على الغداء وسوف يأتي لاصطحابهما في تمام الواحدة من بعد ظهر الغد.

لم يمر على ذهاب البروفيسور الكثير من الوقت حتى حضر الصحفي ومعه رسام يحمل أدواته.

سألهما الصحفي عن الزرافة؟ عمرها وطبعها؟ ما الذي تحبه وما الذي تكرهه؟ وعن رحلتهما من مصر إلى مارسيليا وكيف كانت؟

اصطحبهما معه الرسام إلى الحظيرة وطلب منهما أنْ يقفا بجوار الزرافة وقام برسم سكوتش لهما وأخبرهما أنه سوف يستكمله لاحقاً في الاستديو الخاص به.

بعدها بعدة أيامٍ وضع السكرتير الجريدة على مائدة الإفطار .كانت صورة الزرافة تشغل صفحتها الأولى وتحتها كُتِبَ (الإفريقية الجميلة)، وفي صورة أخرى كان حسن وعطير برفقتها وكُتِبَ تحت الصورة الزرافة بصحبة حارسيها الافريقيين، حسن البربري وعطير.

ابتسم حسن، لقد أصبح افريقيا، على الأقل وجد له هوية.

تكفّل هذا الصحفي بأن يحضر كل أسبوع، ليستقصي عن أخبار الزرافة ويرسل إلى القصر الملكي منشوراً مغلقاً دَوَّن عليه (في مسألة الزرافة)، كانت الأسئلة تدور حول :ماذا أكلت الزرافة؟ هل صحتها جيدة؟ وهل خرجت للنزهة!؟

28

البرنامج - لندن - ربيع 2017

-في كتابك ذكرت أنه كان من بين الضيوف في استقبال الزرافة مجموعة من (اللاجئين المصريين)، ولم نفهم ما الذي قصدت حين أطلقت عليهم)لاجئين (ولماذا لم تلقّبهم بالجالية المصرية؟

-لأن الحكومة الفرنسية كانت تطلق عليهم لاجئين مصريين وليس الجالية المصرية .لم يكن عددهم قليلاً مقارنة بتعداد سكان المدينة في ذلك الوقت، فقد تخطى الآلاف وكانوا خليطاً من المسلمين والمسيحيين الذين تعاونوا مع جيش نابليون والجنرال جان باتيست كليبر (الذي شارك في حملة نابليون، في سنوات الاحتلال الفرنسي لمصر (1798-1801م) .وهرب هؤلاء المصريون المتعاونون السابقون مع أفراد الجيش الفرنسي المنسحب في (عام 1801م)، واستقروا هناك وظلّوا يحصلون على معاشات من الحكومة الفرنسية.

-هناك سفينة أخرى سبقت هذه السفينة إلى ميناء مارسيليا وكانت تحمل على متنها بعثة مصرية، في رأيك هل توجد أي روابط بين السفينتين؟

-بالفعل هناك سفينة وصلت قبل هذه السفينة بعامٍ تقريباً وكانت تحمل أول دفعة من المبعوثين المصريين، الذين أرسلهم محمد علي إلى فرنسا لتلقي مختلف العلوم؛ ليعودوا بعد ذلك إلى مصر ويساهموا بما تعلموه في تطوير المجالات الثقافية والتعليمية .كان عدد أعضاء هذه البعثة (40) تلميذاً وكان على رأسهم (رفاعة الطهطاوي)، وهو واحد من صانعي النهضة التعليمية في مصر .وبعد ثلاث سنواتٍ من بعثته إلى فرنسا بُعِثَ إلى السودان وقضى هناك أربع سنواتٍ .وكان في استقبال هذه البعثة اللاجئون المصريون أنفسهم، طبعاً هناك فرق كبير بين حمولة السفينتين؛ فالأولى كانت تحمل مجموعة مميزة من الطلبة، والأخرى زرافة هدية للملك الفرنسي.

29

مارسيليا - شتاء 1826

أخذهما يوسف في جولة في المدينة ومن بين الصنائع الكثيرة التي يجيدها كانت مهنة دليل سياحي واحدة منها.

-لقد أطلق على مارسيليا لقب أقدم مدن فرنسا، وقد تأسست على يد الإغريق.

ابتسم حسن.

-لذلك وَجدتُ شبهاً كبيراً بينها وبين الإسكندرية. الإغريق لهم بصمة خاصة لا تخطئها الروح أبداً.

استكمل يوسف دوره كدليلٍ..

-ثم وقعت المدينة في أيدي الرومان وسُميت بمارسيليا ولذلك فإن طابع المدينة يتأرجح ما بين الإغريقي والروماني، وعلى كُل حال فهي الآن من أشهرِ مدن فرنسا؛ بسبب مكانتها البارزة كميناء فرنسا الرئيسي على البحر الأبيض المتوسط، ولهذا السبب أيضاً جذبت أعداداً كبيرة من المهاجرين من مختلف الجنسيات والأعراق والأديان.

عندما انتهى صفق له عطير.

-جميل جدًّا وهل توجد في هذه المدينة مطاعم لأنني في الحقيقة أتضور جوعاً .وفي الواقع لا يهمني أن أعرف تاريخ المدينة فأنا لا أنوي شِراءَها أو العيش فيها.

رمقه يوسف بنظرة قاسية؛ بينما غمز حسن لعطير بأن ينتبه لكلامه.

عرجوا على مطعم يقدم الأسماك المشوية فأخذ النادل يتأمل حسن وعطير بدهشة.

-لا أعلم حقًّا، هل سنظل هكذا فُرجة للجميع !فقد سئمت من الطريقة التي ينظرون بها إلينا.

حاول يوسف تهدئته..

-لا تشغل بالك يا حسن فَهُم معجبون بكما ليس أكثر.

-هناك فرق بين أنْ يكونوا معجبين بنا وبين أن يسخروا منَّا.

تجرّع يوسف كوب العرق الذي طلبه دفعة واحدة، وأخبره:

-عزيزي، هم حقًّا معجبون بكما .هذه الأشياء الغريبة والمختلفة تلفت أنظار الفرنسيين .والجميع هنا يتمتعون بحرية شخصية ليس على أحدٍ التدخل فيها.

بعد أن أكلوا بشهية مفتوحة، طلبوا القهوة .وسأله حسن:

-ألا تنوي العودة إلى مصر؟

استغرق في التفكير .شعر حسن بالحرج من أن يكون السؤال ضايقه، فيكفيه طريقة عطير الفظّة في التعامل معه والتي قابلها بصدر رحب.

-عندما خرجت من مصر كان عمري عشر سنواتٍ، وأتذكر جيداً عندما انضم أبـي إلى جيش بونابرت؛ الجيران لم يتركونا في حالنا، حتى أنهم في إحدى المرات حاولوا حرق منزلنا .هذا غير السباب والشتائم التي كنا نتعرض لها يومياً، ومن الأقباط أنفسهم؛ لذلك هربنا إلى إحدى قرى الجنوب وأقمنا فيها دُون أن يعرف أحد أمرنا .بعد انتهاء الحملة كان أبـي واحداً من ضمن الرجال الذين اخْتِيرُوا من قِبَل القائد الفرنسي للعودة معه إلى فرنسا، وفي الخفاء أيضاً سافرنا دُون أن يعرف أحد عنا شيئاً، وفي الحقيقة لم نفكر في العودة يوماً لأنه ليس لنا أي مستقبل هناك .جميع مَن يعيشون هنا مِن المصريين سواء كانوا مسلمين أو أقباطاً لا يفكرون في العودة إلى مصر مجدداً وخصوصاً تحت ظل حُكم محمد علي .صحيح أنه يقوم بإصلاحات كبيرة وكثيرة وستجني مصر ثمارها عاجلاً أم آجلا؛ ولكنه في سبيل تحقيق ذلك يحكم بالسوط والجَلْد .ومن شعر بمذاق الحرية لن يعود أبداً إلى العبودية.

ردد حسن خلفه بمرارة:

-نعم كلامك صحيح (من تذوق الحرية لا يعود أبداً إلى العبودية).

30

مارسيليا 1827

لم يمر يومان على زيارة البروفيسور حتى تعرضت المدينة لموجة من الطقس شديد البرودة مع سقوط أمطار غزيرة تماماً كما تنبأ.

أَوْفَى يوسف بوعده لحسن بأن لا يجعله يشعر بالسأم أبداً. فكان يصطحبه معه إلى الحفلات والمناسبات وعرفه إلى جميع أهل مارسيليا. ذهب معه إلى المسرح لمشاهدة أحد العروض التي تقدمها أشهر فِرق باريس المسرحية. وشارك أقباط الجالية المصرية في احتفالها بعيد الكريسماس، وتناول معهم الحبش المحشو بالأرز والصنوبر. وعند احتفالهم برأس السنة صاح معهم عندما دقت الساعة الثانية عشرة وتمنى لهم عاماً جديداً سعيداً.

بعدها بدأ موسم الثلوج التي هطلت دُون هوادة. وتدثرت المدينة برداءٍ أبيض ثقيل، فالتزم حسن البيت، بجوار المدفأة. كان يوسف يزوره من وقت لآخر يشاركه لعب الورق وهما يتناولان الكستناء المشوية. ومن حين لآخر كان يرتدي معطفاً من الصوف الإنجليزي مبطناً بالفرو أهداه له عُمدة المصريين ليتغلب به على برودة الطقس، ويذهب مع يوسف إلى حانة صغيرة قرب البحر يرتادها البحارة. زُيِنَت جدرانها بشباك الصيادين وقشور الصدف، ووُضِعَت على الطاولات منافض من القواقع الكبيرة.

كان المكان مزدحماً دائماً ويبعث على الدفء. وصوت تدفق الجعة من صنبور الدورق الخشبي في الأكواب لا يتوقف.

شاب يعزف على الماندولين، ورجل يغني لحبيبته التي تركها على الجانب الآخر من البحر أغنية حزينة. وآخر ينظم قصيدة لزوجته التي اشتاق إليها. رجلان يتشاجران أحدهما خدع الآخر في لعب الورق، وآخرون يلقون النكات الماجنة ويضحكون.

"جريكي - مالطي - إسباني - إيطالي - مصري" في هذه المساحة الضيقة من العالم. رجال ألقى بهم البحر تجمعوا هنا بطموحاتهم وآمالهم المختلفة، وكان هو واحداً منهم.

أُعجَب أهل مارسيليا بِمُرافق الزرافة الوسيم، وأخذوا يدعونه إلى حفلاتهم وسهراتهم، وكانوا يختصرون اسمه بـ (بربري). والنساء الجميلات كن يتوددن إليه بدعوات مواربة أحياناً ومكشوفة في أخرى، ولكنه كان يصدهن فعقله وقلبه لامرأة واحدة فقط.

اندهش يوسف من سلوكه وأخبره أن بعض المرح لن يضر. فمَن في القلب يبقى في القلب وللجسد رغبات أيضاً.

-(من الواضح أنك لم تعشق يوماً).

إجابة حسن أخرسته، وجعلته لا يتحدث في الأمر مرة أخرى.

كان يومياً يجلس ليكتب لها رسائل، رسائل لن تقرأها أبداً لأنه لم يرسلها .كانت تفريغاً لحمولة شوقه التي يئن قلبه بها لا أكثر، يحكي لها فيها عن ما شاهده، وهو ما فعله، وما الذي صنعه شوقه إليها.

لم يكن الورق وحده هو ما يفرغ فيه أشواقه .كانت الزرافة أيضاً، التي وجد في عينيها الحالمتين شبهاً منها، يقترب منها ويقص لها بما يختلج في صدره من حنين .كانت الزرافة تهز أذنيها تارة، وذنبها تارة أخرى .وعندما تسمع هسيسه تخفض عنقها وتنظر إليه وتبدو كما لو أنها تواسيه .من الذي يقول إن الحيوان لا يفهم!؟

أما عطير فقد انشغل بأمور أخرى .كان يرتب وينظم لقاءات الصحفيين، وسكان المدينة والمدن المجاورة لزيارة الزرافة .خصّص ساعتين كل يوم للجمهور لمشاهدة هذا المخلوق العجيب .وبعدها يقوم بغلق الباب ومَن يريد رؤيتها عليه أن يدفع لقاء ذلك ربع فرنك .ومَن يريد لمسها يدفع نصف فرنك .أما مَن يريد أن يطعمها فعليه أن يدفع فرنكاً كاملاً .وفي غضون أسابيع قليلة ملأ عطير جراره بالفرنكات.

وبّخه حسن على فعلته وصاح فيه:

-هل جننت؟ ما الذي تفعله؟ هل تتاجر بهدية الملك؟ لو اكتشِف أمرك فسيكون عقابك وخيماً.

أجابه بلامبالاة:

-ليس لي دخل في ذلك .عندما أخبرهم أن وقت الزيارة انتهى، أجدهم أخرجوا المال وعرضوه عليَّ.

-على أي حالٍ لقد حذرتك.

-وما الضرر في ذلك .لطالما استفادوا من بلادنا وثرواتنا .ألم يحن الدور علينا الآن!؟ ربما يشهد التاريخ أن هذا الشاب القادم من مجاهل إفريقيا استطاع أن يكوّن ثروة من الأوروبيين.

ابتسم حسن وهو يهز رأسه بسخرية..

-إذن ..فأنت تنوي أن تكوّن ثروة؟

-نعم، وسترى.

قالها عطير بتحدٍّ.

31

الإسكندرية - شتاء 1827

غادر حسن نازعاً معه روح مهجة حتى أضحت جسداً بلا روح .حاولت أمها أن تستفسر منها عمّا ألَمَّ بها ولكنها لم تكن تتحدث .أصبح كل همها حرصها على إشعال القناديل قبل حلول المغرب، حتى الابتسامة التي كانت تجيب بها على مصافحات الناس وتحياتهم في الأزقة والطرقات لم تَعُد تتصنعها، ما رسخ اعتقاداً في نفوس بعضهم أنه شاب معتد بنفسه . لا يتحدث مع أحدٍ أو يرد السلام على أحدٍ.

اعتقد أبوها من سلوكها أنها سئمت مساعدته، فحاول أن يخفض من وزنه سريعا مستبدلاً المحمر والمشمر بمرقة الفول النابت.

عند إشعال قناديل منزل القنصل كانت تتلكأ وتأخذ وقتاً أكثر من المعتاد وتمعن السمع .ربما تسمع وقع خطواته الواثقة الثابتة أو رنين ضحكته التي عندما تسمعها كان يهتز قلبها طرباً، ولكن لم يكن هناك قهقهات أو خطوات .لم يكن هناك سوى الصمت الذي يولد خوفها من الزمن الغادر، وكلما انتابها هذا الإحساس كانت تطمئن نفسها بوعده لها بأنه سيعود.

تسعون يوماً مرت على غيابه، كانت تحصي الأيام بلا كللٍ .وفي خضم اليأس والحيرة كانت تذهب لتقف أمام البحر تراقب السفن القادمة من البلاد البعيدة الباردة .تراقب القادمين، تتطلع في وجوههم لعله بينهم.

ذات مغرب كان البستاني منهمكاً في تهذيب أشجار الحديقة كما أمره سيده الفرنسي وهو يزغر له قائلاً :(أريدها تماماً كأشجار حدائق قصر فرساي) .لم يفهم ما هو هذا الفرساي ولا كيف تبدو أشجاره، ولكنه بقدر الإمكان كان يحاول أن يشذبها بشكلٍ أنيق . عندما لمحها وهي واقفة على الدرج الخشبي لتوقد قنديل البوابة الأمامية، ترك المقص من يده وهرع إليها ليحكي لها الأخبار التي وصلت عن حسن.

-يقولون إن تاجراً قادماً من فرنسا قد رأى حسن.

-كرر ذلك.

ظن الرجل أن المشعلجي لم يسمعه.

-تاجر حرير دمشقي قادم من فرنسا، رأى حسن وتعرف إليه،
وأخبر القنصل بذلك..

صاحت:

-أرجوك، كرر ذلك مرة أخرى.

تعجب البستاني كيف لم يسمعه؟ اعتقد أنه يعاني من مشكلة ما في سمعه لذلك صاح بعلو صوته (هناك تاجر دمشقي قادم من فرنسا رأى حسن).

بالتأكيد لم يخطر بباله أن هذا الشاب الواقف أمامه، ما هو إلا فتاة متيمة، وكانت تطلب منه أن يكرر ويعيد الكلام محاولة منها لإدامة البهجة لا أكثر.

عندما عادت إلى البيت رشت الأرض بماء الورد، وأضاءت الفوانيس، وارتدت أجمل ثيابها ودهنت شفتيها حمرة .كانت سعيدة بأن أحداً رآه، فهو حي يرزق وبصحة جيدة . وطالما هو كذلك فلن يخلف بوعده لها.

32

مارسيليا - ربيع 1827

سريعاً، انقضى فصل الشتاء، انقشع الضباب وسطعت الشمس من جديد وذابت الثلوج وأزهرت البساتين.

خلال هذه الشهور، تبدل الموكب الذي رست به السفينة في ميناء مارسيليا منذ أشهر .ازدادت الزرافة طولاً، وعطير أصبح أكثر ثقةً وطموحاً .وفقد حسن نصف وزنه وشحب لونه هو المتيم حتى النفس الأخير.

في الصباح الباكر حضر البروفيسور لزيارة الزرافة ومعه ثلاثة أشخاصٍ، وكما في المرة السابقة أخذ يقيس كل جزءٍ فيها ويقارنه بالقياسات السابقة، واندهش عندما وجد أنها تزداد طولاً بشكلٍ مفرط في فترة قصيرة ودخل في محادثة علمية مع المرافقين له ودوّن كل ما اكتشفه في دفتره ..وقبل ذهابه أخبرهما..

-استعدا غداً سوف تبدأ رحلتنا للذهاب إلى باريس .تبعد مارسيليا حوالى 880 كيلومتراً عن باريس وسوف نسير بمعدل 20إلى 24 كيلو متراً في اليوم.

هنا قاطعه عطير..

-ولكن هذه مسافة قصيرة بإمكاننا أن نسير بمعدل أكثر ونكسب الوقت..

ترجم يوسف كلامه للبروفيسور الذي نظر إليه شزراً.

-ليس لك دخل بالأمر .لا نريد أن نرهق الزرافة وتصل إلى الملك مجهدة ومتعبة .لذلك سنحرص على السير بهذا المعدل يومياً .لقد صممنا معطفاً للزرافة من القماش الواقي من المطر فموسم الربيع في فرنسا غير مضمون تماماً .بين لحظة وأخرى يمكن أن ينخفض الطقس.

خرج الموكب في الصباح الباكر ارتدى حسن بذلته العسكرية التي صنعها له الخياط الشركسي .وارتدى عطير ملابسه المزينة بالريش ووضع فوق رأسه قلنسوة صنعها من فراء أرانب المزرعة .بينما ارتدت الزرافة معطفاً واقياً من المطر من قماش أزرق وُضِعَت على أحد جانبيه زهرة الزنبق شعار الإمبراطورية الفرنسية، وفي الجانب الآخر شعار والي مصر محمد علي باشا .ورافق الموكب البروفيسور ويوسف والبقرتان.

خرج المواطنون، لمشاهدة الموكب الغريب، الذي يتقدمه هذا المخلوق العجيب، ذو السيقان الطويلة والعنق الطويل .احتشدوا في الطرقات واصطفوا على الأرصفة وتسلقوا

الأشجار وأخذوا يهللون ويصفقون.

كانت الزرافة في زيها الملكي تبدو كأميرة تخطو بخيلاء وسط الجموع .ومن الواضح أن الزرافة كانت سعيدة بذلك فكانت تخرج لسانها وتلعق بود كل من يقترب منها.

طلب البروفيسور بتعيين حراس يحيطون بالزرافة حتى يؤمنوا طريقها ويحموها من أيدي المعجبين الذين كانوا يعطلون مسيرتها.

عبر الموكب مدناً كثيرة، أفنيون، وأورنج، وفيين وليون .لم يثر طول الطريق ضيق حسن، ما أثاره هو الطريقة التي ينظر بها الناس وهم يشيرون بأصابعهم إليهم وتملأ الدهشة عيونهم .تمنى لو أنه يختفي من فوق سطح الأرض، أو أن تنشق الأرض وتبتلعه . شعر يوسف بضيق حسن؛ فطمأنه بأن الرحلة قد شارفت على الانتهاء، ويجب أن يرسم ابتسامة على وجهه فالملك بنفسه سيخرج لاستقبالهم.

33

لندن - البرنامج - ربيع 2017

-ألا تجد في معطف الزرافة شيئاً من الفنتازيا؟

-نعم هذا حقيقي) .سانت هيلاري (هو من اقترح خياطة معطفٍ للزرافة ليحميها من الطقس السيئ، أوكل الملك شارل العاشر أمر هذه الزرافة لعالِم الأحياء، وحرص بكل الطرق أن تصل الزرافة إلى الملك وهي في أحسن حال .فصمم لها معطفاً من القماش الواقي من المطر لونه أزرق ملكي . ونُقشَ على أحد جانبيه (زهرة الزنبق) وهي شعار الإمبراطورية الفرنسية، وعلى الجانب الآخر نُقشَ شعار محمد علي باشا .وكانت تجسد العلاقة القوية بين مصر وفرنسا وهي تسير الهويني مرتدية هذا المعطف المنقوش عليه شعارا البلدين.

اعتدل في جلسته واستكمل حديثه الذي يتابعه الجمهور بشغف...

-في الواقع لم يكن تصميم هذا المعطف من باب المصادفة، ذكر أحد مؤرخي النسيج في بحثٍ له عن معطف الزرافة، بأن ذلك كان مماثلاً لطقس ملكي يُمَارَس قديماً، ترتدي فيه الأميرات الأجنبيات معطفاً بذات اللون والتصميم، وهن على الحدود الفرنسية، قبل دخولهن إلى فرنسا للاقتران بأحدِ أمرائها.

وقد ارتدته الملكة "ماري أنطوانيت "في أثناء قدومها من النمسا للاقتران بابن ملك فرنسا، ولم يختلف كثيراً استقبال الفرنسيين لموكب ماري أنطوانيت عن استقبالهم لموكب الزرافة، فقد خرجوا لاستقبالها بكل حفاوة وهم يرمونها بالزهور .وبالتأكيد كانت الزرافة أسعد حظاً من الملكة ماري أنطوانيت التي ثار عليها الشعب في النهاية وخرج يطلب قتلها.

ضحك الجمهور وتعالت همهماته.

-وبذلك نستطيع أن نقول إن الزرافة مثل أولئك الأميرات الأجنبيات، فقد كُتِبَ عليها أن تهجر مسقط رأسها إلى الأبد وتنتمي إلى فرنسا.

34

باريس - صيف 1827

أخيراً وصل الموكب إلى باريس، وكان في استقباله رئيس البلاط الملكي وعالِم التشريح المقارن "جورج كوفييه" والروائي الشهير "ستندال". في البداية ظن حسن أن رئيس البلاط هو الملك، كانت هيئة الرجل مثل هيئة الملوك. وقف أمامه مرتبكاً لا يدري ماذا يفعل؟ هل يركع بين يديه ويسلمه الزرافة أم ينتظر ليأمره أن يتقدم إليه؟

ولكن الرجل هو من تقدم إلى الموكب.

-جلالة الملك في انتظاركم في قصره وهو متشوق لرؤية هذه الهدية، وفي غاية الامتنان لوالي مصر العزيز محمد علي باشا.

سأل حسن يوسف:

-ألم يكن من المفترض أن يخرج الملك بنفسه لاستقبال الزرافة؟

مال عليه يوسف وهمس في أذنه:

-سمعت أن زوجة ابنه (ماري تيريز دو فرانس) شديدة الاهتمام بقواعد البروتوكول. أصرت ألا يذهب ملك فرنسا لاستقبال زرافة أُهدِيَت إليه؛ بل يجب أن تأتي هي إليه.

لذا كان على الموكب أن يواصل سيره في اتجاه القصر الملكي في غرب باريس. وحينها خرج معظم سكان العاصمة لمشاهدة الموكب، البعض منهم يبتسم في إعجاب والآخر يضحك في سخرية.

لف الحزن حسن ككفنٍ، هل انتهى به الأمر أن يسير خلف زرافة؟ وأصبح يثير الضحك والسخرية بعد أن كان يثير الرعب والخوف في قلوب أعدائه.

ظلت أفكاره تنهشه وإحساسه بالدونية كان كدودة تتغذى، رويداً.. رويداً على ثقته بنفسه.

لاحظ ستندال ذلك فاقترب منه.

-لماذا تبدو حزيناً؟ ألم تعجبك باريس!؟

فاجأه سؤاله. كان يبدو أنيقاً في سترة طويلة تغطي الركبتين وقبعة عالية وقميص أبيض.

-وما قيمة أن تعجبني مدينة أو لا تعجبني إذا كنت في النهاية لا

أنتمي إلى أي مدينة؟ لقد تخلت عني كل المدن.

تمعن ستندال في كلام حسن وهز رأسه متعجباً.

-مِن الواضح أن هناك ما يؤلمك.

نابت نظرة حسن عن إجابته.

-ما اسمك؟

-حسن.

بعد برهة أضاف بصوت خفيض كمن يحدث نفسه:

-البربري .هل جربت أن تحمل لقباً لا تعرف من أين جاء؟ لقباً لا يَمُتّ لك بصلة.

-نعم جربت ألقاباً كثيرة أطلقها عليَّ المثقفون والنقاد .كان بعضها غريباً .لا تتعجب عزيزي هكذا هي الحياة تمنحنا أحياناً ما لا يليق بنا.

كان صوته، ضغطه على الأحرف، وشرود نظراته في مدى بعيد، كمَن يلتقط أفكاره من الفضاء من حوله، ويصيغها في عباراتٍ متناسقة وكلماتٍ منمقة، تمنح المرء راحة وطمأنينة.

-هل أنت كاتب؟

-يدَّعون أنني من أشهر كُتَّاب فرنسا.

-ليس مهماً ما يدَّعونه، المهم ما تشعر به؟

-أنا لا أشعر بشيء .أنا أحول أفكاري إلى كلمات، وهي تروق للبعض منهم وهذا كل ما في الأمر.

-أحببت الحديث معك.

-أعتقد أننا سنكون أصدقاء .دعني أنصحك نصيحة، أيا كان ما يدور في عقلك اتركه واستمتع، حتى في المعاناة جانب ضئيل من متعة .ابحث عنه تجده.

انشغل ستندال بالحديث مع رئيس البلاط الملكي .وانشغل حسن بالبحث عن المتعة في معاناته، حسناً سيبحث عنها ويستمتع بها مهما كانت ضآلتها.

ثم لماذا لا يشعر بمتعة في كل هذا الجمال المحيط به؟ ويحتم عليه أن يبحث عنها في معاناته .وجوده في هذه المدينة العصرية، ذات الشوارع النظيفة والنسق المعماري الأنيق، بتلالها العالية، وغاباتها الشاسعة، وسمائها المتوهجة، ونهرها الساري، ونسائها

الجميلات اللواتي يرتدين فساتين مكشوفة الصدر ذات قورنيلات واسعة ويرمينه بالزنابق البيضاء، ورجالها المتأنقين الذين يلوحون له بأصابعهم الرشيقة الطويلة.

هل حقًّا ما يضايقه أنه أخيراً أصبح محط الأنظار، ويشغل الاهتمام ويثير الإعجاب!؟

لطالما خاض حروباً وفتوحاتٍ، ببسالة وشجاعة ولم يلتفت إليه أحد، لم يشكره أحد، ولم يرمِه بالزهور أحد.

إذن المتعة التي أخبره عنها ستنذال وطلب منه أن يبحث عنها تكمن في (وجوده) وفي الاعتراف أخيراً به.

35

تَدَافَع الجمهور، للدخول مع الموكب إلى القصر .ولكن فرقة الحرس الملكي التي يرتدي أعضاؤها سترات حمراء بأزرار ذهبية، ويزينون رؤوسهم بقبعات من الريش منعوهم من المرور من البوابة، وسمحوا لأعضاء الموكب فقط بالدخول .ساروا في طريقٍ طويلٍ تحده أشجار وزّعت في اتساقٍ بديعٍ من الجانبين وفي نهاية الطريق وعلى تلة عالية ظهر القصر الملكي، بناء ضخم كبير؛ صُمِمَ على النهج الباروكي تحيط به حديقة غنَّاء، تتوزع فيها الفسيفساء.

انبهر حسن وعطير من جمال المكان وفخامته.

صحيح أن قصر الباشا بناء جميل ولكنه لم يكن بمثل هذه الفخامة.

نظر عطير إلى حسن.

-إذا كان هذا منظره من الخارج فكيف هو من الداخل؟

وقف الملك وسط عائلته وكبار حاشيته ورجال بلاطه والمقربين من أصدقائه؛ لاستقبال هدية والي مصر .واضعاً فوق كتفه معطفاً من الفرو الأبيض وكان يبدو مهاباً مثل تمثال آلهة الإغريق.

اقترب بخطوات واثقة من الزرافة ورفع عنقه يتأملها.

-يا له من حيوان غريبٍ وجميلٍ!

لمح الحجاب المعلق في عنقها والمحفوظ في جراب من المخمل الأحمر.

-وترتدي قلادة من المخمل الأحمر.

رفع أحد حاجبيه مستعجباً..

-للمرة الأولى أرى حيواناً يتزين بقلادة .من المؤكد أن هذه عادات شرقية.

تركه حسن يعتقد أنها قلادة .كيف بإمكانه أن يشرح أن والي مصر طلب أن نعلق على الزرافة تميمة للحفظ.

ابتسم وهو يحدث حسن وعطير فبدا أبسط مما اعتقدا..

-أتمنى أن تكون رحلتكما مريحة.

أومأ حسن برأسه بينما لم يرفع عطير نظره استحياء من الملك.

-عندما تعودا أدراجكما بلغا الباشا أنني ممتن لهديته.

اقتربت الفتيات والفتيان ونساء القصر ورجاله ليشاهدوا الحيوان والرجلين .بينما الخدم والطباخون والسفرجية والبستانية وجميع العاملين داخل هذا البناء المنيف، كانوا يتلصصون على الموكب من وراء الأبواب ومن خلف النوافذ ومن فوق الأسطح ومن بين غصون الأشجار.

أصدر الملك أمراً للبروفسورين اللذين رافقا الموكب، أن تمكث الزرافة تحت رعايتهما الخاصة في حديقة النباتات.

ثم دخل إلى قصره برفقة ستندال تتبعهما حاشيته.

همس عطير في أذن حسن:

-يا الله .ما أبخل هؤلاء الناس !كنت أتوقع أن الملك سوف يجزل لنا العطايا .هُم اعتادوا أنْ يأخذوا منا ولا يمنحونا .يتملكهم يقين أن بلادنا وأرضها وثرواتها وناسها وحتى حيواناتها مِلك لهم.

لم يؤثر حديث عطير في حسن .لم يجعله يشعر بحقد أو كراهية اتجاههم .هو يعلم تماماً كيف يمكن للمرء أن يأخذ دُون أن يمنح.

وأخيراً وبعد رحلة طويلة .استغرقت أسابيع كثيرة، آنَ لحسن وعطير أن يغطا في نومٍ عميقٍ بعد أن انزاح من فوق كاهلهما حمل الهدية الثقيل.

في هذه الليلة راود حسن حلم؛ أنه على متن سفينة كبيرة في طريق عودته إلى الإسكندرية .وحلم عطير أنه يجلس على مقعد وثير وعبدان أسودان يروحان عليه بمراوح من ريش النعام.

ولأن الأحلام الجميلة تظل تراودنا في صحونا .استيقظ كلٌّ منهما يحمل بداخله مشاعر مختلفة، كان حسن يملأه الشوق وعطير يملأه الأمل، وكل منهما كان بداخله إصرار على تحقيق حلمه.

في صباح اليوم التالي من وصولهما، عقد رئيس حديقة النباتات اجتماع مع أعضاء الإدارة والعاملين فيها، للترحيب بالموظَّفين الجدد .أخبره حسن أن مهمته كانت مُرافقة الزرافة حتى تسليمها للملك، وبأنه يريد العودة إلى مصر في أقرب وقت.

بينما وجد عطير أن لا مانع من بقائه مع الزرافة، وذلك حتى تتأقلم مع البيئة الجديدة، وأقنع مدير الحديقة أن هذا النوع من الحيوانات يشعر بالوحشة عند التنقل من مكان لآخر، وبسبب هذه الوحشة يتوقف عن إجراء أي نشاط ويفقد الرغبة بالحياة وربما يؤدي ذلك إلى حتفه .وبما أنه حارسها الذي تعرفه وتحبه ولا تأكل إلا من يده، من الأفضل أن يمكث معها .وافق مدير الحديقة وأخبره أن بإمكانه أن يبقى وقتما شاء ويتخذ من الاستراحة سكناً له.

ابتسم عطير بلؤم بعدما دخلت كذبته على الرجل.

ثم نظر مدير الحديقة إلى حسن وسأله:

-وأنت متى تريد السفر؟

-بعد أيامٍ قليلة أحتاج أن أستعيد قوتي مجدداً .الرحلة كانت طويلة ومنهكة.

-حسناً ..عندما تنوي أخبرني حتى أقوم بتيسير إجراءات عودتك إلى مصر.

بعد ما انفض الاجتماع سأل عطير حسن باستنكار:

-لماذا تتعجل العودة؟ هل اشتقت إلى مصر؟

شرد حسن في أحلام يقظته وتخيل مهجة مقبلة عليه بابتسامتها الجميلة وبغمازتها الغائرة في خدها الأيسر كأصبعٍ غُرِز في قرص عجين.

-نعم اشتقت إليها كثيراً ..كثيراً.

في صباح اليوم التالي تصدرت صورة الزرافة برفقة حسن وعطير الجرائد الفرنسية تحت عناوين متعددة مثل :(المصرية - الإفريقية الجميلة - الحيوان الأسطوري .. هدية محمد علي باشا والي مصر تصل إلى باريس بعد رحلة استغرقت شهوراً طويلة، والآن هي في صوبة صممت خصيصاً لها في حديقة النباتات).

وفي الأسبوع الأول لها ارتبكت خطوط السير في العاصمة الفرنسية، كان الزحام أشبه بيوم الحشر وفشل رجال الشرطة والأمن في تنظيم حركة السير .تدافع الجمهور كأمواج جامحة متلاطمة واحدة وراء الأخرى، وحدثت حوادث ومشادات وصلت إلى التشابك بالأيدي وكل ذلك من أجل إلقاء نظرة على الإفريقية الجميلة هذا الكائن الأسطوري ذو العنق الطويل .ولم تكن الزرافة وحدها مثاراً للدهشة فقد استحوذ كل من حسن وعطير على جانب كبير منها.

36

كان القمر منجلياً فضياً متوارياً خلف سحابة عندما قرر حسن أن يخرج ليتجول في المدينة .أخذته قدماه من مكان لآخر ومن شارع لآخر .شاهد القصور والحدائق .والدكاكين والمتاحف .شاهد البشر في حللهم المختلفة.

نسوة يرتدين الثياب بموديلات عجيبة .واحتار كيف يعقصن شعورهن على شكل عناقيد من العنب.

رجال يرتدون قبعات عالية ويعلقون الساعات بسلسلة في جانب ستراتهم .وفتن بالطريقة التي يعقدون بها الأوشحة حول أعنقاهم.

مركبات أنيقة مبطنة بأفخم أنواع الجلود، تجرها الخيول وتعدو مسرعة فوق أرض ملساء دُون أن تُثير صخباً أو غباراً.

روائح عطور البشر الأنيقة تمتزج برائحة القهوة الفرنسية والكستناء المشوية؛ تفوح في الجو مخلفة وراءها عبيراً لطيفاً.

دخل حديقة لكسمبورج .شعر بنداوة العشب تحت قدميه .وهجمت عليه شتى روائح الزهور.

كان العشاق يشغلون المقاعد في هذه الليلة الصيفية الجميلة .تناهى إلى مسامعه أصوات أنفاس حارة .وجد رجلاً وامرأة منفصلين عن العالم بأسره ومتوحدين في عناق حار تحت أغصان شجرة أقحوان .تمنى لو أنه يملك الحرية هو ومهجة .دُون عيّنٍ تتلصص عليهما ولا أُذن تسترق السمع لهما.

لم يكن هناك شك .ليس ثمَّة شك .أن كل شيء في هذه البلاد، مختلف تماماً، عما يدور داخل البلاد التي جاء منها.

ليست باريس وحدها التي أثارت فضول حسن .هو أيضا أثار فضولها .فضول عابري طرقاتها من رجالها ونسائها، شبابها وشيوخها، نبلائها ومتسوليها.

ملأته ابتساماتهم له بالثقة والفرح .مَن قال إنه محل سخرية وامتهان !؟ هو محل تقدير وإعجاب .شحن عقله وروحه بهذه الأفكار وواصل طريقه والسعادة تغمره.

أخذ يقطع الشوارع والطرقات بسرعة ويكتشف المدينة في نهم .يقرأ اليافطات المعلقة على المحلات .(مدام رينيه خياطة، مشغل مدام جوزفين لصناعة القبعات، مصنع مسيو فرنسوا لصناعة المظلات - استلم مظلتك باللون الذي يعجبك خلال 48ساعة، مسيو ألبرت لتصليح جميع أنواع الساعات، مقهى الخامسة مساء لشرب الشاي، حلواني لاتويه يقدم لكم ألذ أنواع الكرواسون وجاتوه الشوكولا).

وتساءل :ترى ما هو جاتوه الشوكولا؟

فكر لماذا لا يدخل ويجرب.

أثار انتباه الزبائن؛ ابتسموا له وحيُّوه، ورفض البائع أن يأخذ منه ثمن قطعة من جاتوه الشوكولا .فشكره وخرج يلتهمها التهاماً، فقد أعجبه طعمها .حاول أن ينطق اسمها فأخذ يردد :(شو شو شوكولا) وعندما صادفه محل آخر لبيع الحلوى .لم يتردد مطلقاً، دخل وطلبها وهو ينطق اسمها بكل الثقة.

أخذته قدماه إلى حي مونمارتر ووجد نفسه ينحدر باتجاه أزقته الضيقة، لاحظ أن هذا الحي مختلف عن الأحياء الأخرى، أكثر حميمة وأكثر دفئاً وحياة.

مقاه ترص طاولاتها في الخارج، فنانون يفردون حوامل لوحاتهم ويرسمون، فتيات جميلات يتريضن بصحبة كلابهن البيضاء الصغيرة.

فجأة سمع من يناديه؛ تسمر مكانه وهو بين الشك واليقين ..فمَن الذي يمكنه أن يناديه باسمه في هذا المكان.

تكرر النداء مرة أخرى (حسن ..مسيو حسن).

نظر خلفه فلمح (ستندال) على بُعد أمتارٍ قليلة .يجلس على أحد المقاهي وبرفقته رجلٍ آخر، عرفه إليه قائلاً :مسيو كلود دووبوف الرسام الشهير.

نظر الرسام إلى حسن :أهلاً بك .أنت الذي جئت برفقة الزرافة، يقولون إن حارسيها إفريقيان وإن مظهرهما مثير.

كان نحيفاً، يظهر كعود ثقاب وفوق رأسه هذه القبعة العالية.

واصل الرجل سؤاله - ولكن هل أنت إفريقي؟

توقف حسن أمام سؤال الرجل - هل هو عربي، أم إفريقي، أم عثماني، أم فارسي، أم شركسي، أم أرمني؟

-يمكنك أن تقول إنني خليط من كل شيء.

هز الرجل رأسه..

-جميل أن يكون المرء خليطاً من عدة أجناس .وهل أعجبتك باريس؟

-لقد سحرتني.

نظر ستندال إلى ساعته..

-لقد تأخرنا.

ثم تطلع إلى حسن..

-لو تملك الوقت يمكنك أن تأتي معنا؟

-أملك الكثير منه ولكن إلى أين؟

-سوف نحضر صالون مدام شانتال الثقافي.

ستندال لا تختلف كتابته عن شخصيته .هو لا يحب التفاصيل يتحدث وعلى المستمع أن يغرق في تساؤلاته واعتقاداته، مثلما يكتب ويترك القارئ معلقاً بين الأسطر.

لذلك لم يخبر حسن ما الذي يعنيه صالون ثقافي وحسن بدوره لم يسأل .قرر أن يذهب ويكتشف بنفسه.

37

في نهاية زقاق على تلة عالية .كانت فيلا من دورين محاطة بحديقة بسور من الأشجار الكثيفة .في هذا المكان اصطحبه ستندال إلى عالم لم يتخيل وجوده.

بهو مزدحم بالرجال والنساء :شعراء، فنانون، راقصون، أدباء، رسامون . كل الذين يمتهنون هذه المِهن الجميلة .وبينهم أيضاً نبلاء وسياسيون من الطبقة الأرستقراطية..

سعل حسن سعالاً شديداً فقد كانت رائحة الدخان قوية والرؤية تكاد تكون ضبابية.

عرفه ستندال على عدد من الموجودين .ثم لمح صاحبة الصالون محاطة بمجموعة من الضيوف فأخذه ليعرفه عليها أيضاً.

-مدام شانتال صاحبة هذا الصالون الثقافي.

-أقدم إليكِ حسن البربري مرافق زرافة الملك الشهيرة.

صافحها بأصابع مرتجفة .وهو يتساءل :هل هي امرأة أم حورية من حوريات الجنة؟

احتار ما بين لون بشرتها العاجية وعينيها العسليتين وشفتيها الورديتين.

كانت مختلفة عن النساء اللاتي شاهدهن منذ قدومه لهذه البلاد .لم تكن تعقص شعرها كعناقيد عنب مثلهن .ولا ترتدي فستاناً بثنيّات وتجعيدات وقرنولات منتفخة .كانت أكثر بساطة في فستان أسود تزينه الخيوط الفضية .ويفوح منها مزيج من عطر الخزامي وزهرة الفانيليا.

بظهر السكين .صفق ستندال على كأس النبيذ، ثلاث مراتٍ.

-انتباه من فضلكم .اليوم يحضر معنا الصالون (حسن البربري) وهو أحد المرافقين للزرافة التي أهداها والي مصر محمد علي باشا إلى ملك فرنسا المعظم شارل العاشر.

تعالت الصيحات ورمقته النظرات.

وخرج صوت جهوري :لا أعرف لماذا يقبل ملك فرنسا حيواناً من والي مصر؟ ألم يجد هذا الرجل شيئاً أرقى وأثمن من ذلك؟

قاطعه معظم الحاضرين واعترضوا على حديثه، فالزرافة ليست حيواناً عادياً، إنها أطول كائن حي على وجه الأرض، كما أنه حيوان فريد لم تشهده أوروبا من قبل.

سأله رجل يدخن الغليون ويجلس واضعاً ساقاً فوق أخرى..

-أخبرنا إذن مسيو حسن .لماذا ترتدي هذه الملابس؟ هل هي طقس من طقوس تقديم الهدايا في الشرق؟

أجابهم بثقة:

-أرتدي هذه الملابس لأني كنت جندياً سابقاً في فرقة الإنكشارية بالجيش العثماني.

هز الرجل رأسه بإعجابٍ.

بخطوات رشيقة كفراشة توجهت إليه مدام شانتال، وأمسكته من ذراعه واصطحبته ليجلس بجوارها على الأريكة.

-إذن مسيو حسن، هل يمكنك أن تحكي لنا عن بطولاتك مع الإنكشارية؟

لم يكن صوتاً؛ كان لحن موسيقي.

صوتها وعبيرها اللذان لفاها فتحا شهيته على الحكي ونغّم صوته بنبرة قوية عن المعتاد وهو يقول..

-كانت هذه الفرقة مؤسسة على الاستفادة من أسْرَى الحرب من غير المسلمين بموجب قانون عُرفَ (بنجيك قانوني)، أي قانون الخمس الذي ينص أن تحصل الدولة على خمس أسْرَى الحرب مقابل دفع الضريبة المستحقة عليهم والاستفادة منهم بعد تعاليمهم مبادئ الدين الإسلامي والتقاليد العثمانية .ووجدت السلطة في هذا النظام ميزة كبرى فالشبان الذين كانوا يُجنّدون في هذا النظام يفقدون بمقتضى تربيتهم واعتناقهم الإسلام روابطهم الأصلية .ولم يكن بوسعهم اكتساب روابط جديدة، فلم يكن يؤذن لهم بالزواج ما داموا جنوداً، وبذلك تنمو داخل هذا النظام روح الجماعة المهنية إلى جانب الخضوع والولاء التام لعرش السلطان.

كنا نتعرض لمعاملة سيئة وتوكل إلينا أشغال جسدية شاقة، بالإضافة للتوتر العصبي الذي كنا نعاني منه، وذلك بسبب بعدنا عن أهلنا وعن بيئتنا واضطرارنا لاستيعاب البيئة الجديدة .كل هذه العوامل كانت تؤثر في حالتنا الصحية والنفسية فكان البقاء منا للأقوى .كان الكثيرون من الجنود يرمون بأنفسهم في اتجاه الموت أو يصنعون لأنفسهم عاهة مستديمة للتخلص من الانضمام لهذه الفرقة.

أخذ يحكي لهم عن كل ما لاقاه هناك طوال فترة خدمته، من حين لآخر يتناهى لسمعه (مسكين - ظلم - عبيد).

بعد أن أنهى كلامه علّق شاتوبريان الكاتب الفرنسي الشهير:

-هذا هو الظلم بعينه .هذه الشعوب ظلت تُحكم بالجَلْد والسوط، تحكم بقانون الغاب .لقد كوَّنا جماعة تناهض انتهاكات محمد علي والسلطان العثماني في حرب المروة ضد اليونانيين، وأطلقنا عليها (الجمعية الخيرية لصالح اليونانيين)، وسوف نرغم الملك على اتخاذ موقف حاسم ضد هذه الانتهاكات فوراً.

رد أحد الموجودين بنبرة حازمة:

-نعم، لا بُدّ من ذلك .والي مصر يعتقد أن الحكومة الفرنسية حكومة ساذجة .ستصمت عن ارتكاباته في اليونان بحيوان طويل العنق.

اشتعلت المناقشة وتعالت الأصوات، الكل يرفض هذه المجازر الوحشية .يرفض العنف والظلم والعبودية .شعرت شانتال أن الجو توتر فقامت بخطوات رشيقة إلى البيانو وعزفت .فأرغمتهم على الصمت.

انبهر حسن بعزفها، كانت الألحان تنساب بنعومة وصفاء .هي نفسها كانت مفتاحاً موسيقياً.

بعد أن أنهت معزوفتها ظل يصفق لها حتى التهبت كفّاه.

جلس بجانبه شاب في بداية الثلاثينيات، طويل ونحيف بوهيمي المظهر.

-أتعلم أيها الشرقي المختال بنفسه، لقد أوحيت لي بقصيدة عن قصة حياتك وكفاحك والظلم الذي تعرضت له، سوف أنظمها وأنشرها في أكبر جرائد باريس.

قلب حسن الجملة في رأسه (أوحيت لي بقصيدة) فأخذ يبرم طرفي شاربه ويهز رأسه بالرضا.

شغل الجانب الآخر من الأريكة شابٌ وسيمٌ بشعر أشقر منسدل فوق جبينه.

صافح حسن قائلاً :فكتور هوغو، أنا روائي ومفتون بالشرق .وجدتُ في قصتك أرضاً خصبة لكتابة رواية وستكون أنت بطلها .ولكني في حاجة منك لتمدني بمعلومات أكثر، أنا على وشك الانتهاء من رواية بعنوان (أحدب نوتردام) وبعدها سأبدأ بالكتابة عنك.

ردد حسن خلفه مستغربا من عنوان الرواية..

-نوتردام.

-نعم كنيسة نوتردام ألم تَزُرْها؟

-في الواقع لا .لم أَزُرْ كنائس لأني مسلم.

-وما العيب في ذلك؟

-ليس عيباً ولكنه حرام.

-حسناً، وما الحرام في ذلك؟

-لا أعلم، ولكن هكذا أخبرونا.

-مَن هم الذين أخبروك؟

-الشيوخ والفقهاء.

-ولماذا الشيوخ والفقهاء يخبرونك؟ أوَليس لك عقل تفكر به؟

-نعم.

-إذن بإمكانك أن تستعمله.

حضرت شانتال يسبقها عطرها..

-فكتور، أرجوك لا تثقل عليه بأفكارك، هو منسجم مع نفسه هكذا.

-من الواضح أنه اعتاد أن يكون طوعاً للآخرين.

ضحكت في غنج.

-ابتعد أنت وأفكارك المحرضة عنه.

ثم نظرت في عيني حسن مباشرة وأخذت تحدّق إليه بنهم .فأصابه الدوار.

-غريب أنت حقًّا، نظرتك مزيج من جرأة فارس مغوار، وطفل صغير خجول.

دارت الكاسات .سحبت شانتال كأسين من النبيذ الأحمر، قدمت له واحدة ولكنه رفض.

-لماذا؟

-لا أشرب الخمر.

قالها وهو يبعد الكأس عنه .فانسكبت عدة نقاط على فستانها فشعر بالإحراج.

اقترب فكتور هوغو الذي كان يتابع ما يجري وقال بخبث:

-ابتعدي عنه أرجوكِ .أنت وأفكارك المحرضة.

أخذ حسن يعتذر لها بجميع كلمات الاعتذار التي تعلمها منذ صغره وبكل اللغات التي يتقنها (العثمانية والعربية والفرنسية).

قالت في ضيق

-كفاك اعتذارات عزيزي .لا داعي لكل هذا، لم يحدث شيء .شكراً للرب، فستاني أسود ولن يتأثر بالبقع الحمراء.

تنفس حسن الصعداء عندما ابتسمت .وتأكد وقتها فقط أنها ليست غاضبة منه .قامت لتستقبل عدداً من الضيوف.

وشغل مكانها رسام أخبره أنه يريد أن يخلده في لوحة يجسد فيها الرجل الشرقي وستظل مثالاً للفن الاستشراقي .ومن الجانب الآخر أحاطه ممثل مسرحي وسأله وهو يشير للعمامة التي فوق رأسه :كيف تقوم بلف هذه العمامة بهذا الشكل الظريف فوق رأسك، في الواقع فكرت أن أرتديها لأمثل بها دور رجل شرقي على المسرح.

وهكذا قضى حسن زيارته الأولى في صالون شانتال ما بين الفضول والإعجاب.

وقبل ذهابه اقترب منه شاتوبريان.

-مسيو حسن، غداً في الخامسة عصراً تفتتح الجمعية معرضها، . ويشترك في هذا المعرض كوكبة من أشهر فناني فرنسا التشكيليين (فرنييه، جيران، دولاكروا) وسيكون عائد اللوحات لصالح متضرري الحرب اليونانية.

نظر حوله.

-للأسف لا يوجد أحد منهم الليلة، ولكن غداً افتتاح المعرض وبالتأكيد أنهم سيحضرون وسأعرفك إليهم.

لاحظ ستندال الذي كان يشهد لقاءهم ارتباك حسن.

-هذه فرصة لا تُعوَض يا حسن، ستتعرف إلى أجمل أعمال الفن التشكيلي .سنلتقي في المقهى ونذهب معاً.

في هذه الليلة .هذه اللية بالذات، شعر حسن بوجوده، شعر أنه كيان، شعر بذاته وتفرده واستقلاليته.

لقد منحه هذا اللقاء ثقة كان يحتاجها ولم يكن في إمكان لقاءات العمر كله أن تمنحها له .الأمر ليس فقط في انبهار مثقفي فرنسا بشخصيته وبشرقيته، ولكن في أفكارهم ضد الظلم وضد العبودية .أفكارهم التي تطالب بالمساواة وبالعدل والحرية والتحرر .نعم هذه الأفكار المختلفة وهذه الشعارات والكلمات المؤثرة، لم يسمع عنها سابقاً.

لم يلفظها أحد في البلاد التي عاش فيها طوعاً للآخرين، يلبـي أوامرهم ويحيا وفق أهوائهم .لم تكن هذه الكلمات مدرجة في قاموسهم.

الآن فقط شعر أنه حر .من حقه أن يوافق، من حقه أن يرفض .منذ أن أُخِذَ من أهله وهو صغير وأُخِذَ منه كيانه وسُرِقَت ذاته .شكلوه كما يريدون .صنعوا منه إنساناً على وفق أمزجتهم .ألغوا عقله وأفكاره وزرعوا أفكارهم ومعتقداتهم، وأقنعوه أن جسده وروحه ليسا

ملكاً له ولكنهما مِلك للجيش العثماني وللإمبراطورية العثمانية.

لاحظ عطير أن رفيق رحلته شارد في أحلامه.

-ما بك منذ أن دخلت الغرفة ولم تنطق؟ ما الذي حدث وأين كنت كل هذا الوقت؟

-كنت في عالم آخر.

تأمله عطير فاتحاً فاه كعادته عندما يندهش .فرمقه حسن بنظرات حادة.

-وعليك أنت أيضاً أن تخرج لتشاهده.

-يكفيني هذا العالم الذي يأتي إلى هنا ليشاهدني .أتعجب من أمر هؤلاء الناس، ألهذا الحد يشغل حيوان تفكيرهم !؟ أحياناً لا أستطيع أن أتمالك نفسي من الضحك، وهم ينظرون إليه بعيون تملؤها الدهشة والحب، وأتذكر عندما كنت أنا وأصدقائي نركض خلفه في الغابة ونلقيه بالحصى .على أي حالٍ أنا واثق أنها مسألة وقت وبعدها لن يلقوا له بالاً، لذلك علي أن أستغل هذا الوقت.

كلام عطير جعله يتساءل .هل حقًّا هي مسألة وقت وبعدها سيعتادون وجوده .لن يثيرهم، لن يدهشهم، لن يلفت نظرهم!؟

لا، هو لن يجعل شعلة اندهاشهم به تنطفئ وسوف يحاول بكل الطرق أن يجعلها متوهجة به دائماً.

بات حسن ليلته برفقة شذا عطر شانتال .داعبت أحلامه برقة ونعومة .كانت المرة الأولى التي يشتهي فيها امرأة بمثل هذا القدر من الرغبة.

كانت تضج بأنوثة وافرة أيقظت عنفوان رجولته الخامدة منذ زمن بعيد .فأهم تعاليم الإنكشارية التي تربى عليها ضبط النفس وكتم الرغبات وإطفاء لهيب الشهوات، ولكن قد آن الأوان لها كي تنفجر.

38

باريس - شتاء 2015

في العاشرة صباحاً كان يقف أمام البوابة الحديدية لحديقة النباتات .نُقِشَ بحروفٍ ذهبية على قاعدة سوداء رخامية (تأسست الحديقة عام 1626في عهد لويس الثالث عشر).

كان الطقس شديد البرودة، الرياح تصفر بين الأشجار والأغصان تهتز بقوة شديدة.

رجع بالزمن إلى الوراء وتخيل موكب قدوم الزرافة وهي تتبختر في معطفها الملكي وحسن وعطير يسيران بملابسهما الغريبة وراءها، وعدد كبير من الفرنسيين تجمهر لرؤيتها .تماهى مع أحداث الماضي واختلط في ذهنه الماضي بالحاضر، ولم يكن ذلك محض صدفة فكان يسير على آثار خطى حسن وعطير .لقد كانا هنا بالفعل في هذا المكان.

تريض قليلاً في الحديقة وتناهى إليه من بين صياح الطاووس وزمجرات النمر، وحفيف أشجار الدلب صدى أصوات بعيدة .منذ أن وطئت قدمه الحديقة شعر بمشاعر غريبة .الرجفة التي شعر بها في أوصاله لم تكن بسبب برودة الجو، كان هناك شيء مختلفٌ في ذلك المكان .يقال إن الأماكن تحتفظ بأثر عن الأشخاص الذين أقاموا فيها..

ذهب إلى مبنى الإدارة، وطلب مقابلة مدير الأرشيف .عرفه بنفسه وأخبره بأمر بحثه عن الزرافة الدبلوماسية .وكعادته أضاف إلى قصته ما يُطلق عليه البهار الحار ليضيف إليها مذاقاً خاصًّا جعل عيني الرجل تبرقان من الدهشة فأخذ يحك ذقنه وهو يقول:

-إنه تاريخ قديم ..تاريخ قديم ولكن ربما نصل إلى شيء.

رفع سماعة الهاتف وطلب أحد الموظفين.

-هذا الرجل من أكثر الموظفين خبرة في أرشيف الحديقة وأعتقد أنه الشخص المناسب لمساعدتك.

على غير المتوقع كان أكثر الموظفين خبرة شاباً في نهاية العشرينيات أو بداية الثلاثينيات على الأرجح .استقبله بابتسامة وذهب به إلى غرفة حفظ المستندات.

كان يعتقد أن غرفة حفظ المستندات وخاصة تلك الموغلة في القِدم ستحتوي على رفوف كثيرة بدفاتر كبيرة؛ ولكن كل شيء كان محفوظاً على أجهزة الكمبيوتر .لذلك لم يأخذ الأمر من الموظف سوى دقائق معدودة.

كان يراقب ملامح الموظف في أثناء بحثه لعله يستشف منها شيئاً ما .ولكن ملامحه كانت أشد برودة من طقس اليوم، حتى عندما نطق (عثرنا عليهما) كانت نبرة صوته هادئة كمَن عثر على ربطة العنق التي يريد ارتداءها من بين ربطات كثيرة في خزانة ثيابه.

-لقد دخلا حسن وعطير إلى الحديقة برفقة الزرافة التي أهداها حاكم مصر محمد علي باشا للملك شارل العاشر وعُيّنا كحارسين لها بتاريخ (21-5-1827)، غادر أحدهما - ويُدْعَى (عطير) - الحديقة بعد نفوق الزرافة عام (1845) .

-حسناً، والحارس الآخر؟

-الحارس الآخر الذي يُدْعى)حسن البربري(، هناك مستند يفيد بأن زميله عطير قد أبلغ مدير شؤون العاملين بالحديقة عن اختفائه .خرج في يوم (15-1-1828)، ومنذ ذلك الحين لم يَعُد ولم يُشاهد مجدداً في الحديقة.

ثم رفع نظره من الجهاز وابتسم له بما يفيد :ها قد حصلت على ما تريده.

-هل هذه كل المعلومات؟

بحث مرة أخرى ثم أجابه:

-توجد إفادة أدلى بها في أثناء التحقيقات التي أُجرِيَت معه .إنه يعتقد أن زميله حسن البربري قد عاد إلى مصر، لأنه كان يستعد للسفر إليها في غضون أيام قليلة وهذا كل شيء.

صافحه جهاد وشكره.

-عفواً ..أتمنى أن أكون قد أفدتك.

ظلت كلمات الشاب تتردد على أذنه (أتمنى أن أكون قد أفدتك) هو لم يفدْه بشيءٍ؛ بل لقد زاد الأمر تعقيداً.

شعر جهاد بأنه في حاجة لفنجان من القهوة؛ فعرج على أول مقهى قابله في طريقه بعد خروجه من الحديقة .كان المكان في الداخل دافئاً مكتظّاً وصاخباً، وهذا ما كان يريده.

حاول أن يجمع ما توصل إليه من معلومات ويربط بينها لعله يصل إلى شيء فوجد: وجه معلّق في أهم متاحف العالم، لقب لا يَمُتّ له بصلة، ثياب لا ترمز لهوية معينة، وثيقة اختفاء.

مجرد حفنة من معلومات مفكّكة لا يستطيع منها أن يصل إلى شيء.

39

كانت الأمطار تهطل بغزارة على باريس في ذلك الخميس من نهاية السنة، وكانا يتمشيان في الشوارع بعشوائية تتحدث عن ستندال وفلوبير والسمفونية رقم 6 المفضلة لديها.

وحكى لها عن زيارته لحديقة النباتات واختفاء حسن المريب.

-لماذا تراه مريباً، ربما كما قال زميله عاد إلى الوطن.

-ولكن العودة إلى الوطن يجب أن يُخطَّط لها. هو لن يذهب إلى المطار ليستقل طائرة لتذهب به إلى مصر! هو سوف يسافر إلى مرسيليا، وهناك ينتظر سفينة لتذهب به إلي لإسكندرية. ثم ما الذي يجعله يسافر دُون أمتعته ولا يودع زميله.

-حسناً، أخبرني ما الذي تفكر فيه؟

-ليس هناك فكرة محددة. ولكن أعتقد أنه تعرض لأمرٍ ما.

-من الواضح أن أفكارك تدور حول عقد الخطط والمؤامرات. ثم إن حسن هذا مجرد حارس بسيط. لماذا يمكن لأي أحد في هذه الحياة أن يشغل عقله للتخلص منه؟

ابتسم ..كان كلامها في محله لماذا دائماً يكون ظنه في المؤامرات والخطط الفتاكة!

-لقد أرسلت إيميلات إلى مديري الصحف لأستعلم عن أي مقالات ورد فيها أي شيء متعلق بشخص يُدْعَى حسن البربري، جاء بصحبة زرافة أهداها والي مصر في مستهل القرن التاسع عشر إلى ملك فرنسا.

-أعتقد أنك مخبر سري، متخفٍّ في شخصية أستاذ وباحث في التاريخ.

ابتسم لتعليقها..

-أرسل لي مدير تحرير (جريدة لوفيغارو)، رسالة مفادها أنه حتى في حالة وجود أي أرشفة وقتها وهذا من الصعب تخيله، من المؤكد أن التلف أصابها إثر الحروب التي تعرضت لها فرنسا.

-نعم، كلامه صحيح. لقد دُمِّرَت باريس تدميراً كاملاً في عدة حروب. لقد تعرضت لقصف قوي في الحرب البروسية والحرب العالمية الأولى والثانية.

-ولكني على يقين بوجود بعض المعلومات في السجلات، ولا أعرف كيف أَصِل إليها .الأمر يتطلب كثيراً من البحث .سأذهب غداً إلى المكتبة الوطنية الفرنسية، ربما أصل إلى شيء.

طالها الصمت مجدداً .حاول أن يقول شيئاً ولكنه شعر أنها داخل فقاعة غير قابلة للاختراق.

وهي تلتفت اكتشفت بيانو في أحد أركان المكان؛ نهضت وجلست تعزف، كانت أصابعها تكاد تلامس المفاتيح العاجية إلى حد أن الموسيقى بدت كأنها لم تكن تأتي من أي مكان.

عندما انتهت صفق لها الزبائن بإعجاب.

نظرت إلى ساعتها.

-التهمنا الوقت، لقد تعدت السابعة .زوجي ينتظرني ونحن مدعوان إلى العشاء.

وهما في الطريق أشارت إلى كابينة هاتف عمومية.

-بطارية هاتفي نفدت وعليّ أن أحدثه.

انتظرها في الخارج .أخذ يراقبها من خلف زجاج الكابينة .كان مصباح السقف ينعكس على وجهها .فجأة شعر أنهما بعيدان جدًّا .المطر يهطل بغزارة وكانت تختفي خلف الزجاج.

ترى ماذا تخبره الآن؟ أنها برفقة إحدى صديقاتها ..تعمل على بحث في مكتبة الجامعة ..تشتري هدايا الكريسماس ..أي كذبة أوهمته بها!؟

تبدلت ملامحها فجأة .هالة الكذب غلّفتها ..قبّحتها .لم تعد عازفة البيانو اللطيفة التي سوف يحتفظون بذكراها في المطعم الفرنسي.

ودّعته واختفت تحت مظلتها السوداء .ظل يراقبها حتى ابتلعتها الدرجات الكهربائية لمحطة مترو الأنفاق .تلاشت وسط زحام، وتلاشى طرق كعبها العالي فوق الأرضية.

لم يَعُد متأكداً من أي شيء .وما إذا كانت حقيقة أم خيال!

40

باريس - صيف 1827

ذهب حسن إلى المقهى الذي اعتاد مثقفو فرنسا الجلوس فيه والكائن في حي مونمارتر .وجد هوغو يجلس بصحبة شخصٍ عرّفه إليه بأنه الكاتب)ألكسندر دوما .(شاب في الثلاثينات من عمره يبدو مظهره مختلفاً عن الفرنسيين، لم يكن يشبههم .شعره مُجعد، وبشرته مائلة للسُمرة، نظر مطولاً إلى حسن.

-يا الله، انظر يا فكتور .كنت أبلغك أني أريد زيارة الشرق وها هو الشرق بنفسه قد جاء إلي.

كان لـ (دوما) له طبع خاص، مختلف عن ستندال الغامض، وهوغو الحالم .كان ثرثاراً يشيع في الجو بهجة وحياة .عندما كان يتحدث لم يكن يتحدث بلسانه فقط، كان يتحدث بكامل كيانه؛ يضحك فيهتز جسده كله .يتحمس فينتفض جسده كله، كان كتلة من الحيوية والنشاط .في الوقت الذي كان من المفترض أن يخبره حسن بقصة حياته كان هو من يقص عليه حكايته .أخبره أنه خليط غريب لأب فرنسي نبيل، وأم من الرقيق ذات أصول إفريقية تُدعَى ماري سيسيت .تمت ترقية والده إلى رُتبة جنرال في سن الـ 31 ، وهو أول شخص تنحدر أصوله من أفارقة الأنتيل يصل إلى تلك الرتبة في الجيش الفرنسي .ثم قهقه طويلاً وهو يقول :والآن نحن متشابهان.

لم يفهم حسن ماذا يعني أنهما متشابهان!؟

هما مختلفان تمام الاختلاف؛ ألكسندر كاتب ذو أفكار حرة طليقة، وهو لا يستطيع حتى أن يُعبِّر عن رأيه!

-هيا أخبرني عن الشرق، عن طقسه، عن مدنه، عن نسائه، عن كل شيء فيه؟

-كل ما يعنيكم هو القشرة الخارجية !ماذا تريد أن تعرف؟ الحقيقة أم ما تريد سماعه؟

نظر إليه ألكسندر باندهاش بينما واصل حسن بلهجة مائلة للعصبية..

-حسناً ..الطقس جميل ومشمس والسماء ذهبية، والمدن أسطورية ونساؤه أجمل الجميلات .هذا ما تريد سماعه أليس كذلك!؟

-أريد سماع الحقيقة لا أكثر؟

-الحقيقة أن الطقس مشمس لكنه يبعث على البرد، والمدن التي

تبدو أسطورية هي في الواقع سجون مظلمة، ونساؤه الجميلات قابعات في زنازينه.

أجابه هوغو..

-ما يحدث في بلادكم تحت مسمع ومرأى الجميع هو دليل على غياب العدل في العالم كله.

لقط دوما من هوغو حبل الحديث..

-والمؤكد أن حملة نابليون على مصر وبلاد الشام كانت دليلاً قاطعاً على ارتكابات الغرب الغاشمة في الشرق، أياً كانت دوافعه لهذه الحملة التي أطلق عليها أنها حملة تنويرية لاكتشاف الشرق !ولكنها في الحقيقة هي شكل فاضح من أشكال الاستعمار.

وصل ستندال، صافح الجميع ثم وجه كلامه إلى حسن..

-هيا بنا نحضر المعرض.

غادرا على أن يلحقا بهما هوغو ودوما.

وفي إحدى صالات العرض في وسط باريس وقف حسن ضمن مجموعة من الجمهور مكون من الكُتَّاب والفنانين يتأملون اللوحات المعروضة، كانت لوحات مختلفة رُسِم أغلبها على نهج الركوكو، فقد كان هو السائد في هذا الوقت .أغلب اللوحات كانت لنساء جميلات، مشاهد من الطبيعة، ولوحات الطبيعة الصامتة .عدا لوحتين لدولاكروا جسد فيهما فظائع ما ارتُكب في اليونان .أثارت حسن لوحة أطلق عليها)اليونان تنتهي وسط أنقاض ميسولونغي(، تتوسط اللوحة امرأة جميلة تقف بين حطام وتظهر عليها الدهشة غير مستوعبة ما حدث من دمار لمدينتها، جثة لرجل تظهر من تحت الأنقاض .وفي الخلفية جندي من جنود الإنكشارية يقف فوق جثث الضحايا مشرِّعاً رمحه بعلياء.

فكر أنه كان يمكن أن يكون هو الجندي الذي رسمه (دولاكروا)، الذي يبدو لمن يراه قاسياً ومتوحشاً .وهو في الحقيقة عبد مأمور ليس أكثر .في الكثير من الأحيان لا يعرف هؤلاء الجنود وجهتهم؟ ومن سوف تواجه!؟

وفي لوحته الأخرى (مذبحة في خيوس) رسم مجموعة من أسْرَى الحرب اليونانيين وأغلبهم من النساء ويظهر عليهم الهلع والخوف.

التف عدد من الجمهور حول هاتين اللوحتين اللتين تصوران العنف البشري في أبشع صوره.

اقترب دولاكروا من حسن وأشار إلى اللوحة:

-هذا ما فعله جنود الوالي المصري والسلطان العثماني في أهل

اليونان.

-وربما عليك أيضاً أن ترسم ما فعله نابليون في حملته على مصر والشام .لقد كان دماره يفوق ذلك بكثير.

قهقه دولاكروا..

-حديثك ذلك يذكرني بما قصّه علينا أحد المبعوثين الفرنسيين عندما كان الكلام يوجه لمحمد علي باشا بخصوص لوحة الفنان (فيرنيت) والتي جَسَّد فيها مذبحة المماليك .كان الباشا يرد قائلاً :(كان يمكن للرسام أن يجد نظيراً للوحته، فليصور إبادة مماليك بونابرت في مارسيليا)، ويقصد المماليك الذين اصطحبهم نابليون معه من حملته على مصر واستطاعوا أن يصنعوا أثراً قوياً وفعالاً حتى (عام 1815) حيث حدث ما يسمى بالذعر الأبيض وهي مذابح وحشية وقعت ضد مؤيدي نابليون والمماليك الذين جلبهم معه وتم ذلك بالتواطؤ مع السلطات الفرنسية .وقُتل وقتها الكثير منهم.

-أعتقد أن محمد علي باشا كان على حق في قول ذلك .نعم كان على الفنان أن يصور إبادة مماليك بونابرت.

-عزيزي أنا ضد الظلم في كل مكان.

-لو أنك حقًّا ضد الظلم، كنت قبل أن ترسم هذا الجندي الذي يقف بشموخ على جثث الأبرياء، بحثت عن الظروف التي أوصلته لفعل ذلك !؟ وما إذا كان راضياً عن عمله أم لا؟ وأؤكد لك أنك وقتها كنت سترسم لوحة تمثل الظلم الذي وقع عليه هو.

ضيق دولاكروا حدقتيه كمَن دخل في تفكير عميق .التف حولهم الجمهور يستمعون للنقاش الذي دار بينهما، وبشكل أو بآخر كان يبدو كمواجهة بين الغرب والشرق .يمثل الغرب الفنان دولاكروا الذي يبدو جنتلمان في بذلته ذات المعطف الطويل وصديرية بأزرار ذهبية، وحول عنقه وشاح من الحرير .والشرق في هيئة حسن الذي يرتدي زي المحاربين ويلف عمامة فوق رأسه.

لاحظ هوغو أن المناقشة احتدت فاقترب من حسن وسحبه من ذراعه.

-هيا بنا يا حسن، سنذهب في جولة سياحية.

وطوال الطريق كان يفكر بالجندي في اللوحة، صورته لم تغادر ذهنه، يفكر أنه أُرْغِمَ مثله على فعل ذلك، وأنه مثله تماماً لا يعرف له أهلاً أو عنواناً!

أخرجه صوت هوغو من أفكاره.

-إنها كنيسة نوتردام.

41

بالرغم من أن حسن معتاد على رؤية المباني العملاقة، والقلاع التاريخية، ذات النسق المعماري الخاص، في مصر أو تركيا، لكنه وقف أمام كنيسة نوتردام محدقاً غير مصدق ما يراه.

-يا له من بناءٍ مذهل!

-هذه الكنيسة صُمِمَت على النهج القوطي في العمارة، وهي من المباني الأولى في العالم التي استخدمَت ما يسمى بالدواعم الطائرة .المبنى لم يُصممَ بالأصل ليضم هذه الدواعم الموجودة حول الممر وصحن الكنيسة؛ ولكن تمت إضافتها بعد أن بدأت تظهر شقوق في الجدران الرقيقة الموجودة في أعلاها ولتجنب حدوثها، قام المهندسون المعماريون ببناء الدعائم حول الجدران الخارجية .ولكن ليس هذا هو المهم؛ انتظر حتى ندخل وبإمكانك أن تعلم لماذا هو مكان متفرد.

ما إن مرَّ من الباب العملاق ذي المسامير الحديدية حتى شعر أنه في عالمٍ آخر، تملؤه السكينة والهدوء .كان المكان خالياً إلا من فردين أو ثلاثة مندمجين في صلاتهم وطقوسهم الخاصة.

تطلع حسن إلى السقف، كان مُزيناً بلوحة جدارية تصور رحلة العائلة المقدسة إلى مصر، ويتوسط المذبح تمثال العذراء وهي تحمل في يدها المسيح .على الجانبين عدد لا محدود من الشموع .بلهب خافت يحمل أمنيات من أوقدها ويتمايل بها.

-يمكنك أن توقد شمعة وتتمنى ما تريد.

برقت عين حسن وهو يفكر في أمنيته، هل هي مُهجة أم شانتال!؟

أخرجه هوغو من أفكاره وهو يفتح ذراعيه بامتداد المكان الفسيح..

-في هذا المكان تدور أحداث روايتي، رواية الأحدب قارع الجرس.

-هل هذا الأحدب شخصية حقيقية؟

-يمكنك أن تقول نعم ..ويمكنك أيضاً أن تقول لا!

-أهو لغز!؟

-تعالَ معي.

قطعا الردهة ومشيا في ممرٍ طويلٍ شبه مظلم إلا من قناديل خافتة على الجانبين .في آخر الممر صعدا سلماً حلزونيًّا ضيقاً، ظن حسن أنه من علوه لا ينتهي أبداً .وصلا إلى نهاية البرج حيث شرفة مفتوحة على المدينة بها جرس عملاق نحاسي اللون وبجانبه درج خشبـي.

قال حسن في ذهول:

-ما أجمل مشهد باريس من هذه الشرفة !ولكن ما هذا الجرس العملاق!؟

-الكاتدرائية فيها 10أجراس .أكبرها هذا الجرس الذي يقع في البرج الجنوبـي الذي نحن فيه الآن (إيمانويل) يعود صنعه إلى (عام 1681) . ويزن ما يزيد عن 13طنًّا وهو الرونغ الأول، يتم تشغيله 5ثوانٍ على الأقل قبل بقية الأجراس .والأحدب هو الذي يقوم بهذا العمل دون كلل أو ملل منذ سنوات طويلة.

-يمودو ..يمودو.

من تحت تلال من الأغطية الثقيلة خرج رأس لرجل في منتصف العمر.

-هوغو مرحباً أيها العزيز، لم أتوقع مجيئك في هذا التوقيت؟

-جئنا لزيارتك أنا وصديق من الشرق.

نفض الرجل الأغطية عنه، وقام ليصافح حسن.

تفاجأ حسن من مظهره لم يشاهد عيباً خلقياً ترجف النفس منه بمثل هذا الشكل سابقاً.

-أعرّفك يا حسن إلى هذا الرجل الجميل قلباً وقالباً، ولكن الظروف حكمت عليه أن ينعزل في هذا المكان عن الناس كلها .إنه مثلك تماماً يا حسن ضحية للظلم والنكران والقمع .بوجودكما هنا معاً، يمكننا أن نقول إن في هذه المساحة من العالم يتجلى الظلم البشري بشتى أشكاله.

صافحه حسن وضمه بعطف إليه وأخذ كلٌّ منهما يتطلع إلى الآخر .ثم أخذهم حديث طويل عن الحياة، عن مرها وعن قسوتها، ولم ينتهِ إلا حان موعد رنين الجرس.

صعد الأحدب الدرج وبدأ في قرع الجرس .لم يطقْ حسن قوة الصوت فشعر أنه سيصاب بالصمم، واندهش كيف بإمكانه أن يحتمل قوة هذا الصوت .أجابه على السؤال الذي لم يسأله.

-لقد اعتدت على ذلك.

تأثر حسن بحياة الأحدب وشعر بحزن عميق، ليس من أجل عاهته فقط؛ بل من أجل

ما أخبره به عن نبذ المجتمع له والتنمّر الذي يعاني منه.

لفه الصمت طوال الطريق حتى أنه لم يبادل المارة في الشارع الابتسامات أو التحيات كعادته.

-ما الذي سوف تكتبه عن الأحدب في روايتك؟

-سوف أَهبَهُ قدراً يليق به، سأمنحه ما حرمته منه الحياة .هذه هي مهمة الروائي.

-أعتقد أنه محظوظ لأنه وجد من يهبه ما حُرِم منه حتى ولو على الورق.

-وأنت أيضاً محظوظ يا حسن.

عند مفترق الطرق اقترب حسن ليودعه .فتبطأ هوغو ذراعه وسحبه في الاتجاه الآخر..

-سنذهب إلى الفولي بيرجير.

-أرجوك، يكفيني ما شاهدت وسمعت اليوم ثم ما هذا الفلبرجر؟

ابتسم هوغو..

-اسمه (الفولي بيرجير) وهو مكان جميل.

-وما الذي سوف نفعله هناك؟ هل ستعرفني بصاحب عاهة آخر؟

-انتظر وستعرف.

-دعنا نذهب غداً.

-لا ..عرض (الكان ..كان) يُقدَم اليوم فقط من كل أُسبوع.

-وما هذا الكان كان أيضاً؟

-هل من الممكن أن تكف عن طرح الأسئلة وتنتظر.

أذعن حسن لطلبه ولم يتحدث حتى وصلا إلى الملهى الليلي.

42

كل شيء مختلف داخل صالة الفولي بيرجير، وكأن هذا المكان بمعزل عن العالم .
كل شيء بلون الطيف الأبيض، باستثناء ستارة من القطيفة الحمراء المطرزة بخيوط ذهبية.

اصطحبه هوغو إلى طاولة طويلة جلس عليها معظم من قابلهم في صالون شانتال . وكانت هي نجمة مشعة تتوسط الحاضرين، صافحها وتمنى أن يُقبِّل يدها كما فعل هوغو ولكنه شعر بخجل.

يتوسط المسرح صالة الرقص التي أُضِيئَت بالشموع .ووقف عدد من الراقصات يرقصن رقصة (الكان كان) الشهيرة، يرتدين ملابس مزينة بالكثير من الريش والحُلي والدانتيلا، وتصبغ الحمرة وجوههن ومن الصعب التعرف على ملامحهن.

أشاعت الموسيقى والأجواء المحيطة بحسن، وشراب الأفسنتين القوي الذي أخذ يتناوله كوباً بعد آخر، مزاجاً مختلفاً .قام وشارك شانتال التي كانت تنزلق كبجعة في فستان أبيض من التول رقصة الفالس .أخذا يلفان ويدوران، تنثر شعرها الأحمر الذي تفوح منه رائحة زهور برية فيقع على كتفه .وعيناها الماكرتان تعدانه بأشياء كثيرة.

بعد أن فرغت حلبة الرقص من الجمهور .توسط الحلبة وإسْتَلّ سيفه المعلق على جانبه، ورقص رقصة النصر الخاصة بجنود الإنكشارية؛ يتقدم خطوة للأمام وخطوة للخلف، يدور جهة اليمين ثم جهة الشمال، يدق الأرض دقًّا بكعب حذائه المعقوف، يبرق سيفه وهو يرفعه عالياً .الموسيقى العسكرية تنبع من داخله، ترج أعماقه رجًّا .زملاؤه يشاركونه رقصته؛ يتوحدون في الصفوف، وفي الخطوات والحركات.

إنها رقصة النصر .يؤدونها على وقع صليل السيوف، آهات الجرحى وصيحات الرُعب، دوي الحصون التي تسقط الواحد بعد الآخر، وتحية المدن التي تُفتح الواحدة بعد الأخرى، والقدر ..القدر ..الذي لا يستطيع أحد تبديله.

تعالت التصفيقات وأخذ الجميع يرددون اسمه في نغمة واحدة)بربري ..بربري.(

كانت الساعة تجاوزت منتصف الليل بقليل عندما أزاح حسن البوابة الحديدية لحديقة النباتات .أطارت الجلبة التي أحدثها وهو يترنح من السكر نعاس عطير، الذي رمقه بعين غافية وعين يقظة.

-ها أنت تعاقر الخمر الآن !ما الذي حدث لك يا رجل؟

وبلسان تركي أخذ يرطن، لم يفهمه عطير فوضع الغطاء فوق رأسه وغطّ في نوم عميق.

في هذه الليلة راودت حسن أحلام لمَزْق من طفولته .عائلة تلتف حول مائدة، رجل

يتوسطها بساعد قوي، امرأة بوجه مستدير كقرص القمر، بنتان وثلاثة أولاد بأعمار متقاربة .صدى صوت يأتي من بعيد، صوت ثقيل وكأن أحدهم يتحدث في قارورة من بلور (أندريان ..أندريان).

تداخلت الأصوات .حوافر الخيل، صياح الأطفال، صراخ امرأة، ومن بين الغبار رجال كنسور جارحة يلتقطون الأطفال بمناقيرهم الشرسة.

43

الإسكندرية - صيف 1827

أصبحت أم مهجة مهمومة على ابنتها التي تجاوزت السابعة عشرة بقليل ولم يتقدم لخطبتها أحد، وخاصة أنها تختفي في ملابس شاب وقلما تخرج بصحبتها لزيارة الأقرباء والمعارف، أو حتى للذهاب إلى الحمام الشعبي وبذلك تصبح فرصتها منعدمة في أن تراها النسوة اللائي يَنوِين الخطبة لأبنائهن أو أقربائهن .فمَن سيعلم أن المشعلجي عنده ابنة في عمر الزواج؟

وجدت في دعوة جارتها زوجة شيخ تاجر السكر لحفل حنَّاء ابنتها فرصة لا يمكن تفويتها وعقدت العزم أن تبدو مهجة في تلك الليلة كالقمر في ليلته الرابعة عشرة.

استغلت السبعة أيام الفاصلة بينها وبين موعد الاحتفال في الاهتمام بابنتها التي جف عودها ويبس، فكانت يومياً تُطعمها مرقة لحم الضأن وأرز اللبن المُحلى بالسكر والزبيب، وبين الغداء والعشاء كانت تهرع خلفها بصحن الحلبة الممزوجة بالعسل الأسود والسمن وتجبرها على أكله، ضاربة عرض الحائط بأن طعمه يسبب لها الغثيان.

نصحها العطار بتناول صحن منه ثلاث مراتٍ في اليوم، وخلال أسبوع سوف يزيد وزن ابنتها عشرة كيلوغرامات من الدهن .حرصت المرأة على تنفيذ نصائح العطار بحذافيرها فقد كانت تثق به، فتركيبة الأعشاب التي صنعها لزوجها وأوصى أن يشرب نقيعها بعد غليه على الريق يومياً لينقص وزنه ظهرت نتائجها، كرشه السمين بدأ في الاختفاء وملابسه أصبحت فضفاضة عليه.

وفي صباح يوم الحفل أخذتا تشقان وسط الحشود طريقهما إلى الحمام، تتفاديان الحمير المتجهة إلى السوق وتنوء بالبضائع، وترتطمان بنساءٍ محجباتٍ مسرعاتٍ، وتتحاشيان كلاباً ضالّة.

كانت تصلهما بين الحين والآخر أصوات أطفال من الكُتَّاب وهم يرددون خلف الشيخ آياتٍ من القرآن الكريم، وقهقهات زبائن المقهى الذين يلتفون حول الراوي ويستمعون لحكاياته الساخرة.

وبينما هما مسرعتان كانت أمها ترمي ربع بيرا في طاسة متسول موضوعة أمامه وتطلب منه أن يجزل الدعاء بفك عقدة ابنتها.

وأخيراً دخلتا الحمام واختفتا وسط سُحب من بخار الماء الحار المعطرة بروائح زكية.

وبخت أم مهجة البلانة لأنها لا تفرك بحماس وأزاحتها عن جسد ابنتها، ودعكتها

هي بكل ما أوتيت من قوة بورق العناب المجفف، ودهنتها بمرهم دم الغزال فبدت بشرتها وردية .ولم تنسَ أن تفرك لها أسنانها بالصدف .وقبل المغرب بقليل ارتدت فستاناً من المخمل الأرجواني، وجوارب من الحرير المطرز، وغطت شعرها بقماش من الساتان المذهب حاكتهم لها بحرفية خياطة يهودية.

عندما تطلعت في المرآة لم تصدق أنها هي من شدة جمالها .تمنت لو يراها حسن الآن وهي وافرة الجمال والأنوثة.

ابتسمت الأم وسعدت بنجاحها في تحقيق مأربها، فقد بدت مُهجة في قمر ليلة تمامه . حتى أنها عندما دخلت الحفل لفتت إليها أنظار النسوة، اللواتي جلسن في الفناء الداخلي للدار وتساءلن من تكون؟

اعتقدن أنها بنت أحد الأشراف أو كبير من الأعيان، وربما كان أبوها شيخاً من شيوخ التجار .ولم يصدقن عندما علمن أن الفتاة الجميلة التي ترتدي المخمل المطرز ويزين جيدها كردان من الذهب المشغول هي بنت مشعلجي.

بدأت طقوس الحفل بأن حملت مُربية الفتاة الحبشية سطلاً كبيراً منقوع فيه عجين الحنَّاء، وأوقدت الشموع والبخور وأخذت تنقش كفّي العروس وكعبيها، وعندما انتهت من النقش للعروس، تدافعت المدعوات عليها.

بعدها نثرت أم العروس الملح وطاف الخدم بصواني النحاس وعليها أقراص اللوز والعجوة وأطباق من الكسكس المرشوش بالسكر واللوز .وقدمت فرقة الغوازي رقصتها؛ كل غازية منهن تحمل فوق رأسها شمعداناً من النحاس يحمل سبع شمعاتٍ موقدة وتهتز به على أنغام الموسيقى.

انتهى الحفل ولكن لم ينتهِ الحديث عنها .ففي الأيام التي تلته لم يكن هناك حديث بين النسوة والمحظيات والخصيان إلا عن جمال ابنة المشعلجي.

وعندما انهال على ابنتها الخُطَّاب، أوفت المرأة بنذرها؛ حشت ارغفة العيش بالأرز واللحم ووضعتهم في سلة من الخوص وحملتها على عربة كارو وطلبت من العربجي أن يذهب بها إلى ضريح السيدة نفيسة.

بعد أن وزعت الخبز على الفقراء والمتسولين .تركت نذراً وهي تلمس بيدها على سور الضريح النحاسي، المعطر بالمسك والعنبر، في حال خُطِبَت ابنتها لابن كبير من الأعيان أو ابن شيخ من شيوخ التجار؛ سوف تذبح شاة سمينة وتقوم بطهو لحمها وتوزعه على المسكين والمحتاج.

ومنذ ذلك اليوم أصبحت مهجة في ورطة لم تستطع التخلص منها، فمَن تقدموا لخُطبتها جميعهم شباب من عُليّة القوم يصعب أن ترفضهم .وحجتها في أنها مشغولة بمساعدة أبيها في عمله لن يؤخذ بها بعدما خف وزنه وأصبح قادراً على العمل وحده.

لم يكن بإمكانها أن ترفض، ولكنها كانت تستطيع أن تماطل، وتوهم أمها أنها تنتظر

الشخص الأكثر ثراءً لينتشلهم من الفقر وضيق اليد اللذين يعيشان فيهما وربما يذهب بهم للعيش معه في قصر من قصوره محاطين بالخدم والحشم .سلب حديثها لب أمها وزغلل عينيها وجعلها تمد بساط أحلامها إلى ما لا نهاية.

بعدها بأسبوع تقدم لها ابن أكبر صائغ للذهب في وكالة الصائغين، وشعرت المرأة أن ابنتها على حق فكلما انتظرت أكثر، حظيت بفرصة أكبر.

44

باريس - خريف 1827

في هذا الصباح الخريفي، تجمع عدد لا نهائي من البشر أمام قفص الزرافة .عطير كان يباشر التنظيم بينما يقابل حسن كبار الزوار.

حضر رجلان تظهر عليهما علامات الوجاهة .وأخذا يدققان في وبر الزرافة ويتأملانه ويفحصانه، اقترب حسن منهما وسألهما :(هل هناك شيء؟).

صافحه الرجل بكبرياء بأطراف أصابعه..

-أنا (ورث هالتر)صانع النسيج الأول في فرنسا وربما في العالم أيضاً، في الواقع نحن نريد تصميم نسيج يحمل لون الزرافة.

فتح الرجل الذي كان بصحبته حقيبة وأخرج منها رقعاً من أقمشة من تدريجات الأصفر والبني، وأخذ يقارن بينها وبين لون الزرافة .وأخيراً رفع رقعة عالياً (أعتقد أن هذه الدرجة هي الأقرب .نحتاج أن نُبهت مستوى الأصفر ما بين ربع درجة إلى نصف، والبني يحتاج أن يصبح أغمق درجة واحدة وبذلك نكون حصلنا على اللون المطلوب).

السيد ورث الذي كان يعتمر قبعة من وبر الكوخ، ويقوم بمقاربة اللون الأصفر على جسد الزرافة بالألوان التي معه، كان يدعو لونه الجديد (بالأصفر الزرافي).

لم تَمُر ساعة حتى كان سيدان آخران يتفحصان الزرافة، يقرب أحدهما عدسته المكبرة إلى جسدها ويتأمله.

اقترب حسن منهما :حسناً ..هل يمكن أن تخبراني ماذا تفعلان؟

أجابه الرجل بثقة وغرور:

-نعم ..نعم ..أهلاً بك أنا لويس فاتون صانع الجلود، أؤكد أنك سمعت بي فشهرتي تخطت الآفاق وعن قريب سأصبح اكبر صانع للجلود في فرنسا.

-عُذراً ..لم أتشرف بسماع اسمك سابقاً.

-غريب ..على أي حالٍ نحن هنا لنصنع جلداً يطابق لون الزرافة، فقد انهالت علينا الطلبات منذ وصولها .تريد السيدات أن تكون حقائبهن من لون الزرافة، والرجال أيضاً يريدون أحذية من نفس اللون .الشعب الفرنسي يا عزيزي أصابه هوس بالزرافة.

ابتسم حسن وهو يردد ..(هوس الزرافة).

وبعد شهور قليلة أنتجت معظم المصانع الفرنسية منتجاتها على شكل ولون الزرافة. مجموعة متألقة من الزهور وأشجار سرو الليمون والياسمين الهندي، هذا ما ألهم مسيو)شتاور (من رؤية الزرافة ليخترع عطره الجديد)ذات العنق الطويل (، كان عطراً فواحاً يفوح من جميلات باريس خلال نزهاتهن في حديقة لوكسمبورج.

كذلك صنع مسيو فرنسيس مئات المظلات من الورق والحرير على شكل جلد الزرافة .وتفننت مدام جوزفين في خياطة مشدات الصدر النسائية وقمصان النوم الحريرية من لون الزرافة .وابتكر مصففو الشعر قصة شعر على شكل زرافة .والمطاعم تفننت بابتكار أطباق جديدة تحمل اسم الزرافة.

مرت الأيام مسرعة وعلى عكس المتوقع لم يسأم أهل باريس من الزرافة ولا من مُرافقها الشرقي الوسيم، فيوماً بعد آخر كان الهوس يزداد بها وبه.

توطدت علاقته مع رواد صالون مدام شانتال وأصبح ضيفاً أساسيًّا لا غنى عن وجوده .بين الحين والآخر كان طيف مهجة يمر بباله ولم يستطع أن يفهم إن كان نسيها أم تنساها!؟ فجأة شعر أنها أصبحت تنتمي إلى عالم آخر، عالم بعيد ومظلم.

أما عطير فقد انشغل بتحقيق حلمه بالثراء الفاحش .وفي سبيل ذلك ابتكر حيلة ذكية، فقد أخبر مدير الحديقة، والمسؤول عن شؤون الزرافة، أن هناك روحاً شريرة تتلبس هذا النوع من الحيوان، وتصيبه بمرض غريب ولا تدعه إلا وهو جثة هامدة .ولإبعاد هذه الروح الشريرة يجب أن يُذْبَح لها قربان كل عدة أسابيع.

وضع بجانب الزرافة صحناً كبيراً وبجانبه كَتَب لمن أراد التبرع للحيوان، وكان الصحن يمتلئ ويفرغه عطير في جوال وسرعان ما يمتلئ مجدداً .لم يتوقف الأمر بالنسبة لعطير على الأموال، إذ يجد في السطل أحياناً منديلاً حريرياً مطرزاً بالذهب، صليباً مرصعاً بالألماس، خاتماً ذهبياً من مبعوثٍ أجنبي أو سائح زار حديقة النباتات.

ضحك حسن ملء شدقيه عندما قَصّ عليه عطير حيلته.

-سيُحسَب أنك أول إفريقي تخدع الإفرنجة يا رجل، وربما يدخل اسمك التاريخ.

-لطالما خدعونا .عندما تحين الفرصة فلننتهزها.

45

لندن - ربيع - 2017 استديوالبرنامج

-في كتابك تحدثت عن مصطلح يسمى (الزرافمانيا) فهل من الممكن أن تشرحه للجمهور؟

-في الفترة التي قضتها الزرافة في فرنسا صارت محبوبةً جداً، لدرجة أن أحدَ كُتَّاب سيرة الزرافة)وهو أوليفير ليبلو (كتب عما أسماه الهوس بالزرافات (زرافمانيا)، ويصف فيه كيف صارت باريس مهووسة بهذا الكائن الخرافي .فقد وضعت صورتها على كل شيء؛ الأواني الخزفية، والزجاجية، والأقمشة والمنسوجات، والأدوات الشخصية المستخدمة، مثل فرش الشعر والأطباق وثقالات الورق.

وقد تفنن الخبازون في اختراع مكبس لصناعة الكعك والبسكويت على هيئة زرافة، واخترع مُصفِّفو الشعر تصفيفة شعر نسائية أسموها "الزرافة"، بل وسموا وباء الأنفلونزا في أحد الأعوام "أنفلونزا الزرافة"، واستخدم الجواهرجيّة تصميم التميمة المعلقة حول عُنُق الزرافة لصنع قلادة على شكل قلب نالت إعجاب كثير من الفرنسيات، كما أنجز النحاتان أنطوان لويس بايري وفرانسوا بومبون عملين عن تلك الزرافة في باريس، وأطلق على اللون البيج المصفر "أصفر زرافي ."وكان الرسامون وفنانو الطباعة الحجرية يحرصون على رسم الزرافة بمفردها أو برفقة حسن وعطير.

وتزامن مع وجود الزرافة في باريس (أغسطس من عام 1827م) وصول وَفد مكوّن من ستة من الهنود الحُمر (الأمريكيين الأصليين)، من ولاية أريزونا في مهمة دبلوماسية، لطلب العون ومساعدة فرنسا في مشاكل مع حكومتهم .ولاقى هذا الوفد استقبالاً غريباً، فقد أصبحوا فُرجة لسكان باريس ويمكننا أن نقول إنهم نافسوا الزرافة في الجاذبية الشعبية .وعرض أفراد الوفد الهندي أمام الجمهور يُرسخ فكرة أن البشر أيضاً كانوا من بين القائمة التي تُعرَض على الجمهور من باب التسلية، وهذه الفكرة اتخذتها الحكومات الأوروبية الإمبريالية لتجعل من هؤلاء المخلوقات التي تأتي من بلاد بعيدة ورقة رابحة؛ لتقنع شعوبهم على تَقَبُّل فكرة الاستعمار من منظور العلم والعقلانية، ومن مُنطلَق أنهم يفوقونهم ذكاءً وجمالاً وحكمةً، وتحاول أن تُقنعهم أن هؤلاء مجرد مسوخ بشرية لا أكثر . وتُعَد قصة المرأة الإفريقية (سارتجي بارتمان 1790-1815) أكبر دليل على ذلك .إن مقارنة بسيطة بين ما حدث لهذه السيدة الإفريقية وبين ما حدث للزرافة سنجد تشابهاً كبيراً في فصول حياتهما، وربما لقيت الزرافة مصيراً أكثر كرامة من سارتجي المرأة الإفريقية.

نظر دكتور جهاد إلى ساعة يده.

-لو كان هناك وقت لأمكنني أن أحكي قصة هذه السيدة للسادة

الحضور والمشاهدين.

هنا علا تصفيق الجمهور تشجيعاً له على قص حكاية هذه السيدة الإفريقية.

ابتسمت مذيعة البرنامج فقد وضعها في موقف حرج فلم يكن أمامها كثير من الوقت، وبالرغم من ذلك لم تستطع أن تكبح جماح الجمهور، هي نفسها كان يتملكها الفضول لتعرف قصة هذه المرأة الإفريقية.

-حسناً، في الواقع أنا أيضاً يدفعني الفضول لسماع قصة هذه السيدة، ولكن دكتور جهاد يمكنك أن تقص حكايتها باختصار، فما زال أمامنا كثير من الأسئلة والوقت يداهمنا.

-وُلِدَت "سارتجي بارتمان "لإحدى القبائل الإفريقية المعروفة بـ (خوي خوي)، التي يُعتقد أنها كانت أول القبائل التي سكنت جنوب إفريقيا في شرق الكيب في جنوب إفريقيا على ضفاف نهر جامتوس.

ترجمة اسمها الحرفية تعني "سارة الصغيرة"، وهو ما يستخدمه الأفارقة كنوع من التحبّب للشخص ودلالة على القرب منه .عَمَلت سارة بارتمان خادمة لفلاحين هولنديين وهي في العشرين من عمرها، وفي أثناء عملها لفتت مؤخرتها الكبيرة جدًّا نظر جراح بريطاني جاء زائراً، ويُدْعَى "وليم دنلوب "وهذه المؤخرة الكبيرة كانت تشتهر بها نساء قبيلة خوي خوي .وَعدَها هذا الرجل بالشهرة والثراء إذا وافقت على السفر معه إلى بريطانيا، وكانت في نيته أنها ستذهب إلى هناك كموضوع لعلم البحث والتشريح بسبب شكل جسمها الغريب، ولكنه لم يخبرها بذلك.

ذهبت سارة إلى لندن (عام 1810) وهي في الحادية والعشرين من عمرها، وخضعت في البداية لعدة دراسات، ثُم أُجبِرَت للعمل في سيرك (بيكاديللي) تحت إشراف مدرب "الحيوانات "المفترسة، وكان يتم عرضها وهي عارية تماماً، وكان يُسمَح للمشاهدين بلمس مؤخرتها الكبيرة مقابل زيادة في سعر التذكرة، وكانت تُجبَر على القيام بعروض تظهر فيها كحيوانٍ مفترسٍ، إذ إنها تُؤمَر بالجلوس والوقوف، ومِن المفترض أنها ستحصل على نصف الدخل الوارد من العروض التي تقدمها، لكن الحقيقة أنها لم تأخذ منه شيئاً.

بعد أربع سنواتٍ من مكوثها في لندن، تم التعاقد مع سيرك في باريس لتعمل فيه تحت إمرة مدرب للحيوانات المفترسة، وبقيت هناك خمسة عشر شهراً.

والمصادفة أن كلا من البرفيسور سانت هيلاري والبارون كوفييه وهو العالم والطبيب وجراح نابليون الخاص كانا ضمن الوفد الذي استقبل الزرافة عند وصولها إلى باريس، هما من قاما أمام الجمهور في (عام 1815م) بتفحص جسد تلك الأَمَة العارية، بدعوى أنه ظاهرة ونشرا بعد ذلك عدداً من الدراسات التشريحية، كانت بالقطع كاذبة لأنها تفيد أن أجسام الأفارقة مشابهة مع أجسام القرود، وأن الجنس الأوروبي هو الجنس الأرقى.

وكما ألهمت الزرافة بعض المبدعين في الكتابة عنها حدث الشيء نفسه مع المرأة الإفريقية، فتم تأليف مسرحية هزلية في الأوبرا الفرنسية تُدعَى (فينوس المكروهة للنساء

الفرنسيات)، وهي فنتازيا الجنسية.

تُوفيت سارة (عام 1816) بسبب مرض حقيقته غير معروفة .وحتى بعد موتها كان مصيرها هي والزرافة متشابهاً إلى حدٍّ كبيرٍ .لم تمر أربعٍ وعشرون ساعة على وفاتها حتى تم تشريح جثتها بواسطة عالِم التشريح كوفييه، الذي انتزعَ مخها وبعض الأجزاء من جسدها واحتفظ بهما في الفورمالين واحتفظ بالجثة ليصنع لاحقاً من هيكلها العظمي قالباً للجسد وعُرضت في متحف الإنسان في باريس .ولكنها مؤخراً نُقل رفاتها لتدفن في موطنها بعد محادثات دبلوماسية بين البلدين .ومن المؤكد أن ما حدث لهذه المرأة هو تمييز مبني على الجنس والعِرق يتخفّى بستار العلم والمعرفة..

-وبذلك سنجد باختصار إن تلك الزرافة السودانية وسارتجي قد أثارتا، اهتمام العلماء الفرنسيين بهما كغرائب أو فلتات من الطبيعة.

46

باريس - شتاء 2015

في صباح اليوم التالي ذهب إلى المكتبة الوطنية الفرنسية .هذا المكان الضخم، الذي يمتد تاريخه لسبعة قرون من الزمان، يحتوي على أكثر من 14مليون كتابٍ مطبوعٍ، و 250 ألف مخطوطٍ، ونحو 800ألف خريطة ومخطط، ومليوني قطعة موسيقية، وعشراتُ الآلاف من الفيديوهات والصور والوسائط المتعددة.

بحث هناك عن كل ما يخص الإفريقية الجميلة، فلم يجد سوى مقالٍ في أرشيف جريدة باريس اليوم يعود تاريخه لأربعينيات القرن الماضي، عرض فيه الصحفي رأي الكاتب الذي كان يؤمن بالحقوق والحريات (شتوبريان)، وموقفه ضد الملك الفرنسي شارل العاشر ومهاجمته له بسبب قبوله هدية من والي مصر محمد علي باشا .وذلك لمحاولة إرضائه بعد الارتكابات البشعة لجيشه في حرب المروة .وأشار إلى أن الزرافة التي قطعت كل هذه المسافة حتى تصل إلى الملك هي تجسيد للخضوع الإفريقي لأوروبا .وهي مِثَال حي على العبودية والانتهازية.

جاء ذكر حسن وعطير في موضوعات متفرقة بأنهما حارسان إفريقيان يرتديان ملابسَ غريبة .وربما كان ذلك بناءً على رغبة والي مصر الذي أراد أن يثيرا الاهتمام بمظهرهما، كما كانت تثيره مماليك نابليون .وذلك ليس غريباً على رجل يضع من بونابرت مَثَله الأعلى.

وجد بحث لستندال بعنوان الحياة الأدبية في عهد الملك شارل العاشر .ومن المعروف أن ستندال كان يناصر السلطة فتناول الفكرة من حيث أنها نوع من أنواع التقارب بين الشرق والغرب.

وعُثر على نسخة من مسرحية ألكسندر دوما بعنوان "شارل العاشر لدى إقطاعييه الكبار "وهي مسرحية مأساوية من ثلاثة فصول .تحكي عن يعقوب، وهو شاب عربي اصطحبه أحد أسياد الشرق المرموقين إلى فرنسا .ومنح دوما لهذا الشاب العنفوان والرجولة، فجعله يجسد لوحده كامل العنف والحرية اللذين يُقرنان عادة بالشرق، وكان رمزاً للمشاعر الصادقة .وفي نهاية المسرحية، يَفِر يعقوب ويعود على أعقابه إلى الصحراء مرة أخرى.

بحث على الإنترنت فوجد أن المسرحية قد قُدِمَت على مسرح أوديون في باريس (عام 1830) .أي بعد وصول الزرافة إلى فرنسا .تَوَلّد لديه إحساس بأن بطل المسرحية ربما يكون هو حسن؛ فمِن الجائز أنه ألْهَم ألكسندر دوما المعروف عنه ولعه بالشرق فكتب عنه واحدة من أشهر أعماله وأهمها.

وفي اللحظة التي أقنع نفسه فيها أنه لن يعثر على شيء آخر وهمّ بإغلاق الجهاز والمُضيّ .إذا بالشاشة تعرض له صفحة من كتاب (الهدايا الدبلوماسية)، ظُلِّلَت مفردات بحثه فيها باللون الأصفر، الكتاب من تأليف مؤرخ فرنسي اسمه (أوليفير ليبلو) وجاء في هذه الصفحات:

(وحسن البربري حارس الزرافة الدبلوماسية، انخرط في المجتمع الأرستقراطي الباريسي، وكان يتردد على صالون ثقافي شهير، تقيمه سيدة فرنسية أرملة ماركيز تُدْعَى مدام شانتال .وتوطدت علاقة هذا الحارس مع أدباء ومثقفين فرنسا، وكوّن صداقات واسعة مع طبقتها النبيلة) .بحث عن موضوع الكتاب فوجد أنه عن الهدايا التي تلقاها ملوك وأباطرة فرنسا خلال توليهم الحكم .تصفّحه كله لعله يعثر على أي معلومةٍ جاء الكاتب فيها على ذِكر حسن ولكنه لم يجد سوى هذه الفقرة ومنها تأكدت شكوكه، فلم يكن حسن مجرد عبد افريقي جاء بصحبة زرافة كما وصفته السجلات .لقد كان الأمر أكثر من ذلك بكثير.

فهل أراد القدر أن يلقنه درساً ليبين له أن الواقع أشد غموضاً مما يحسب!..؟

خرج من المكان وهو مبتهج بما في حوزته من معلومات .كان يريد أن يحدثها ليحكي لها ما توصل إليه ولكن شيئاً ما منعه فماذا لو كانت برفقة زوجها!

لم تحدثه كثيراً عن حياتها، ولكنها في آخر لقاء أخبرته أن رفقتهما أصبحت تثير ريبة الزوج الغائب ومع ذلك الحاضر جدًّا.

فقد أصبح على غير العادة يسألها عن مشاغل يومها؟ أين ذهبت؟ ماذا فعلت؟ ولم يَعْتَد على ذلك.

سألها جهاد..

-هل حدثتِه عني؟

-نعم، أخبرته عن صداقتنا.

ولكنه كان بلا شك مرتاباً في صداقة أصبحت تُعِيد الحياة مجدداً لزوجته .أحس يومها بألم أن يكون زوجاً مخدوعاً، ولكنه لم يخدعه .هو لم يفهم مشاعره نحوها .ولم تشِ تصرفاتها معه بشيء.

كان يلتقيان ويثرثران ويأكلان، وأحياناً يضحكان.

47

حدثته وحددت له موعداً في تمام الثامنة، كان المقهى شبه منعدم الإضاءة، وعلى غير العادة كانت تنتظره وهي تشعل سيجارتها وتتأمل رمادها المحترق.

بعد أن صافحها..

-لم أكن أعلم أنك تدخنين؟

-أدخن فقط عندما أكون متوترة.

لم يسألها ما سبب توترها، صمت .ترك لها المساحة لتفصح عنه، عن مداه، عن سببه، ولكنها لم تتحدث.

أخبرها عن كل ما توصل إليه من معلومات .مقال شاتوبريان ومسرحية دوما، وشكه في أن بطلها يعقوب هو حسن البربري نفسه .وإن لم يكن هو فالمؤكد أن حسن مر بقدَر مشابه .في البداية أثارت شرقيته فضول الناس وأصبح بالنسبة إليهم مثالاً حيًّا للشرقي الذي كانوا يرونه في اللوحات الاستشراقية، ويقرؤون عنه في كتب الرحالة والمستشرقين . وبمرور الوقت خمدت شعلة دهشتهم به.

أما يعقوب وهو بطل المسرحية الذي كان منبهراً بالغرب وأفكاره المتحررة العصرية، اكتشف أن كل ذلك زيف وخداع؛ فالمساواة التي يتشدقون بها لم تمنعهم مِن أنْ يبدلوا أفكارهم عن أنه الشرقي الهمجي .وفي نهاية المسرحية عاد الشاب العربي إلى الصحراء مرة أخرى .ومن الجائز أيضاً أن ذلك كان مصير حسن نفسه.

ثُم أخبرها بكتاب)الهدايا الدبلوماسية (الذي ورد فيه ذكر حسن وحضوره صالون مدام شانتال الثقافي.

-على أي حالٍ سأحاول العثور على مؤلف الكتاب، لأعرف منه من أين حصل على هذه المعلومات؟ وما إذا كان يملك معلومات أخرى عنه؟

كان يتحدث بحماسة ولكن هذه الحماسة لم تُثِرْها .لم يلمع بريق ما في عينيها، بل كانت نظرتها فارغة وهي تتأمل شعلة سيجارتها.

-ربما.

أثاره برودها.

-أوَليس من الغريب أنك لا تبالين اتجاه هذه الأشياء بالرغم من أنك أستاذة في التاريخ!؟

-ولأني أستاذ تاريخ من الخير لي أن أبقى بعيدة عن ما لا يعنيني.

-موقفك يذكرني بالمؤرخ وأستاذ التاريخ الأشهر في الجامعات المصرية)محمود رشدي (رجل محنك، لم يضع نفسه ولو مرة واحدة في موقف ضعيف، أو خاطر بالتدخل في مسألة ليست مأمونة العواقب .ورغم تقلب الأهواء والحكام وثورات وانقلابات شهدها الوطن على مر الزمن، لا أذكر أنه تصادم مع أي طرف .تخيلي عندما يُدوِّن التاريخ شخص من هذا النوع يضع في اعتباره الأول أن لا يغضب أحد عليه، وأن يرضي جميع الأطراف !وللأسف مراجعه أساسية لأي باحث أو دارس.

-أخبرني هل عندما تكتب عن محمد علي تنحِّي جانباً إعجابك به وميولك النفسية تجاهه !أنت تكتب عنه من خلال إحساسك به وتحاول دائماً أن تجد مُبرراً مُشرِّفاً لجميع أفعاله؛ لاضطهاده المصريين، للقسوة في تعامله معهم، لعروبته المزيفة، لإعلاء مصلحته فوق كل شيء.

-ها أنتِ ترددين ما حشت كُتب التاريخ عقولنا به .ما حاولت أن أفعله هو تقديم الوجه الآخر من الحقيقة .يجب أن يكون لكل مؤرخ وجهة نظر مختلفة .التاريخ مجموعة من وجهات نظر ونقاشات حول شخصيات ووقائع مهمة مهما امتلكنا من وثائق، ليس هناك شاهد عليها .لقد اتهموني بعد نشري لكتاب)آخر أيام الباشا (أنني تخليت عن مبادئي وأُخِذتَ أسيراً وفق أهواء الغرب، أتعلمين لماذا؟ لأنهم يؤمنون بمقولة)التاريخ ليس ما حدث ولكن ما نرويه.(

-عذراً ..ولكن هل ما ذكرته في كتابك هو ما حدث؟ لقد أنهيت الكتاب أمس، وأعتقد أنه مبني كله على افتراضات، وليس بإمكاننا أن نوجه التُهم جزافاً لرموز تاريخية ونحن لا نملك سوى افتراض.

-ولذلك سوف نستمر دوماً محنطين داخل الزمن خوفاً من المسّ بالرموز التاريخية، هذا بالإضافة إلى أني لم أوجه التُهم جزافاً!

-واتهامك لإبراهيم باشا بتدبير مؤامرة للتخلص من أبيه ماذا عنها؟

-لم أتهم إبراهيم باشا وحده بل هناك قائمة طويلة، أعداء من الداخل ومن الخارج.

-ولكن إبراهيم باشا هو أول من أشرت إليه بأصبع الاتهام.

-وكنت مستنداً في ذلك إلى وقائع وأقاويل ومحادثات .الأمر لم يكن اعتباطياً كما تظنين.

-ولكنها غير مؤكدة .فمثًلا الفقرة التي ذكرتها من مذكرات نوبار باشا (كان محمد باشا دائماً يبدو بنظافة مميزة تقارب الأناقة، العين يقظة تضج

بالحياة، يجلس منثني الساقين، قابضاً دائماً بيده على سيفه، يا له من تناقض مع إبراهيم الذي يقف مرتدياً سترة بشعة برأسه المنحني ويديه المعقودتين أمام صدره ينتظر أوامر والده، يراقب مرضه متسائلاً ما إذا كان مرضه حقيقيًّا أم مصطنعاً)، ما الذي في هذه الجملة يمكنه أن يثير الشك!؟

-لقد احتدم الخلاف في سنوات الباشا الأخيرة بينه وبين ابنه إبراهيم .بعدما رفض إقراض أبيه المال لدفع رواتب الجيش .وقد أشار العديد من المعاصرين سواء من الأوروبيين أو خدم الباشا إلى وجود توترات حادة بين الأب والابن خصوصاً بعد (عام 1844) وهو الوقت الذي بدأت فيه صحة الوالي تضعف، وإحدى الوثائق تنص :(رغم أنه لم يُصِبْ بتراجع واضح فإن جلاء ذهنه بدأ ينحسر، لم يَعُد يمتلك ذلك الإدراك الجلي للأمور)لو أنك تمعنتِ في هذه العبارة ربما ستتأكدين أن ما حدث لمحمد علي باشا كان وراءه مؤامرة، وهذا تؤكده كلمة (رغم أنه لم يُصِبْ بتراجع واضح !؟) ففي رأيك ما الذي تعنيه هذه العبارة؟

وهناك وثيقة من ضمن الوثائق المرسلة من محمد علي لإبراهيم تؤكد على طمع إبراهيم في الحُكم اتهمه الباشا فيها (تريد أن تسك عُملة باسمك، وتقيم الصلاة في المساجد باسمك، ويدعون لك فوق المنابر ولتعلم أنني لم أصل لِمَا أنا فيه إلا بالتواضع، أدين لاسمي وحده بكل الشرف الذي يتدفق عليّ وسأحتفظ أنا بهذا الاسم واحتفظ أنت باسمك)، ومما يؤكد هذا الاتهام سفر إبراهيم إلى القسطنطينية سراً لينصَّب والياً على مصر بعد أن أعلن وصاية على أبيه.

-ما تصنعه هنا يسمى "التأريخ "وهو تفكيك التاريخ وقراءته في ظل أضواء مختلفة.

-وما العيب في ذلك .التاريخ ليس كُتباً سماوية أُنزلَت ويُحرَم علينا الطعن فيها !من وضع التاريخ بشر والبشر خطاؤون .دعيني أخبرك ما الذي أوصلني إليه تفكيكي للتاريخ !؟ ابتداء من (عام 1844) أخذت الأمور منحنى خطر .ربما يكون محمد علي باشا تعرض لمكيدة دبرها له الابن للتخلص منه والانفراد بالحكم، فلا تنسي أن إبراهيم باشا كان مُصاباً بمرض عضال وكان يعلم أنه قاب قوسين، أو أدنى من الموت، وكان يحلم أن يعتلي عرش مصر قبل موته والمؤكد أنه لن يتسنّى له ذلك إلا بعد موت أبيه.

ومن أجل ذلك أعتقد أنه كان يدس له نوعاً معيناً من الأعشاب في الطعام أو الشراب أدت لإصابته بهلاوس وتخيلات لرؤى وأصوات ليس لها وجود .وبدأ محمد علي بالفعل يشُك في الأمر وارتاب أن ابنه يدبّر مؤامرة للاستيلاء على السلطة .ولكن ذلك الارتياب لم يُؤخَذ مأخذ الجد نظراً للحالة العقلية للباشا، وهذه الواقعة التي حدثت قبل موت الباشا بعام ودُوِّنت في إحدى الوثائق تؤكد شكوكي .فقد صاح في صباح أحد الأيام صيحة عميقة رجَّت أرجاء القصر :(أريد الخائن، آتوني بإبراهيم باشا مُكبلَ الأرجل والأيدي لأجبره على الإذعان)، وبالطبع لم يحاول أحد أن يستفسر لماذا أطلق عليه الخائن؟ ولكن عندما يصف الباشا ابنه

بالخائن فهذا معناه أنه فعل ما لا تُحمد عقباه.

ساءت حالة الباشا العقلية واشتدت عليه الهلاوس وأصبح يتلفظ الكلمات ببطء، وفي جُمَل غير مترابطة .فما الذي فعله ابنه وقتها !؟ أمر بنقله إلى قصر رأس التين ليتخلص منه هناك وعقد مجلس وصاية على العرش بقيادته وبعضوية إبراهيم باشا يكن وسعيد باشا .ولم يكفِه ذلك .بالرغم من أنه بموجب وصايته على العرش فهو الحاكم، ولكنه كان يريد أن يصبح الأمر رسمياً .لم ينتظر الابن الذي أصابه سعار السلطة موت أبيه في شهر أبريل (عام 1848) سافر إلى تركيا متعللاً بإصابته بالكوليرا وبأنه سوف يذهب ليتداوى هناك وذلك ليحصل على التنصيب .ولم تأتِ الرياح بما تشتهي السفن، فقد ساءت حالته الصحية ولم يهنأ بالحكم فقد مات بعد شهور قليلة من توليه السلطة رسمياً.

المفارقة أن محمد علي قال في آخر أيام حياته :(لن يرث ابني سلطتي، سأعيش أكثر منه) ولما علم إبراهيم بهذه الكلمات كان رده :(إن للطبيعة قوانينها التي تتفق مع قوانيني، سأحكُم مصر)، وفي تزامن غريب للأحداث كان الاثنان على حق .لقد حصل الابن على السلطة العُليا ولكن الأب عاش أكثر منه.

-إنها مفارقة غريبة حقًّا.

-لقد ساءني ما آل عليه وضع محمد علي في آخر أيامه، لقد تركوه منبوذاً ووحيداً محاطاً بالخدم الخونة في قصر رأس التين.

لاحظت مدى تأثره.

-لا أصدق !ألهذه الدرجة تتعاطف معه!؟

-أنا لا أتعاطف معه، أنا أحبه .لقد كان بمنزلة الأب والمعلم والرمز.

صمتت لبرهة ثم بصوت أقل نبرة:

-أليس من الغريب أني أواجه صعوبات لأحصل على ساعتين أو ثلاث للقائك، لنتحدث فيها عن المؤامرات والقتل واختفاء حسن وهلاوس الباشا والزرافة الدبلوماسية!

كانت سعادته بأنها تتحايل على الصعوبات للقائه أكبر من أن يشغل باله ويسألها عن هذه الصعوبات.

-آسف لِمَا سببته لكِ من إزعاج.

ابتسمت..

-لا عليك، أنا أتفهم هؤلاء المولعين بالبحث ..على أي حالٍ غداً الكريسماس سوف نقيم حفلاً صغيراً يمكنك أن تنضم إلينا.

-أشكرك .لا أتوقع أنه يمكنني المجيء.

-ولِمَ لا ..اترك الماضي لحاله بعض الوقت واحظَ ببعض المرح، فما الذي يمكنك أن تفعله في ليلة مثل هذه في باريس **!؟** لا تخبرني أنك ستقضيها في أبحاثك التاريخية.

-لم أرتب لشيء.

-على أي حال فكر في الأمر.

صافحته وغادرت وتركته شارداً يفكر في دعوتها.

48

باريس - شتاء 1827

بمرور الوقت اعتاد ضيوف صالون شانتال الثقافي رؤيته هناك، أصبح ضيفاً مميزاً وكلما غاب لأي سبب، افتقدوه .توطدت علاقته بمثقفي باريس وأدبائها ورساميها . وكثيراً ما شوهد يحتسي الشاي برفقة أرستقراطييها ونبلائها.

أقسم أن يجعل شغفهم به لا يكِل ولا يمِل ونجح في ذلك .فقد أخذت حكاياته في صالون شانتال تأخذ شكلاً آخر .تقمص دور الراوي الذي كان يستمع لقصصه المثيرة في المقاهي الشعبية التي اعتاد أن يجلس فيها.

أخذهم في جولات ما بين القاهرة والقسطنطينية وحكى لهم عن الجيوش العثمانية، والقصور السلطانية، والجواري والعبيد والخصيان، حكى لهم عن برج جالاتا، وجزيرة العذراء، والمساجد والقصور .وصف لهم الأهرامات وأبا الهول، وقلعة الباشا وباب زويلة، وضريح السيدة زينب ومشهد الحسين .حكى عن موكب السلطان وزفة العجم، وحفلات الزفاف والطهور ورؤية الهلال، ومراسم تنصيب الوالي الجديد.

وفي هذه الليلة حكى لهم عن المعارك والحروب التي شارك فيها .حكى وفاض واستفاض:

-كنا ننتمي إلى أصول مختلفة ولكن معتقداتنا وأفكارنا كانت واحدة، فالفكرة الرئيسية التي كانوا يحشون دماغنا بها منذ الطفولة أن أجسادنا وأرواحنا فداء للإمبراطورية العثمانية .كانوا يعدوننا بوعود لم يكن يسمح صِغر سننا أن نفكر فيها، فكان علينا تصديقها دُون الحاجة لفهمها، أهمها أن من يقتل عدواً فسَيَبْنِي له الله بيتاً في الجنة وستكون له زوجة من الحور العين . لذلك كان الجنود وهم يتوجهون إلى الحروب كما أنهم في طريقهم لعُرسهم وليسوا قاب قوسين أو أدنى من الموت.

كنا نضحي بكل شيء لأننا لم نكن نملك شيئاً .لا أهل ولا مُدن ولا مال ولا آمال . كانت ذكرياتنا عن حياتنا السابقة محفوظة في صناديق مغلقة مفاتيحها رُميَت بعيداً، لكن في هذه الأوقات عندما نصبح وجهاً لوجه أمام الموت، تنفتح هذه الصناديق وتتحرر أجزاء من طفولتنا مثل حلم راودنا في يوم من الأيام.

وبعد أن اخبرهم بعاهته الروحية .حكى عن عاهته الجسدية .التي منعته من استكمال عمله مع الإنكشارية.

-بعد هذا الحادث الذي تعرضت له، بعثني الصدر الأعظم ضمن مجموعة من الحرس لخدمة والي مصر الجديد محمد علي، الذي تربع على

عرشها رغم أنف السلطان وبإرادة الشعب وحده.

ولأن الباشا كان يشُك في أصابع يده خشيّ من أن يكون الصدر الأعظم بعثنا لنتجسس عليه وننقل أخباره للباب العالي .فقد رفض حتى مقابلتنا بحجة أنه يملك الكثير من الحرس، وأمر بتوزيعنا على القناصل والمبعوثين الأجانب ولسوء حظي وحسنه في ذات الوقت، ذهبت للعمل لدى قُنصل فرنسا مسيو دروفيتي .سوء حظي أن هذا الرجل شخصية متكبرة وانتهازية ولكني بفضله بينكم الآن.

بصوته الغليظ قاطعه مسيو شاتوبريان:

-من فضلك هل تخبرنا عن ممثل فرنسا الانتهازي؟

استوى في مقعده وعدل من عمامته وحمحم إيذاناً بحديث شيق وطويل .كان في ملابسه الشرقية وملامحه العربية، وحكاياته عن القلاع والسلاطين والحريم والمخططات والمؤامرات، كأمير شرقي هارب من كتاب ألف ليلة وليلة، يتوسط الجالسين ويقص عليهم أقاصيصه العجائبية الغريبة .بهرتهم أحاديثه التي هي أقرب للخيال منها للحقيقة .والغريب أن الجالسين الذين يلتفون حوله، لم يكونوا أبداً أشخاصاً عاديين، يمكن للحكايا بسهولة أن تبهرهم ..فكتور هوغو، بلزاك، ستندال، ألكسندر دوما وشاتوبريان .بدون شك كانوا أئمة السرد في فرنسا.

49

دعته شانتال لحضور حفلٍ في دار الأوبرا الفرنسية للاستماع لأشهر عازف للكمان في العالم (نيكولا باكنيني)، الذي اكتسب شهرته الفائقة بسبب عزفه بشكل ساحر .كانت موسيقاه قادرة على أن تذهب بالمستمعين إلى حالة من الإغماء من شدة التأثُّر بها .ومن أجل ذلك تعرض للحبس بعد أن اتهمه رجال الكنيسة بالتعامل مع الأرواح الشريرة.

جلسا في بلكون حجزته لهما ليبقيا بعيداً عن العيون الفضولية.

-أتعلم أنه يعزف بخمس أصابع وليس بأربع كالمعتاد .فهو يستخدم الإبهام أيضاً، وهذا ما يُثير الدهشة!

لم يشأ أن يحبطها ويخبرها أنه لا يفهم أي شيء عن ما حدثته به .هو حتى لا يعرف شكل آلة الكمان ولا نغمتها.

بعد تصفيقٍ حاد فُتِحَت ستارة المسرح عن رجل طويل القامة .تفحصته جيداً بعدستها المكبرة ثم مدتها لحسن ليراه .كان نحيلاً جدًّا، ذا وجه أصفر متطاول، وله أنف طويل، وعيون كما الصقر وشعر متموج حتى الكتفين .يقسم وجهه خطان عميقان على هيئة حرف (اس) الذي يتميز به شكل الكمان .تعجب حسن من الشبه بين ملامح الرجل والآلة التي يعزف عليها.

ما إن وضع العازف أنامله على الأوتار، وكأن قُوَى سحرية غريبة تلبسته .لم يكن يعزف بيده وحدها كان يعزف بجميع حواسه، اندمج مع اللحن للحد أنه أصبح هو لحناً . اختفى وسط الأنغام، تلاشى، أصبح جزءاً منها.

كان يعتقد أن ليس هناك أجمل ولا أعمق من صوت الناي ولكن كانت هذه الآلة نغمة بعد أخرى تولد بداخله شعوراً مؤلماً .هذا الشجن الشجي، جعله يحن، جعله يبكي، جعله ينشج.

تراءت أمامه فصول حياته متقطعة، فوضوية .تخترقها مشاهد قصيرة جدًّا؛ وجوه، طرق، معارك، رؤي تمر أمامه مرور البرق دُون أي رابط بينها..

بدأ يذوب تدريجياً مع الموسيقى ومع نظراتها من شدة انهمارهما عليه، مُحيَ، كما يمحي ماء الأمطار الطلاء الرطب.

بعد انتهائه من العزف صفق له بقوة حتى التهبت كفاه .وصدق وقتها عندما أخبرته أنهم يطلقون عليه (المعجزة - الخارق - فوق الطبيعي).

طوال الطريق لم يتحدثا، كان متخماً بالشجن.

دعته إلى منزلها فوافق دون تردد .خلع عمامته وتمدد بروحه المنهكة فوق الأريكة. لمحها تعبر وكان حفيف قميص نومها الوردي كخفقِ أجنحة يمام غامض وشهي.

شعر بقوة هائلة تتأجج داخله .وفي لحظة تألق انطلق بشراسة وبحنان .وبعينين تلمعان كما النمر في الليل التهمها .كانت رجولته تتمزق ..تتشتت وكلما خمدت تنفجر من جديد .أفرغ فيها كل ما كبته طوال سنوات عمره .أفرغه بقوة وشراسة وبحنان أيضاً.

تحول الفراش إلى أرض معركة، ولجها على صدى قعقعة الفولاذ، وضرب المنجنيق، ونفخ الأبواق ولحن الكمان الشجي الذي كان ينساب بداخله وكانت تئن وتتوسل وتتضرع.

ثمَّة وقت مناسب لكل شيء، للحرب، للحزن، للفرح، للحياة وللموت وكان على هذا الفراش يتقلب بينهما.

هي التي تعودت أن تصطاد بمزاج وتهوى أن ترى الحيوان عندما يُقتَل، هذه المرة هي التي قُتِلَت وتركها جثة هامدة وراءه ومضى.

ومنذ تلك الليلة أصبح أسعد رجلٍ في العالم .يتنزه بغير هُدى في الشوارع والطرقات، تاركاً خطاه لمتاهات الأزقة وهو يدندن بصفيره الخاص صفير سعادته.

لم يَعُد يأبه لشيء في الحياة إلا لها، وجودها، كيانها، جسدها، عقلها وصالونها.

ركض باتجاهها عاجزاً عن نسيان أن هناك عوالِم كثيرة تفصل بينهما، والغريب أنها هي أيضاً تجاوبت نحوه وأصبحت تعامل عدد معجبيها اللامتناهي بلامبالاة.

ودُون شك كانت تلك الأيام ..أيّاماً سعيدة، وكما هو شأن كل الأيام السعيدة، فإنها لا تكون موضع تقدير إلا إذا انتهت ولم تَعُد تتكرر.

50

باريس - شتاء 2015

على غير العادة هذا الصباح كان مشمساً في باريس. حاول أن يستفيد من أشعة الشمس وخرج لتناول إفطاره في أحد مطاعم الشانزليزيه التي ترص طاولاتها على الرصيف.

كان يتابع المارة وهم يذهبون ويجيئون في الشارع المكتظ من حوله، وتساءل ماذا كان شعور حسن وهو يمشي هنا فوق ما يزيد عن القرن والنصف من الزمان بهيئته الغريبة وأفكاره التي تختلف تماما عن هذا المجتمع. وكيف استطاع، وهو حارس زرافة، أن يوطد صلته بالأسماء اللامعة من مثقفي فرنسا!؟

من المؤكد أن الأمر كان أكثر من أنه الشرقي القادم من البلاد البعيدة الدافئة الذي يرتدي ملابس عجيبة ويتحدث لغة غريبة.

رن هاتفه. وجاءه صوتها الخفيض المبحوح قليلاً على الدوام..

-بونجور..

-بونجور زينة.

-بالأمس عندما أخبرتني عن ذلك الصالون الثقافي الذي كان يحضره حسن..

-تقصدين صالون (مدام شانتال).

-نعم، لقد تذكرت أن هناك كتاباً عنوانه (الصالونات الفرنسية في القرن التاسع عشر) من تأليف بروفيسور في التاريخ كان يُدرِّس هنا في الجامعة قبل أن يتقاعد. توجهت صباحاً إلى المكتبة وبحثت عن الكتاب ووجدت نسخة منه. انظر ما الذي جاء فيه..

قاطعها..

-أُفضِّل أن نلتقي.

-لن يكون قبل الثانية ظهراً.. هل ستستطيع الصبر!؟

-نعم.

-إذن في (البافيون روايال) عند الثانية ظهراً.

كانت له طقوس خاصة في طرق بحثه .يحب أن يمنح للحدث أهميته .عندما يتوصل إلى المرجع الذي سيدله على شيء .يصنع لنفسه كوباً من القهوة، ويجلس على شيزلونجه الخاص ويسلم نفسه لاجتياح المقطع البطيء للكونشيرتو الأول من سمفونية الوداع)لجوزيف هايدن(، ويقرأ ببطء وتركيز مرة بعد أخرى .ثم يبدأ في تفكيك المعلومات، يعيد صياغة الجمل بأكثر من شكل، ويحاول فهمهما في أكثر من معنى .يبحث بين الكلمات ويفسر ما بين السطور.

كمفتش مباحث يمسك عدسة مكبرة يبحث في مكان الجريمة .الفرق بينهما أن عدسته كانت في رأسه.

سبقها إلى المكان، كان يجلس في انتظارها وكله شوق، لا يعرف إن كان لها !أم لمدام شانتال تلك المرأة التي تحمل اسماً له جرس موسيقي رنان .وهي تتقدم صوبه فكر أن (زينة) اسمها يعكس الجمال والأَلَق.

مدت له الكتاب .وأشارت إلى احد صفحاته المثنية.

-اقرأها.

قرأه ثم هز رأسه بما يفيد عدم التصديق..

-هذه معلومات خطيرة.

كرر قراءتها مرة أخرى بصوت مرتفع..

(ومن أشهر الصالونات الفرنسية في النصف الأول من القرن، كان صالون مدام شانتال الذي كانت تقيمه في يومين من كل أسبوع .وقد اكتسب هذا الصالون شهرته من الضيوف الذين كانوا يترددون عليه .فكان زواره من أكبر وأهم أدباء ورسامي وشعراء فرنسا "بلزاك - فكتور هوغو - ألكسندر دوما - شاتوبريان - فرنييه - جيران - دولاكروا"، وكان يتردد عليه أيضاً صفوة المجتمع من الطبقة الأرستقراطية . استمر الصالون لمدة ثلاثة أعوام كاملة حتى ربطت علاقة بين صاحبة الصالون وشخص شرقي يُدعَى حسن البربري ومن بعدها توقف الصالون).

-للأسف ليس في الكتاب أي معلوماتٍ أخرى لا عن الصالون ولا عن حسن .حتى مصيرهما معاً لم يأتِ على ذِكره؟

-ربما كان كمصير أي عاشقين .ولكن مِن أين حصل البروفيسور على هذه المعلومات؟

-لكل باحث طرق بحثه ومراجعه الخاصة وهو بجانب أنه بروفيسور في التاريخ .هو مؤرخ في (الميكروتاريخ) وعلى أي حال يمكننا أن نحدثه، ربما يملك معلومات عن هذه العلاقة أو عن حسن لم يضفها لأنه لم يجد أنها ستثري العمل في شيء.

بحثت في المعلومات المدرجة في نهاية الكتاب عن المؤلف..

-لقد وضع عنوان بريده الإلكتروني، سأرسل له رسالة الآن..

وعلى الفور أدخلت عنوان بريده وأرسلت له رسالة.

-في حالة لم يُجِبْ سأطلب رقمه من إدارة الجامعة ونحدثه.

-ولكن ما سبب حماسك المفاجئ لهذه القصة؟

-لقد سربت لي ولعك .وكما أخبرتك ما يثيرني أكثر البحث حول هؤلاء المنسيين داخل أروقة الزمن.

لم تكمل عبارتها حتى استلمت إشعاراً باستلام رسالة على هاتفها؛ ابتسمت ولمعت عيناها ببريق وهي تخبره:

-إنه هو.

-ماذا قال؟

-إنه ينتظرنا في الخامسة في منزله بمبنى رقم 22شارع بيكبوس بالدائرة الثانية عشرة.

-غريب جدًّا!

-وما الغريب في ذلك؟ إنه من العينة المولعة بالبحث مثلك ومن المؤكد أن رسالتي قد أثارت فضوله .إنها الثالثة أمامنا وقت طويل دعنا نخرج لنتريض.

لم تنتظر رده فقامت وارتدت معطفها.

-هيا، لقد سئمت الجلوس في ذلك المكان.

تمشيا حتى وصلا إلى نهاية طريق وتدرجا نزولاً في شارع بونابرت على طول ساحة سان سوليبس حيث سوق الأشياء المستعملة .تجولا بين الممرات وتوقفا بين طاولات، أشار إلى ساعة مكتب يحملها تمثالان..

-انظري إنها جميلة.

-لديّ يقين أن الأشياء تحمل قدر أصحابها لذلك لا أستخدم أبداً أشياء تخص غيري.

توقفت أمام عربة ساندويتشات هوت دوج..

-رائحته شهية ..أنا أتضوّر جوعاً.

-وأنا أيضاً.

طلب من البائع ساندويتشين من الهوت دوج واحد دُون صلصة له، والآخر بالمزيد من صلصة المسترد.

تمشيا وهما يأكلان بنهم .لاحظ أن صلصة المسترد التي أغدق بها البائع على الساندويتش تسربت على جانب فمها، فمسحها بإصبعه وهو يبتسم.

وصلا إلى محطة التاكسي ومن هناك استقلا واحداً.

-ولكن هل لاحظتِ أنه كَتَب رَبَطتها علاقة بشخص يُدعَى حسن البربري وبعدها توقف صالونها؟ وكأن ثمة رابطاً بين علاقتها بحسن وتوقف الصالون.

-نعم لاحظت، وهذا يرجح أنهما تزوجا.

-ولكن حتى لو تزوجا ما الذي سوف يمنعها من إقامة الصالون؟

-لأنه رجل شرقي غيور مثلاً.

-لا أعتقد ذلك لسببين؛ الأول أن شانتال ليست من هذا النوع من النساء التي ترضخ بسهولة، والثاني أنه كما يقولون توطدت علاقته بمثقفي باريس وأصبح صديقاً لهم وبالتأكيد تبنَّى أفكارهم ومعتقداتهم وأصبح عصرياً!

-يمكنك أن تصبر وسوف نعرف كل شيء.

كانت أشعة الشمس الأخيرة تصبغ الطريق مستمهلة المساء عندما كانا في طريقهما إلى البناية.

51

باريس - شتاء 1827

استسلم حسن إلى فرشاة الرسام (كلود دووبوف)، الذي أغراه بأن يرسم له بورتريه ليعرضه في متحف اللوفر .كان يجلس أمامه متسمراً بلا كللٍ ولا مللٍ لمدة ساعتين كل يوم.

وفي إحدى الأمسيات في صالون مدام شانتال انبهر الجميع عندما رفع الفنان الستار عن اللوحة، فقد كانت تجسد الرجل الشرقي بوسامته وعنفوانه.

العنفوان الذي أخبرت مدام شانتال صديقاتها عنه .فانتشرت الهمسات كورق شجر الخرنوب حملته معها رياح الشتاء الباردة في الطرقات، في متاهات الأزقة، في المقاهي وإلى داخل البيوت .الكل يتحدثون عن فحولة الشرقي ذي العمامة البيضاء وكيف أغرت بربريته الأرستقراطية الجميلة، وأوقعها في غرامه، وأصبحا يُشاهدان معاً يجوبان الشوارع ويذهبان إلى المسارح والمطاعم .يرقص معها الفالس على ضوء الشموع وفي آخر الليل يشاركها مخدعها.

كتب ألكسندر دوما المولع بالشرق والرحلات والمغامرات، قصة حسن مع شانتال بصورة نمطية استشراقية عن فحولة الرجل الشرقي، الذي أوقع في هواه امرأة فرنسية أرستقراطية على قدر كبير من الجمال والثقافة .وتركت من أجل عمامته قبعاتِ نبلاء ومثقفي فرنسا .أثارت مقالته ردود فعل واسعة، فقد كتب قصتهما بطريقة مثيرة كقصص ألف ليلة وليلة!

فكتور هوغو المفعم بالرومانسية ويرفع دائماً شعارات لنبذ العنف والقسوة والتفرقة، نشر مقاله في الصفحة الأولى من جريدة لوفيغارو .وتناول فيه حياة حسن منذ أن أُخِذَ من بين أحضان أسرته حتى رحلته إلى الغرب وأنهى مقاله بهذه العبارة المؤثرة : (وأخيراً حط رِحاله في مكان وجد فيه الحب والدفء بين يدي الجميلة شانتال).

أما شاتوبريان فوجد في حسن ورقته الرابحة ضد معركته مع ملك فرنسا .فكتب سلسلة من المقالات في جريدة "باريس اليوم "وهي من أكثر الصحف انتشاراً وكشف فيها انتهازية ولصوصية القُنصل الفرنسي في مصر وأفعاله الشائنة .وكال الاتهامات لوالي مصر ومذابحه في المروة، وكيف أنه اختار مخلوقاً خرافياً هدية لملك فرنسا ليغض هذا الأخير بصره عن أفعاله الإجرامية .وختم هذه السلسة بهذه العبارة في آخر مقالاته (أعتقد أن الوقت قد حان أيها السادة بأن لا تكونوا مجرد مشاهدين أو مشغولين بتفاصيل أخرى).

52

باريس - شتاء 2015

في تمام الخامسة كانت تقرع باب المنزل الذي عُلقت عليه لوحة صغيرة سوداء محفور عليها اسم (جاك دومال) ومن خلف الباب سأل صوت امرأة:

-مَن؟

-دكتور زينة نعمان .جئت لمقابلة بروفيسور جاك.

فتحت الباب سيدة شقراء .ترتدي فستاناً من الحرير الأسود وتطوق عنقها بعقد من اللؤلؤ .كانت أصغر من أن تكون زوجته !ربما هي أخته أو ابنته .رحبت بهما وقادتهما إلى صالون فسيح تطل نافذته على حديقة.

كان الصالون رثًّا وعلى الجدار أثر لوحة أُنتزِعَت من هناك .في أحد الأركان وُضع موقد من الرخام وطاولة بثلاث قوائم .ووزعت مصابيح جدارية كانت تبعث ضوءاً خافتاً.

حياهما البروفيسور الذي حفرت على وجهه أخاديد الزمن فقد كان في العَقد الثامن من العمر تقريباً .يرتدي سترة بأزرار ذهبية وحذاء من جلد الأيل، من الواضح أنه يملكهما منذ شبابه .عرّفته زينة إلى جهاد وحدثته عن رحلته إلى باريس للبحث عن مراجع ووثائق تفيد بحثه.

ابتسم له قائلاً:

-تُذكّرني بشبابي حين كنت مولعاً بالبحث مثلك ..على أي حال في أثناء عملي على كتاب (الصالونات الثقافية الفرنسية في القرن التاسع عشر)، كان عثوري على معلومات حول صالون مدام شانتال من باب المصادفة البحتة .بالرغم من شُهرة صالونها فالمعلومات عنه نادرة جدًّا.

وقع في يدي كتاب بعنوان (فضائح باريسية) كتبه صحفي يُدعَى (جون لوتريك)، هذا الصحفي كان مسؤولاً عن أخبار الفن في جريدة (ليلو ستراسيون)، وبالإضافة لعمله كمراسل حر لعدد من الجرائد من الواضح أنه كان مولعاً بالبحث عن الفضائح.

نشر كتابه (عام 1910)، وذكر فيه العلاقة التي جمعت بين شانتال وحسن البربري، ولكن في الحقيقة لا أستطيع أن أذكر ماذا كتب .كان ما يهمني وقتها البحث عن الصالونات الثقافية وليس عن العلاقات العاطفية لذلك لم ألقِ لها بالاً.

وضعت السيدة صينية عليها ثلاثة فناجين من الشاي .اقترب البروفيسور من الطاولة وتناول بين إبهامه وسبابته قطعة من السكر وأسقطها في كل فنجان .دُون أن يسأل

أيا منهما عن التحلية التي يريدها.

-هل من الممكن أن تعيرني الكتاب؟

-للأسف ليس بحوزتي .مؤكد أنك تعلم أنه من الصعب الحصول على كل المراجع والوثائق البحثية.

ظهر على جهاد الضيق.

سألته زينة بصوتها الخفيض:

-حسنا، أين وجدته؟

هرش الرجل ذقنه وأخذ يتأمل اللاشيء من حوله ثم...

-عذراً لا أتذكر في أي مكتبة عثرت عليه .ولكن يمكنكم أن تذهبا إلى دار النشر، أعتقد أنها كانت دار نشر (سابليي) هي واحدة من أقدم دور النشر، وقد تخصصت في نشر نوعية معينة من الكُتب التي تخص الفضائح والسحر والتنجيم .وهي تقع في الدائرة الرابعة عشرة.

كانوا جالسين تحت الضوء الشاحب المنسكب من المصباح في السقف .من يراهم يعتقد أنهم يحتفلون بذكرى غامضة.

شكرا البروفيسور واستأذنا في الذهاب، سألهما:

-ألا ترغبان فعلاً في تناول العشاء معنا!؟

كان في نبرته بعض الاستجداء كمَن يبحث عن ونس.

أجابته زينة وهي تصافحه:

-ربما في مساءٍ آخر.

ودعها على ناصية الطريق وغادرته على وعد بلقاء.

وفي المساء كان يبحث في دليل الهاتف عن دار نشر سابليي.

53

باريس - خريف 1827

أثار حسن الرأي العام الفرنسي. لم يَعُد مجردَ حارسٍ جاء من بلاد بعيدة دافئة، بصحبة حيوان طويل العنق. بل الأمر أصبح أكثر من ذلك بكثير، وأخذ منحنى أكثر جدية، وأكثر خطورة. مثلت علاقته بشانتال، علاقة الشرق بالغرب ووجد البعض أن استسلام شانتال له وإقامة علاقة جسدية معه؛ هو تفوق الشرق المتمثل في حسن الشرقي البربري الجاهل على الغرب الأرستقراطي المتعلم المتمدن. بالرغم من صعوبة استيعاب الفكرة فهناك نسبة كبيرة من المجتمع الفرنسي كانت تصدقها وتؤمن بها.

الحاقدون، الغيورون من الرجال الذين تركتهم شانتال من أجله، أخذوا يؤججون فتيل المعركة. انهالت المقالات في الصحف تنعتها بالعاهرة، بالفاجرة، وبالمرأة ذات الشهوات التي لا تُخمَد.

عندما ذهب حسن إلى بيتها في ذلك اليوم وجد بابها موصداً. وبعدها ذهب إلى المقهى فأخبره هوغو أن هناك أوامر صدرَت بإغلاق صالونها وسفرها إلى جهة غير معلومة.

غَلَت الدماء في عروق حسن وخبط على الطاولة بعنف بقبضة يده.

-أليس هذا يتنافى مع الديمقراطية والحرية اللتين من المفترض أن يتمتع بهما الغرب؟

ضحك هوغو بسخرية..

-ومَن قال لك أن الغرب يتمتع بديمقراطية أو حرية !؟ إنها مجرد شعارات، أما ما يحدث في الواقع فهو العكس تماماً.

-للأسف، كنت أعتقد أنني أخيراً قد عثرت على عالم مختلف عن الذي جئت منه، عالم ليس فيه طبقية وليس فيه ظلم وليس فيه قسوة.

-عزيزي حسن، أنا حقًّا أتألم من أجلك ومن أجل شانتال أيضاً، ما حدث جعلني أبدل من أحداث روايتي)أحدب نوتردام(؛ سأجعل أحداث الرواية تدور في فترة سابقة من التاريخ حتى لا يتعرض الرجل للأذى، لا أستطيع أن أتحمل ذنب إنسان مسكين يتأذى بسببي.

فكر حسن في كلامه، وفي الأذى الذي لحق بشانتال وكان هو السبب فيه.

-يمكنني أن أتزوجها وأصحح ما حدث.

خرجت الكلمات من فمه بحماسة وعفوية؛ ابتسم هوغو من سذاجته..

-لو تزوجتها فستعقد الأمر أكثر، هم لا يعنيهم إن كانت علاقتكما شرعية أم لا.

-إذن ما الذي يعنيهم؟ لم أَعُد أفهم شيئاً!؟

-ببساطة عندما فتحت لك شانتال ساقيها وسمحت لك أن تعتليها، كأن الشرق ببداوته وهمجيته اعتلى الغرب وفرض سطوته عليه.

نوبة من الحزن العاصف عَبَرته عندما أدرك مدى صعوبة الأمر وخطورة ما تتعرض له شانتال.

اقترب رجل منه وعرف حسن إلى نفسه..

-فرانسو مالتين صحفي بجريدة باريس اليوم .أريد أن أجري حواراً معك مسيو حسن .حواراً طويلاً ومكثفاً توضح فيه كل شيء عن علاقتك بمدام شانتال .وما إذا كانت علاقة جسدية فقط أم كانت عاطفية؟ كيف بدأت وكيف تطورت؟ وأريد منك أيضاً أن تخبرنا بكل شيء عن القنصل الفرنسي في مصر، الذي كنت تعمل عنده وأفعاله الشائنة، وما هي قصة الصناديق التي وُضِعَت في قبو السفينة؟ هل كانت تحمل آثاراً فرعونية فقط أم كنوزاً من نوع آخر؟ ومَن الذي استلم هذه الصناديق عندما رست السفينة في ميناء مارسيليا؟

أجاب هوغو على الصحفي بعصبية:

-أعترض على هذه الأسئلة .كما أن علاقة حسن بمدام شانتال علاقة خاصة لا دخل لأحد فيها.

بنبرة حادة قال شاتوبريان الذي انضم للطاولة:

-ولماذا تعترض؟ أمرك غريب حقًّا !حسن يُعَد شاهداً على ارتكابات القنصل الفرنسي ومن حق الشعب والحكومة أن يعرفا ما يحدث هناك؟

-ولكن بفضح هذه الأسرار من المؤكد أن حسن سوف يتعرض للأذى.

-الأذى الحقيقي هو أن يغلق فمه عن الحقيقة.

-من الأفضل أن ندع الرجل في حاله.

-هل هذا رأيك؟ إذن كم تبدو الشعارات التي ترفعها وتنادي بها ضحلة ورخوة !إلى متى علينا أن ندفن رؤوسنا في الرمال؟ إذا كنا نريد لهذا

المجتمع أن يتغير حقًّا فلا بُدَّ من المواجهة؟

-التغيير الحقيقي مسيو شاتوبريان أن يؤمن هذا المجتمع بالحرية والمساواة دُون النظر إلى دين أو عرق أو لغة!

دارت نظرات حسن بين هوغو وشاتوبريان والصحفي، ولفّته الحيرة، يتحدث أم يصمت؟

ثم أخيراً نطق:

-لطالما عشت غريقاً يبحث عن قشة تنتشله من كهوف الجهل والظلم، وكانت شانتال بالنسبة إليّ هذه القشة، لذلك تشبثت بها بكل قوتي.

بهذه الكلمات القليلة لخص علاقته بشانتال ضارباً بفضول الصحفي والقُرَّاء والفضوليين عرض الحائط .ولكنه استفاض في الحكي عن مسيو دروفيتي وشلته من الفرنسيين المنتفعين.

54

باريس - شتاء 2015

في تمام التاسعة صباحاً كان يقف أمام واجهة زجاجية علق فوقها يافطة بحروف ذهبية شبه ممحية دار نشر سابليي، أُسِسَت عام (1900).

في الداخل كانت القاعة فسيحة فيها مقاعد تشقق جلدها بفعل الزمن، وفيها سجاد رث، وطاولات من خشب الفورميكا .وامتدت على طول الجدار واجهات زجاجية تضم الأعمال التي نشرت .كانت دار نشر عتيقة بكل ما فيها.

حيَّاه الموظف المختص وسأله عن طلبه..

-أبحث عن كتاب بعنوان (فضائح باريسية) يرجع تاريخ نشره (لعام 1910) لكاتب يُدعَى (جون لوتريك).

تفحصه الموظف بارتياب، فما الذي يجعل أحدهم يبحث عن كتاب يضم فضائح مرَّ عليها كل هذا الوقت!؟ أشار له الرجل إلى الدَرَج.

-ستجد غايتك في الطابق الأعلى، الغرفة على اليمين.

تقود السلالم العريضة للدرج الرخامي إلى الطابق الأعلى الذي يضم مكاتب دار النشر .طرق الغرفة التي دله عليها الموظف والتي وُضِعَ على بابها يافطة (أرشيف).

أخبر الموظف بطلبه، وبعد ما يقرب العشرين دقيقة أخبره الموظف وعلى وجهه سيماء الأسف:

-حظك سيئ سيدي، للأسف لا توجد أي نسخة منه.

شكره جهاد .وكان في طريقه للخروج عندما استوقفه الموظف..

-انتظر، هناك نسخة منه.

شعر بالأمل يملؤه من جديد .طلب الموظف من أمين المخزن جلب الكتاب بعد أن أعطاه بياناته ثم طلب له فنجاناً من القهوة .وبعد ما يقارب الساعة كان كتاب فضائح باريسية بين يديه .كانت رائحة وملمس الورق تدلان على مرور أكثر من قرن من الزمن.

-كم سعره؟

-عذراً ..هذه هي النسخة الوحيدة ولا يُسمَح ببيعها، يمكنك أن تقرأها في المكتبة الملحقة بالدار.

شعر بالأسف من أجل ذلك وذهب إلى المكتبة شغل المقطوعة الموسيقية المفضلة لديه على هاتفه ووضع السماعات في أذنه وبدأ في تصفح الكتاب الذي خصصت فصوله لعلاقات وفضائح باريسية شهيرة أثارت ضجة في المجتمع عبر أزمنة مختلفة .أطلق الكاتب على الفصل الذي تحدث فيه عن علاقتهما (قصة الحب الأسطورية بين الأرستقراطية والبربري .(قرأه جهاد مرة وراء أخرى ودَوّن التفاصيل المهمة في مفكرته الخاصة ثم سلم الكتاب للموظف المختص وشكره وذهب.

كانت الرياح شديدة بالخارج ولكنه فضَّل أن يسير لعله يجد تفسيراً لاهتمامه المفرط بأمر هذا الشخص، فمنذ أن رأى صورته لم يستطع أن يتوقف عن التفكير فيه!

الشارب، الوجه، العمامة .كان يهيم في الغموض والمجهول والعدم حتى تصور أنه لن يصل أبداً لأثر يدل عليه، وبالرغم من ذلك لم يدفعه هذا للإحساس بالعجز، استمر في البحث وكان يحلو للقدر أن يتلاعب به، يوهمه أنه يقوده خطوة ..خطوة ولكنها خطوات لم تكن تتقدم به إلى الأمام.

في الواحدة ظهراً تلقى منها اتصال..

-هل ذهبت إلى دار النشر؟

-نعم؟

-هل عثرت على الكتاب؟

-نعم

-جيد، وماذا وجدت؟

-مِن الأفضل أن نلتقي ونتحدث.

-لماذا أشعر بنبرة الإحباط في صوتك؟

لم يُجِبهَا، فقط أخبرها:

-الثانية ظهراً في المكان ذاته.

في الثانية ظهراً وهي تخلع معطفها وتعلقه على ظهر المقعد لاحظت أن نبرة الإحباط ليست في صوته فقط، كان يبدو أنه غارق في بحور من الإحباط واليأس.

-تبدو شارداً، هل حدث شيء؟

-ربما لأنه لم يحدث شيء .فالمعلومات التي في الكتاب لا تقود إلى شيء!

-كيف؟

أخذ نفساً عميقاً تَحسُّباً لحديثٍ قد يطول..

-مدام شانتال لوبال كانت فتاة جميلة من عائلة متوسطة، كانت تحضر إحدى الحفلات عندما شاهدها ماركيز من عائلة نبيلة ووقع في غرامها على الفور، وتقدم للزواج منها .وبالرغم من فرق العمر بينهما لكنها قَبلَت . كانت متطلعة وطموحة ووجدت في الماركيز غايتها لتحقيق أحلامها .كانت هدية الماركيز لها بمناسبة خطبتهما منزلاً بحديقة جميلة في حي مونمارتر ولكنهما لم يسكنا فيه، فقد عاشت معه في شقته على ضفاف نهر السين .لم يَدُم زواجهما أكثر من خمس سنواتٍ وكان الزوج يعاني من مشاكل صحية في القلب تُوفّي بسببها .وخلال الخمس سنوات عرفها إلى المجتمع الأرستقراطي، واصطحبها معه إلى مآدب الغداء والعشاء الملكية، ولحضور حفلات الأوبرا، ومشاهدة المسرحيات، وأيضاً لحضور الصالونات الثقافية الباريسية الشهيرة؛ وفيها تعرفت على مثقفي فرنسا وأعجبها هذا الجو الراقي.

بعد موت زوجها عانت من الوحدة وانتقلت للعيش في المنزل الذي أهداه لها بحي مونمارتر .وفكرت أن تقيم في بيتها صالوناً ثقافيًّا .وقتها كان هناك عدة صالونات ثقافية مهمة وشهيرة كان أشهرها صالون مدام (دي رولان) وهي شاعرة وفنانة تشكيلية.

حضر الصالون الأول عدد قليل جدًّا من الضيوف، فبدأت في دعوة رجال البلاط والحاشية الملكية وكبار أدباء فرنسا، وحاولت أنْ تخلق جواً مختلفاً عن الصالونات الأخرى، بأن تقدم مآدب للعشاء بين الحين والآخر، وتدعو راقصات ومغنيات ليقدمن عروضهن، وهي نفسها كانت تقوم بعزف مقطوعات موسيقية على البيانو .وفي فترة قصيرة أصبح صالون مدام شانتال من أشهر الصالونات في فرنسا وأوروبا .أصبحت زيارته مهمة لكل من يزور فرنسا من أدباء وفناني العالم، وكان حرصهم على زيارته تماماً كحرصهم على زيارة معالم باريس الشهيرة كمتحف اللوفر وبرج إيفيل.

ذاع صيتها في جميع نواحي فرنسا وعشقها الكثير من الرجال .كانت جميلة ووافرة الأنوثة وعصرية، ولكنها كانت حلماً بعيد المنال فلم تُسلِّم قلبها أو جسدها لأحدٍ.

في صيف (عام 1827) زار صالونها لأول مرة شاب شرقي وسيم الملامح يُدعَى (حسن البربري) حضر إلى فرنسا كحارس للزرافة الملكية، التي قدمها والي مصر محمد علي باشا هدية للملك شارل العاشر .وأصبح هذا الشرقي ضيفاً أساسيًّا في الصالون فقد توطدت علاقته بأدباء وفناني صالون شانتال وأصبح صديقاً لهم .أقامت شانتال علاقة مع حارس الزرافة حسن البربري ولم يحاولا إخفاءها بل كانت مكشوفة للجميع.

رفض المجتمع الباريسي بجميع فئاته هذه العلاقة، وتعرضت المرأة لهجوم شديد، من كل المحيطين بها وخاصة من الطبقة المثقفة التي كانت تحضر صالونها .وعلى إثر هذا الهجوم العنيف تركت منزلها في مونمارتر في شتاء (عام 1828) وذهبت للعيش في الجنوب الفرنسي.

أقامت هناك لمدة عامين، ثم عادت مرة أخرى إلى باريس وعاشت في المنزل نفسه

ما يقارب العام، وسط تجاهل تام من الأوساط الأرستقراطية والثقافية، بعدها انتقلت للعيش في مكان آخر غير معلوم ومنذ ذلك الحين اختفت تماماً ولم يُسْمَع عنها.

-أهذا كل شيء!؟

-نعم.

-وحسن؟

-لم يأتِ حتى على ذِكره.

-على أي حال هذه المعلومات تقودنا إلى كثير من الاحتمالات.

-مثل؟

-أن يكونا تزوجا وذهبا بعيداً عن الأنظار للعيش معاً .أو أن يكون حسن رجع إلى الديار .وربما ترك باريس وذهب للعيش في مدينة فرنسية أخرى، مرسيليا مثلاً وسط الجالية المصرية التي كان عددها كبيراً وقتها.

-ومِن الجائز أيضاً أن يكون تعرض للسجن، وخاصة أن تاريخ تركها باريس تزامن مع تاريخ اختفائه الذي أبلغ عنه عطير.

-لماذا هذه الشكوك السوداوية؟

-لأنها أقرب إلى الحقيقة .لقد ذكر الكاتب أن هذه العلاقة تعرضت لهجوم عنيف ورفضها المجتمع .وشانتال سيدة جميلة لديها الكثير من المعجبين من حاشية الملك والبلاط ومن رجال الطبقة الأرستقراطية، وربما أثارت علاقتها بحسن غيرة أحد عشاقها .فكيف لها أن تتركهم من أجل حارس الزرافة؟ ومن المحتمل أن يكون أحدهم دبّر له شيئاً.

-الغريب أن الكاتب ذكر أن المثقفين هم أكثر من كانوا ضد هذه العلاقة، وللأسف فإن جميع من أحاطوا بها كانوا طوقاً من المخمل المهترئ!

-الشرق الذي ابتدعه الخيال الاستشراقي الأدبي رسخ في العقلية الغربية بأنه دائماً وسط متوحش مغرق في البداوة والقذارة .وتولد لديهم تصور نمطي عن شرق أنثوي خاضع بينما الغرب هو الذات الذكورية المهيمنة التي يجب أن تسيطر عليه وتتسيّده ولذلك قلبت علاقة حسن بشانتال الفكرة السائدة بعلاقة الشرق بالغرب، وهي بحسب النظرة الاستشراقية القوي المسيطر والضعيف المغلوب على أمره .وهذه العلاقة كانت تعبيراً مغايراً عن المفهوم الشائع في علاقة القوة النسبية بين الغرب والشرق، لذلك وقفوا ضدها وهاجموها.

رشفت من فنجانها وهي تفكر في كلامه ثم بنبرة بائسة:

-تُرى ما الذي وجدته هذه المرأة الجميلة المثقفة في حسن لتحبه وتضحي بكل شيء من أجله؟

-لا أدري!

-على أي حال في بعض الأحيان من الأفضل أن تبقى الأمور ضبابية، بوجود شك يوجد دائماً قَدْر من الأمل.

فكر في كلامها ثم هز رأسه يوافقها.

أشار إلى النادل طالباً الحساب، وقام ليرتدي معطفه..

-هيا بنا.

-إلى أين؟

-إلى الرقم 14من زقاق كونتي.

كانت الشوارع مقفرة في ذلك الطريق الذي يؤدي إلى زقاق ضيق في نهايته بناية ضخمة، بمصاعد كهربائية وجهاز إنتركم، تحمل رقم (14) .لم تَعُد هناك فيلا من دورين يحوطها سور من الأشجار الكثيفة، تلك الأمسيات في منزل شانتال أصبحت ذكرى غابرة . كل المدعوين إلى هذا الصالون ماتوا .شانتال وحسن بدا الأمر كأنهما لم يوجدا قط.

وقف متسمراً أمام البناية، وفجأة انمحى كل شيء من حوله .وسار منفصلاً عن كل شيء .كما لو أن جميع ما يحيط به لم يَعُد حقيقياً .وكأنها واحدة من تلك الأماكن التي ألفناها فيما مضى ونستعيدها في أحلامنا .وجد أمامه بناية صغيرة مختفية وسط سور من الأشجار الكثيفة تتوقف العربات التي تجرها الخيول أمام بابها.

الصالون الواسع تضيئه شمعدانات كبيرة .بدت النساء كالوصيفات والرجال كالفرسان جميعهم يتحدثون ويحتسون الويسكي .من وقت لآخر يتصاعد صوت بيانو قديم.

كم يبدو بعيداً صدى تلك الأصوات، فالأعوام تحجبها بهمسها المشوش .كان يحاول أن ينتشلهم من العدم ولو لبرهة، قبل أن يعودوا إلى التلاشي في كنفه إلى الأبد.

55

باريس - شتاء 2015

كانت ليلة الكريسماس في باريس، وكان الجميع برفقة الأهل والأصدقاء يحتفلون ويقدمون الهدايا ويطرقعون الكؤوس، وكان هو وحيداً إلا من طيفها .تخيلها توزع ابتساماتها الباردة ونظراتها الفارغة وبصوت خفيض ترحب بضيوفها.

شعور عميق بالوحدة مسَّه، تدثر بثقيل الثياب ووضع سماعات هاتفه وخرج للتريض، كان يجوب الشوارع الصامتة والمكسوة بالثلوج في ليلة الكريسماس وهو يستمع لقصيدة ذات الوشاح لـ (يزيد ابن معاوية) يشدو بها صوت رائق عميق.

أَصَابَك عِشقٌ أم رُمِيتَ بأسْهُمِ

فمَا هذه إلا سَجيّةُ مغرمِ

ألا فاسقني كاسات خمر وغني لي

بذكري سليمى والكمان ونغمي

فدع عنك ذكر العامرية إنني

أغار عليها من فمي المتكلم

خذوا بدمي ذات الوشاح فإنني

رأيتُ بعيني في أناملها دمي

أغارُ عليها مِن أَبِيها وأمِها

ومن خطوة المسواك إن دار في الفمِ

أغارُ على أعطافها مِن ثِيابِها

إذا ألبستها فوق جِسمٍ مُنعَّمِ

وأحسد أقداحاً تقبلُ ثغرها إذا

أوضعتها موضع المزجِ في الفمِ

يومان لم يعلم عنها شيئاً وكانت أيامه دُونها تتشابه، تمر ببطءٍ في سكون، وكان بحاجة إليها، كان يود أن يختفي فيها بكل قواه .شعر بالذنب فلا وجود لأي عُذرٍ لمن يعشق امرأة متزوجة ولكن هل عشقها فعلاً !هو نفسه لا يدري.

جاءه صوتها في السابعة صباحاً تدعوه لحضور ندوة حول حقوق الهولوكست، أخبرته أنها ستبدأ في الخامسة عصراً ثم أعطته العنوان وأغلقت الخط.

لم يشغل باله مسبقاً بحقوق الهولوكست ولكنه ذهب إلى حقوقه في أن يراها.

كان نهاية اليوم في باريس عندما خرجا من القاعة بعد انتهاء الندوة، الشمس تذوي مغمورة في ضوء مُشع كتلك الأضواء الأخيرة قبل الليل .إنها ساعة سحرية أكثر غموضاً، أكثر سحراً .وهي أيضاً كانت مختلفة في ذلك اليوم، ومتألقة .لم يَبدُ له وجهها بهذا الهدوء من قبل.

تتزامن خطواتهما، يده تلمس يدها دُون قصد، وكأنها تبحث عنها، مرة، اثنتين، وفي الثالثة قبض عليها بقوة .لم تحاول أن تفلتها، لم تُبدِ أي تعبير، حتى أنها لم ترفع نظرها!

سارا على طول الأرصفة .وعندما تعبا جلسا بمواجهة نهر السين على مقعد خشبي تظللهما شجرة كبيرة وتمنحهما الدفء والخصوصية.

كانت ساكنة جواره ثم أخذت تتأمله كعاملة سينما تفتش بكاشفها في الظلام .لا يعرف عن ماذا كانت تبحث تحديداً!؟

أخبرها أن جميع موارده البحثية بخصوص اختفاء حسن نفدت وكأنه اختفى من باريس نازعاً كل أثر خلفه، ولم يتبقَ له سوى ورقة واحدة وهي السفر إلى القاهرة ليقتفي أثره في جميع الأماكن التي عاش فيها.

انتظرت برهة ثم ردت بصوت خفيض كأنها تتحدث إلى نفسها ونظرها مسمّر إلى النهر..

-أصبحت الأيام كحبل مهترئ يوشك على الإفلات من عقدة الحياة.

لم يفهم ما الذي تعنيه، ولكنه كان يعلم أنها واحدة من هؤلاء المهمومين بمصائر الإنسان المحطمة التي يقضيها ما بين ميلاد ورحيل .كانت تعاني من خطبٍ ما، خطب يصيب النساء ويدفعهن للبحث عن طرق للخلاص، بهروب أو بموتٍ .وكان في هروبها إليه طريقة للخلاص من عالمها.

-متى سترحل؟

-في الساعات الأولى من صباح العام الجديد ستقلع طائرتي إلى القاهرة .ما زلت أملك في العطلة يومين سأقضيهما هناك.

للمرة الأولى منذ عرفها يظهر هذا التعبير على وجهها .ضم الحاجبين، ضيق العينين، انكماش الشفتين .لا، ليس الحزن هو ما يبدو على تقاسيم وجهها، إنه الكمد.

انتظر لتتحدث .لتقول شيئاً ولكنها لم تقل ودعته وككل مرة وقع خطواتها يتلاشى حتى يختفي.

56

باريس - شتاء 1827

نُشر الحوار الذي أجراه حسن مع الصحفي، وأحدث ردود فعل متناقضة، مؤيدة ومعارضة .شغلت هذه القضية الرأي العام الفرنسي بعدما أفردت الصحف المهمة صفحاتها الأولى بعناوين عريضة عنها .ولم تقبع هذه الآراء خلف الأبواب المغلقة، خرجت الحكايا إلى الشوارع، إلى الحدائق والمتنزهات، إلى المسارح والملاهي.

في أحد الأيام حدثت مشادة بين مجموعتين؛ واحدة تبارك قصتهما والأخرى تطالب بحبس العاشق الولهان، أو طرده خارج البلاد .تجمهر المواطنون وتطور الأمر من مجرد جدال إلى سباب وشتائم، وسرعان ما تحول إلى تشابك بالأيدي وتدخلت الشرطة لفض النزاع.

خرجت الصحف الفرنسية في اليوم التالي تقول :(لم تتعارض آراء الشعب الفرنسي منذ قيام الثورة مثلما تعارضت الآن على العلاقة التي ربطت البربري وشانتال).

وفي ذلك المساء وفي غمرة انهماك عطير بعد الفرنكات التي حصل عليها، وتخزينها في أكياس ودفنها تحت الأرض، تناهى لمسامعه وابل من الشتائم لرفيقه البربري، ولولا وجود حرس على بوابة الحديقة لكانت الأمور تطورت لشكل أشد وأعنف.

سأل عطير حسن وعلى وجهه علامات الدهشة:

-ما الذي فعلته؟ هل قتلت أحداً عندما أحببت!؟

-بالنسبة إليهم أكثر من ذلك .هؤلاء يتشدقون بالحرية والعصرية . هم يدعون ليس أكثر، وفي الحقيقة هم محنطون داخل أفكارهم العنصرية.

-وما الذي تنوي فعله؟

-ليس أمامي سوى أن أعود إلى الديار.

قرر الخروج لوداع القليلين من الأصدقاء المخلصين، ووداع هذه الأرض .بالرغم من كل شيء قضى فيها أياماً سعيدة.

أخذته قدماه من مكان لآخر يسير برفقة أفكاره وتساؤلاته؛ هل ما حدث له ذنب مهجة؟ تلك الفتاة التي أحبته ووعدها أن تبقى في انتظاره وأخلف بوعده معها، شعر بالخسة من نفسه .كيف هانت عليه وهي التي سلمت له روحها وقلبها!؟

وكيف استطاعت هذه المدينة المغوية أن تفقده صوابه إلى حد الثمالة !؟ وجعلته ينسي من هو ومن أين جاء؟ مَحت ماضيه ولفته معها في دوامتها .اِنْسَل من نفسه كما تنْسَل

الشعرة من عجين .لم يأبه لحرام أو حلال .ولم يفكر بالصواب أو الخطأ.

نعتقد أن بإمكاننا الإفلات والتخلص من ماضينا، بدعوى أن المرء عاش في هدوء وسكينة لبعض الوقت في مكان بعيد، لكن ما يحدث بعد ذلك أن الأمور تعود إلى نصابها وربما بشكل أسوأ مما سبق.

57

الإسكندرية - شتاء 1828

عندما كانت توقد القناديل أمام بوابة القنصل في ذلك اليوم سمعت جلبة غير معتادة . اختلست النظر من بين أسوار الحديقة فوجدت القنصل يجلس مع رجل إفرنجي من بني جلدته ويرطن معه بلغته التي لم تفهمها، ولكن من بين الكلمات الكثيرة التي كانت تركض من بين شفتيهما استطاعت أن تسمع اسم حسن عدة مرات، فعلمت أن الأمر متعلق به ومن الواضح أن هناك شيئاً ما قد حدث، فالقنصل كاد ينفجر من الغضب .تمنت لو كانت تفهم ماذا يقولان.

لمحت البستاني يشذب الأشجار بالقرب منهما .فانتظرت حتى اقترب منها وسألته:

-أخبرني هل هناك شيء بخصوص حسن لقد سمعت القنصل يردد اسمه كثيراً؟ هل فعل شيئاً ..هل أصابه مكروه؟

تحير البستاني مِن أمر هذا الشاب واهتمامه الشديد بحسن، فمنذ سفره وهو يلاحقه بالسؤال عنه !ولم ينسَ عندما أخبره أن هناك تاجراً دمشقياً شاهده في فرنسا بدا على محياه تعبير عجيب لم يستطع تفسيره، والآن قَتَلَهُ القلق عندما سمع القنصل يردد اسمه بغضب . بدأت الشكوك تساور البستاني اتجاه المشعلجي وخاصة أنه يبدو غريب الأطوار، قوامه، خطواته.

-ولكن لماذا تشغل بالك بأمر حسن إلى هذا الحد؟

-يمكنك أن تقول إنه صديقي الوحيد.

نطقتها بتأثر ملحوظ، فعادت الثقة مرة أخرى لقلب البستاني، واستغفر الله في سره من إثم ظنونه.

على أي حال أنا لا أفهم الفرنسية ولا أعرف ما الذي يرطنون به، ولكن سكرتير القنصل يتحدث العربية سأحاول الإيقاع به ليخبرني لماذا كل هذا الغضب!؟ ابق هنا وسأعود لأخبرك.

داهمها القلق حتى ارتجف كل جزء في جسمها .أخذت تتمتم في سرها بجميع آيات الأمان التي تحفظها، ودَعَت من قلبها أن لا يكون حبيبها قد أصابه مكروه .مرت الدقائق التي غاب فيها البستاني ليستطلع الأمر كأنها دهر.

عندما عاد كان ثغره مبتسماً فاطمأنت.

-صديقك الشرقي صيته في فرنسا أصبح أشهر مِن نار على علم،

فقد أقام علاقة مع امرأة وجعلها تُغرَم به، وهي امرأة ذات مال وجمال .ولكن ما جعل القنصل مهتاجاً كل هذا الهياج أن حسن فضحه وأخبرهم أنه يسرق الآثار المصرية ويتاجر فيها.

نزلت عليها هذه الكلمات نزول الصاعقة وشعرت أن الأرض تميد بها، ولولا أنها تشبثت بالعمود، لسقطت أرضاً .ازدوج الرجل في نظرها وتراقص الطريق أمام عينيها.

هل حقًّا ما يقوله الرجل!؟ ولماذا سيكذب وما هي مصلحة أي كان في الكذب عليها؟ ظل صدى كلمات الرجل يتردد في رأسها (أقام علاقة مع امرأة) وهي تمضي في طريقها كغائبة عن الوعي .وفي الطريق تجمع عدد من الرجال يحملون المشاعل بأيديهم كانوا يداهمون بيوت الغوازي ويقتحمون البيوت سيئة السمعة، ويخرجون منها النساء والقوادين، وهم يضرمون النيران بالبيوت ويجلدون النساء بالسياط، كما أمر الباشا.

وكأن مسًّا من الجنون أصاب الناس، حاول البعض حماية هؤلاء النسوة، فحدثت مشادات كلامية بينهم وبين الآخرين انتهت بمشاجرات عنيفة.

تجمهر الناس في الشوارع وسدوا الطرقات .كانت وحيدة وشعرت بالخوف، لمحت تلة من التبن في إحدى الزرائب فاختبأت تحتها.

انتشرت قوات العسس في كل مكان ناشرة الحزم والنظام .ووقف البصاصون على مفارق الطرقات ولم يَعُد هناك هرج ولا مرج .وحده نباح الكلاب التي ترافق الحراس الذين يجوبون الأزقة.

انتظرت حتى انفضّ الجمع، فخرجت من مخبئها ولأنها لم تكن تعرف كلمة السر، وكان من المؤكد أنها ستسأل عنها حتى يسمح لها بالمرور ففكرت بأن الحل الأمثل هو أن تركض .لمحها بصاص فهرول إليها ولحق بها، ارتعبت عندما شعرت بيده القوية فوق كتفها فأمرها بحزم)قف عندك.(

سأله الرجل عن اسمه وعمره ولماذا يحوم في الطرقات في هذا التوقيت؟

أجابته متلعثمة:

-اسمي عزيز وعمري 18عاماً وأساعد والدي المشعلجي في إيقاد القناديل.

-أين هي بطاقة هويتك.

-ليس معي هوية.

فاصطحبها معه إلى المخفر، وهناك تأمله أومباشي من عاليه لأسفله.

-ولماذا لم تنضم إلى الجهادية؟ ألم تعلم أن الوالي قد أعلن النفير العام، وصدرت أوامر لمَن في مثل عمرك الذهاب للمخفر لتقديم أنفسهم؟

صمتت لم تَجِب .بماذا يمكنها أن تجيبه؟ خشيت أن تخبرهم بأمرها وتفضح نفسها فيقومون بحبسها وربما تعذيبها.

-على أي حال ستقضي ليلتك هنا وستذهب غداً إلى الجهادية.

-أريد أبـي، آتوني به.

قالتها بنبرة أقرب منها للبكاء، جعلت الرجال في مخفر الشرطة يضحكون ويسخرون من هذا المائع.

رد عليه الأومباشي بنبرة حاسمة:

-مِن الواضح أنك تحتاج الذهاب إلى الجهادية حقًّا حتى تتعلم كيف تصبح رجلاً.

-أرجوك، أريد أبـي.

وهذه المرة أخذت تبكي .تبكي كل شيء .تبكي بحرقة وألم.

حتى أن الرجال قد أشفقوا عليها وسألوها:

-لماذا كل هذا البكاء؟ أين هو أبوك وسوف نبعث في جلبه؟

لم ينهوا جملتهم حتى هرع أبوها وأمها إلى المخفر .طوقتها أمها وهي تتحسسها وتسألها:

-هل أنتِ سليمة هل حدث لك شيء هل آذاكِ أحد؟

-لا يا أمي، اطمئني لم يصبني شيء.

اندهش الرجال عندما وجدوهما يحدثانها بصفة الأنثى.

قصَّ لهم المشعلجي كل شيء والحيلة التي قامت بها ابنته لتساعده حتى لا يفقد وظيفته .انقسم الرجال فريقين منهم من أثنى على الفتاة ومنهم من لامها، وأخذ الأب حقه من التوبيخ لأنه عرّض ابنته للخطر.

قبل منتصف الليل بقليلٍ خرجوا ثلاثتهم من مخفر الشرطة وكل منهم يسير محملاً بهمومه وكان جسدها النحيل يئن بِحمله.

58

باريس - شتاء 2015

في صباح اليوم التالي، قرر أن يستقل القطار، ويذهب إلى مدينة فردان التي تبعد عن باريس ساعتين ليزور متحف التاريخ الطبيعي، حيث هناك ما تبقى من الإفريقية الجميلة.

كانت تشغل مساحة كبيرة في موقع متميز بالمتحف .عندما وقف أمامها شعر بضآلته بجانب طولها الفارع .بالرغم من مرور كل هذه السنوات لم يتبدل لون جلدها، كانت جميلة حقًّا وتبدو وكأنها تضج بالحياة .تمنى لو تنطق لتخبره أين ذهب حارسها الأمين؟

وجده مسؤول المتحف يتأملها بدقة، فاقترب منه وحاول إدهاشه أكثر.

-لهذه الزرافة قصة عجيبة هل تريد أن تسمعها؟

لم ينتظر رده، وبدأ في سرد قصة الزراقة وأنهاها قائلاً:

-وها هي أمامك ليست بشحمها ولحمها ولكن بجلدها الذي تم حشوه.

شكره جهاد على هذه المعلومات وسأله

-هل لديك أي معلومات عن حارس الزرافة الذي جاء معها من مصر؟

نظر إليه الرجل باندهاش دون أن يجيبه ثم تركه وذهب.

جال في المدينة التي شهدت أعنف معركة وقعت خلال الحرب العالمية الأولى وقُتِل فيها ما يقارب الثلاثين ألفاً .ثم دلف إلى مطعم شهير بطبق كبدة الإوز المشوية.

وفي قطار العودة أخذ سِنَة من النوم واستيقظ منها على اهتزاز هاتفه بقوة في جيب سترته .أخبرته أنها" :حجزت لهما طاولة في الفولي بيرجير ليلة رأس السنة ."لم يتعوّد أن يسهر في الخارج في هذه الليلة، كان يفضل أن يقضيها في مكان خاص مع بعض الأصدقاء . ومنذ عدة سنوات أصبح يقضيها وحيداً .ولكنه رحب بدعوتها؛ لم يكن يريد أن يفوت على نفسه قضاء وقت معها قبل سفره.

مسّه شعور بالسعادة سرعان ما تبدل لحسرة، ولم يندهش من هذه المشاعر المتناقضة .كان يعلم أنه يعاني من متلازمة الحسرة، ومتيقناً أن الأحداث التي تعدك اليوم بأشياء جميلة تذوي بعدها في سكون ثم تتلاشى وتختفي.

كل شعور بالسعادة في حياته كان مرتبطاً بحزن ما، منذ تلك الليلة الباردة التي حضنته فيها أمه وهي تضعه في الفراش متمنية له أحلاماً سعيدة، وعند عودته من المدرسة في عصر اليوم التالي علم أنها رَحَلَت بعد أن صدمتها سيارة بقوة وهي تعبر الطريق..

فقد أمه في سِن مبكرة وفقد العالم معها .ساعد أباه في رحلتهما معاً لاجتياز درب الحياة .لم يحاول يوماً أن يثقل عليه .كان طفلاً مطيعاً، وصبياً طيباً، وشاباً لم تشغل باله سوى كتب التاريخ .لم يجنح بخياله في اتجاه المستقبل، كان يمضي عبر الماضي، وكان ذلك مطمئناً لأب انفرد بنفسه في تربية ابنه.

القطار يقطع به الطريق مسرعاً لدرجة أنه لا يستطيع أن يحصي عدد الأشجار التي يشاهدها من النافذة كعادته من الصغر.

يختفي انعكاس الأشجار من فوق زجاج النافذة وتنعكس بدلاً منها صورة أبيه مرتدياً مريول المطبخ ويقوم بالأعمال المنزلية.

عليه أن يتحلى بالشجاعة مرة واحدة، ويعترف أنه كان يجد أباه ضعيف الشخصية، نموذجاً لموظفي الدولة الذين اعتادوا على الرضى والخنوع.

محاولاته الزائدة في حمايته وإغلاق الأبواب عليهما بعيداً عن مشاكل الحياة وقسوتها، بدلاً من التَمَرُّس على كيفية عيشها، زرع فيه خجلاً مفرطاً .كلما حدثه عن مناوشة بينه وبين أحد من زملاء المدرسة أو طفل من أطفال الحي يؤنبه) :كان عليك أن تكون ولداً مهذباً ولا تفعل ذلك؟(، لذلك كان السبيل الأنسب أن يعتذر دائماً حتى عن ذنب لم يقترفه.

لطالما تمنى أن يكون والده قائداً مغواراً ورجلاً شجاعاً كـ(ﷴ علي).

عندما كان يستذكر دروسه عن (الفتوحات الحربية لمحمد علي باشا) كان أبوه يقوم بفتوحاته الخاصة لفرن البوتاجاز ..وخزانة الثياب.

كان يحفظ كيف خطط ﷴ علي مذبحة القلعة، وكان أبوه يخطط مذبحة للتخلص من القوارض التي تسكن المطبخ.

وفي الوقت الذي كان يقرأ فيه كيف يدفع الباشا بأبنائه لخوض المعارك الحربية، كان أبوه يحذره من فتح الباب في غيابه لأي كان.

كانت المقارنة غير عادلة بالمرة ولكنها بالنسبة إلى طفل في عمره لم تكن كذلك . طفل لم يكن يطالع مجلات الأطفال ذات الرسوم الكرتونية، ليصبح أبطالها رمز حياته، بل كان يقرأ عن معارك وحروب الباشا فأصبح هو رمز حياته.

59

باريس - شتاء 2015

تأنّق وذهب للقائها، كانت تنتظره عند طاولة منزوية في ملهى (الفولي بيرجير) . بدت أصغر عمراً في فستان مكشوف من الجيرسيه .لم يحاول أن يسألها عن عمرها، كل مرة كانت تبدو بعمر مختلف، فما الداعي لمعرفة عمرها الحقيقي!

سألها:

-هل أنتِ من هؤلاء الذين يحصرون منجزهم خلال العام؟

-مع الوقت ستختفي جاذبيتنا في ظل الليالي التي تمضي دوننا . لماذا عليّ إذن أن أشغل نفسي بحصر منجزات!؟

ابتسم .ماذا كان عليه أن يقول؟ كانت هذه قناعاتها الخاصة التي تؤمن بها.

-تبدين جميلة في هذا الفستان.

-كنت مترددة أن أرتديه .لم أرتده منذ اشتريته.

لم يشأ أن يسألها ولماذا الليلة؟

كرات الإضاءة البلورية تتعاقب ألوانها؛ أصفر، أحمر، أزرق، وبنفسجي .وفرقة استعراضية تقدم عرضها على المسرح.

وضع النادل أطباق العشاء، بالكاد لمست طبق السلطة .لاحظ أن هناك عبئاً ما يثقلها ومن المؤكد أنه ليس عبءَ الفستان الجيرسيه .كان هناك شيء آخر، شيء يفوق كل ما هو مادي.

-أليس من الغريب أن يتركك زوجك في ليلة مثل هذه بمفردك!؟

-زوجي في المشفى يشارك في عملية خطيرة)ترقيع قرنية(، يا الله مجرد لفظ الاسم يثير القشعريرة .لا أعرف لماذا على أحدهم أن يرقع قرنيته؟

-ليرى العالم من حوله.

-ولماذا يريد أن يرى كل هذا القبح؟

-ليست كل الأشياء قبيحة.

قبل منتصف الليل بقليلٍ، أُطْفِئَتْ الأنوار .صراخ هستيري، عد تنازلي، زمن ينتهي وآخر يبدأ.

قام إليها سحب يدها .رفع شعرها وطبع قبلة على عنقها الطويل .تراجعت خطوة إلى الخلف لملمت أشياءها عن الطاولة.

-أُفضل أن نخرج من هنا.

في الخارج كانت باريس تحتفل .فِرق تجوب الشوارع وتقدم عروضاً استعراضية . بهلوان يرمي إلى السماء مشاعل مشتعلة، شباب يضيئون السماء بألعاب نارية.

وكان نهر السين يلمع أمامهما .اقتربا من السياج ليشاهدا سماء باريس في هذه الليلة وهي محتشدة بانفجارات ملونة، تنير ظلمة الليل وتُضيء بشرتيهما الشاحبتين.

نظرت إلى ساعتها دون أن تقول شيئا، ففهم أنها تريد أن تذهب.

رفع يده وأشار إلى تاكسي .استقلاّه دُون أن يوجه السائق إلى أي مكان، فاعتقد أنهما سائحان تائهان في ليل باريس.

-هل تريدان جولة باريس في الليل ..برج إيفل - مونمارتر - النصب التذكاري - وهكذا.

أجابته..

-سان ميشيل الدائرة الخامسة عشرة من فضلك.

أسندت رأسها على كتفه ولف ذراعه حولها .سمعت نبض قلبه وشعر بأنفاسها الهادئة..

توقف السائق أمام إحدى البنايات فنزل ليودعها.

نظرت إلى نافذة مضيئة وتمتمت..

-إنهم ينتظرونني.

قبَّل يدها .وَدَّعته قائلة بصوتها الخفيض ذي البحة:

-حتى ذلك الحين، فلتكن بخير.

لم يعرف ما الذي تقصده (بذلك الحين)، ربما وَعْد مبهم بلقاء لن يحدث.

(حتى ذلك الحين فلتكن بخير) كان يعلم أن هذه العبارة ستبقى عالقة في ذهنه . وبأنها كل مرة ستوّلد لديه إحساساً مؤلماً كشعور بالوخز.

في المرآة العاكسة راقبها وهي تذهب .خيالها أخذ يتضاءل ..يتلاشى حتى اختفى تماماً.

كان حزيناً لرؤيتها تختفي ..حزيناً لكونه حزيناً.

الجزء الثالث

60

القاهرة - شتاء 2016

وهو في طريقه إلى المطار، في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي، كانت الشمس متوارية خلف الغيوم الثقيلة، والأمطار تهطل بغزارة. ومحى المطر أي أثر قد يفضي إليها.

تعرضت الطائرة التي تحمله إلى القاهرة لاهتزازات عنيفة، أدت لسقوط كوب العصير الذي قدمته له المضيفة.

جاء صوت كابتن الطائرة هادئاً عبر الإذاعة الداخلية للطائرة، وهو يعتذر بأن ما حدث نتيجة لمطبات هوائية كثيفة.

-أغلق النافذة وحوّل المقعد لوضعية الفراش. استسلم لغفوة سريعة، تناوبت عليه فيها وجوه مختلفة، (أبوه، حسن، وهي).

كانت الشوارع، وهو في طريقه إلى الفندق في حالة سكون تام. سكون اليوم التالي للاحتفالات. فالمصريون بمختلف فئاتهم يحرصون على الاحتفال بعيد رأس السنة، بأشكال وطرق مختلفة، أبسطها التفاف الأسرة حول مأدبة عشاء ومشاهدة البرنامج التلفزيوني الحافل.

أجّل الاتصال بوالده حتى ينتهي من حجز الفندق. كان دائماً يلومه لأنه يترك منزله ويقيم في فندق، وحاول جهاد أن يفهمه أكثر من مرة أن الذكريات في ذلك المنزل تهجم عليه، تطارده وتتربص به. لكنه لم يقتنع.

جلس في البهو وطلب فنجان قهوة واتصل برفيق دربه محمد عبد الجواد.

هلّل عندما سمع صوته:

-أهلاً ..أهلاً بالباحث عن المتاعب.

كان زميله في الجامعة ونشأت بينهما علاقة عميقة، بالرغم من أنه كان على نقيضه؛ دراسته للتاريخ جاءت بناء على تحصيله الدراسي الضعيف الذي جعل اختياراته محدودة. ولم يقتنع عندما أخبره جهاد أن تحصيله الدراسي شارف الدرجات النهائية وكان في إمكانه الاختيار بين كليات كثيرة، ولكنه اختار دراسة التاريخ. بالنسبة إليه من الصعب تصديق أن يدرس أحد التاريخ وفقاً لرغبته الخاصة. ولكن بعد مجاورته له في المدرج الجامعي تأكد أن بإمكان أحدهم أن يولع به. ولهذا السبب كان الفرق بينهما أن جهاد أصبح واحداً من أشهر أساتذة التاريخ، بينما قبع هو خلف الدفاتر في الأرشيف.

اتفقا أن يلتقيا في الغد، أمام برج الساعة في قلعة محمد علي .بين جدران هذا المكان يشعر أنه في حضرة أفندينا، حيث عاش وحكم وخطط وصنع إمبراطوريته الخاصة، مترامية الأطراف .كل شبر فيها يعبق بالأصالة والتاريخ.

لو كان بإمكانه أن يستنطق الصخر لكان أخبره دون كذب أو تزييف عن كل ما حدث.

ذهب مبكراً إلى موعده، وتوجه مباشرة إلى مسجد الباشا .في هذا البناء كالعادة كان يقف مبهوراً وهو يشاهد الجدران المرمرية للمسجد، وأروقة من صفوف العقود، وقبة مزينة بماء الذهب يوجد فيها ضريحه..

كان محط أنظار الجمهور الذي احتار مَن يكون هذا الرجل، الذي يلف وشاحاً قرمزياً حول عنقه، ناثراً باقة من زهور الكافور فوق مقبرة الباشا؟

في الساحة الخارجية كان صحن المسجد يتوسطه سبيل للوضوء يعلوه قبة محمولة على ثمانية عمدان، بزخارف بارزة تزينها نقوش ملونة ومذهبة، تُمثل مناظر طبيعية .وفي منتصف الرواق الغربي للصحن كان برج الساعة، وهو برجٌ عالٍ من النحاس المزخرف بداخله ساعة تذكارية أهداها ملك فرنسا لويس فيليب لمحمد علي باشا.

لم تختلف دهشته ..لم تفتر ..لم تتوقف في هذا المكان منذ زيارته الأولى له مع رحلة مدرسية وهو في التاسعة من عمره .من بين كل المدن التي زارها، والمزارات التي شاهدها، كان هذا المكان هو الأقرب إلى قلبه .إذ بإمكانه أن يَعْبُر فيه الحدود غير مرئية للزمن، يشاهد الباشا وهو يقف تحت برج الساعة يراقب القاهرة ويخطط لها قدراً ويدبر لها مصيراً.

وقف يتأملها من المكان نفسه ويتساءل؛ هل كانت تبدو كما تبدو الآن !؟ كأعوادِ كبريتٍ رُصّت في علبة ضاقت عليها.

سمع وقع أقدامٍ تقترب منه حتى باتت خلفه تماماً .عانقه صديقه بحرارة..

-لم تتغير يا رجل!؟

مازحه جهاد..

-ولكنك تغيرت .أين ذهب شعرك؟

ضحك ساخراً..

-اقتلعته رياح الزمن .ولكن لماذا هذا المكان في هذا الطقس البارد؟ كان بإمكاننا أن نلتقي في مكان أكثر دفئاً.

نابت نظرة جهاد عن جوابه ففهم صديقه الأمر.

-أعتقد أن اختيارك لهذا المكان تحديداً وراءه أمر ما.

ابتسم جهاد.

-ها قد أصبحت تتحلّى بالفراسة.

-هاتِ ما عندك؟

-أريد بعض المعلومات عن الزرافة الدبلوماسية؟

ردد صديقه بدهشة لا تخلو من نبرة سخرية:

-زرافة دبلوماسية!

-نعم، إنها زرافة أهداها محمد علي للملك شارل العاشر.

-حسناً ..وما الذي تريد معرفته؟

-أريد جميع المعلومات التي تخص حارسها (حسن البربري).

-لماذا، ماذا صنع هذا المدعو حسن؟

قصَّ لصديقه ما يريده تحديداً دُون مواربة.

-بدأ الأمر معي بتدوين بعض الملاحظات، ثم ومِن دُون أن أدرك تماماً وجدت نفسي أشرع في تأليف كتابي عن رحلة الزرافة، وذلك اللغز المتمثل بحياة رجل من المؤكد أنني لن أعثر عليه، ولا على كل تلك الأسئلة المحيطة به .ولكني، كما ترى، أحاول.

-لن تتغير أبداً يا جهاد.

-ولماذا عليّ أن أتغير !؟ ما عليه أن يتغير حقًّا هو التاريخ الذي كُتِبَ وفقاً لأهواء الآخرين .تعالَ معي لأثبت لك.

كانت طوابير الرحلات المدرسية تمتد إلى ما لانهاية، فمنذ زمن طويل كان تنظيم الرحلات لزيارة القلعة على رأس قائمة الرحلات التي تنظمها المدارس.

-انظر لقد حَشَوْا عقول هؤلاء التلاميذ بحفنة من أكاذيب.

اقترب جهاد من أحد الصفوف وسأل تلميذاً:

-هل تعلم مَن الذي بنى هذا المكان الجميل؟

نظر الفتى إلى زميله ليعينه على إجابة سؤال الرجل الذي تبدو هيئته كمفتش في التعليم، ربما كان يختبره ليعرف إذا كان استذكر دروسه جيداً أم لا.

أجاب زميله نيابة عنه:

-صلاح الدين هو الذي بنى القلعة.

-حسناً، ولماذا سُمِيَت قلعة محمد علي إذن؟

-لأن محمد علي ذبح فيها المماليك.

-وماذا فعل هذا الرجل أيضا؟

تحمس التلميذ البليد ووجدها فرصة ليقصّ على المفتش ما حفظه عن (محمد علي باشا)..

-كان رجلاً قاسياً وعنيفاً، لقد زاد الضرائب واحتكر الأرض.

فجأة وجد جهاد نفسه محاطاً بالتلاميذ، الذين تجمهروا حوله، وأخذوا يتسابقون في الإجابة عن الأسئلة.

-كان يجعل الفلاح يترك أرضه ويذهب إلى الجيش.

-كان يستعين بالأجانب.

-كان يكره المصريين.

-لم يكن يتحدث العربية.

اقترب منه المدرس وبلهجة حادة :يمكنك أن تسألني أنا وسأمدك بالمعلومات التي تريدها .أنا الذي أُدَرِّس التاريخ لهؤلاء الطلبة.

-شكراً عزيزي .لقد أخبرني التلاميذ بالمعلومات الخطأ التي تدرسها لهم.

-خطأ !ماذا تقصد بالخطأ؟ ومَن أنت حتى تتحدث معي بهذه الطريقة؟

-نعم خطأ .كان الأجدر بك أن تتأكد من صحتها .أخبرني، منذ تخرجك هل قرأت أي كتبٍ؟ هل أجريت أي أبحاثٍ عن هذه الفترة الزمنية المهمة في تاريخ مصر؟ تأكد أن مصير هؤلاء الناشئة معلق في عنقك.

-من الواضح أنك تعاني من خطب ما في قواك العقلية.

اعتذر صديقه للمدرس، وشد جهاد من ذراعه وخرج به من الساحة.

-معقول !ما الذي حدث لك ألا يمكنك أن تتحكم في أعصابك؟

-أجيال وراء أجيال تتلقى المنهج نفسه، المعلومات نفسها، الكلام نفسه .لم يحاول أحد أن يغير شيئاً.

-إنها سياسة يا عزيزي، لن تتبدل ولن تتغير، هذا ما يريدونه .لن يستطيع أحد أن يبدل شيئاً .أنت نفسك عندما حاولت وقفوا لك بالمرصاد.

استقلا سيارة صديقه، وذهبا إلى مطعم عائم على ضفاف النيل ليتناولا غداءهما.

-إنه تاريخ مزيف يحشون به عقول الناشئة .لو ركزت في إجابة الأسئلة ستجد المعلومة ناقصة دائماً .أصدر محمد علي قانوناً إجباريًّا للتجنيد، ويُحسَب له أنه أول من جعل المصري يمسك سلاحاً بعد الفراعنة .الحكومات والإمبراطوريات التي توالت على حكم مصر كانت تمنع المصري من الدفاع عن أرضه خوفاً من أن يكَون قوة ويستخدمها ضدها لاحقاً.

في الحقيقة أن محمد علي، كان يستعين بالأجانب في المشروعات الكبيرة للإصلاح العام، كالجيش والطب والتعليم، ولكن في الوقت نفسه كان تحت يد كل خبير أجنبـي، طلبة من المصريين ليتتلمذوا على يده .وهكذا فالمعلومة دائماً تنقصها الحقيقة.

كان جهاد في فورة غضبه لذلك تكفَّل صديقه بطلب طبقين من الكباب لهما وتشكيلة من السلطة.

-ماذا كان سيحدث لو أننا علّمنا هؤلاء التلاميذ ما الذي نقشه الفرنسيون على قوس النصر للترحيب بإبراهيم باشا في زيارته لفرنسا، ليكون بمثابة فخر لهم بدلاً من هذا الهراء الذي ندسه في عقولهم، بأن محمد علي لم يكن يتحدث العربية ومجلسه لم يكن يضم سوى الفرنجة والكثير من هذه التفاهات.

-ولكن أخبرني ما الذي نقشه الفرنسيون.

-(إلى ابن محمد علي المحترم، صانع حضارة الشرق، صديق الفرنسيين، إلى البطل المصري).

كان صديقه يستمع إليه وهو يأكل بشهية مفتوحة فلم يستطع مقاومة رائحة الشواء..

-كل مؤرخ يسجل الوقائع والأحداث وفقاً لآرائه الخاصة، ويُعيد كتابة التاريخ وفق ما يراه .لو قرأت ما كَتَبَهُ (إلياس الأيوبـي) في مدح الباشا ستعتقد أنه تملق مكشوف .ولو قرأت ما كتبه)الجبرتي (عن احتكاره للأرض، ستصدق أنه ظالم .ولكن لو بحثنا في الأمر سنجد أن الجبرتي؛ كان ملتزماً، أي صاحب أرض ومحمد علي وضع الضرائب على أصحاب الأراضي وليس على الفلاحين البسطاء .وعلى العكس كانت هذه الضرائب تَصُب في مصلحة الفلاح.

-يمكنك أن تأكل وأنت تتحدث، أم أن ولعك بهذا الرجل جعلك تشبع !في الواقع أنا لا أصدق أنك لم تفقد شغفك به.

-ولماذا عليّ أن أفقد شغفي!؟

-بعد المشاكل التي أثرتها في كتابك بأن هناك مؤامرة وراء إصابة الباشا بالخرف والهلاوس.

-أنا لا أهتم بكل ذلك .على العكس يملؤني الحماس لمواصلة مشروعي؟

-أي مشروع!؟

-فتح مقبرة محمد علي وتحليل رفاته لأبرهن أنني لم أكن على خطأ.

كان على وشك أن يضع الشوكة الممتلئة بحبات الأرز في فمه ولكن بعد سماعه بـ)فتح المقبرة (ظلّت يده معلقة في الهواء.

-مِن الواضح أنك جننت .هل تعلم ما الذي يمكنه أن يحدث لك لو حاولت التحدث في مثل هذا الأمر؟

-إذن اعتبرني جننت.

-عزيزي جهاد، أنت تعلم مدى متانة العلاقة التي تربطنا، ويؤسفني ما يتردد عنك، وأنا واثق أنها مجرد أكاذيب!

-ما الذي يتردد عني !؟ أنني أريد تحقيق شهرة زائفة على حساب سُمعة رجل عظيم كمحمد علي باشا .دعهم يقولوا . عندما يصدق كلامي وتنكشف الحقيقة وقتها شهرتهم هي التي سوف تكون زائفة.

-الأمر أخطر من ذلك، صدقني .فقد تشكَّل لديهم انطباعاً أن هناك أهدافاً سياسية وراء الفكرة، بأنك عضو في منظمة أجنبية تهدف للإساءة إلى رموزنا التاريخية.

-دعك من هذا الكلام وأخبرني :هل تعلم من الذي يمكنه مساعدتي في ذلك؟ لقد انقطعت علاقاتي بكل العاملين في هذا المجال منذ أن غادرت.

-وما دخل العلاقات في هذا الأمر !؟ وزارة الآثار هي المعنية، ويجب أن نطلب ذلك بشكل رسمي وإلا سوف نصطدم بمشاكل لا حصر لها.

-بشكل رسمي طبعاً .ما الذي خطر في بالك !؟ ولكن أقصد لو أن لك علاقة بأحد ربما يعجِّل بالأمر لأن هذه المسائل تستغرق وقتاً طويلاً.

-أنت مُصِر إذن!

-نعم ولِمَ لا .لقد ظلت وفاة لويس ابن ملك فرنسا لويس السادس عشر والملكة ماري أنطوانيت مثار نزاع طويل، وكانت هناك أقاويل بأن وريث العرش المفقود تم استبداله في السجن بعد قيام الثورة الفرنسية بصبي آخر، هو الذي تُوفي هناك .وبسبب الشكوك حُفِظَ قلب لويس في قنينة بكنيسة سانت دنيس القريبة من باريس، حيث دُفِن والداه وأفراد آخرون من العائلة الملكية، ومنذ ذلك الحين ظهرت الكثير من الأبحاث والدراسات، وفي ضوء

هذه الدراسات التاريخية والعلمية وجدت وزارة الثقافة أدلة متزايدة تفيد بأن هذا القلب يخص لويس السابع عشر.

في عام 2003 صرّحت وزارة الثقافة الفرنسية بدفن القلب في القبو الملكي مع إقامة جنازة ملكية له، وجاءت موافقة الوزارة بعد أن قرر علماء الوراثة أن الحمض النووي كان واحداً لمختلف أفراد العائلة الملكية الفرنسية، وأثبت أن لويس قد قضى نَحْبُه بالفعل داخل السجن (عام 1795). إذن ليس هناك أي غضاضة من استمرارية البحث وخضوع الافتراضات لتجارب علمية للجزم بصدقها أو زيفها، أليس من أجل ذلك اكْتُشِفَ العلم**!؟**

-عزيزي، أنت هنا في مصر وليس في أوروبا.

61

كادت المفاجأة أن تصعق والد الدكتور جهاد عندما فتح الباب ووجده أمامه .عانقه بحرارة فشعر بالأسى من أجله، زيارة بعد أخرى كان والده يتبدل إلى منحنى خطير .لقد أصبح عظماً يكسوه الجلد.

نظر جهاد حوله كعادته في كل زيارة، كان كل شيء على حاله؛ لم يتبدل شيء ولم يتغير شيء، وكأن الزمن لم يَمُر.

أمام هذا الجدار المحتشد بالذكريات تذكر نفسه قبل ثلاثين عاماً عندما شاهد صورته .يدان صغيرتان وجسد ضئيل .يرتدي ملابسَ على ذوق والده؛ قميصاً من الكاروهات مغلق لآخر زِر فيه وبنطالاً يصل إلى فوق خصره .ومع الطريقة التي يصفف بها شعره بفرق مستقيم كان يبدو طفلاً من أربعينيات القرن الماضي .نظرته زائغة كنظرة جميع الصبية الذين لا أحد يأخذ برأيهم ولا يمكنهم بعد عَيْش حياتهم.

لاحت أمام ناظريه ذكرى هذه الأيام، عندما كانا يقضيان هو وأبوه، أيامهما ولياليهما في هذا المنزل بعيدين ووحيدين عن كل شيء .عن الأقارب، عن الجيران، وعن الأصدقاء .حبيسين في فقاعة بعيداً عن العالم.

خرج من نفق ذكرياته على صوت والده..

-بالتأكيد أنك تفتقد مذاق طعامي .سأعِد لنا العشاء، ما رأيك في حساء الخضار الساخن وملوخية بالدجاج.

-لا ترهق نفسك .لا نملك وقتاً لننفقه في الطهو .أمامي يومان فقط وبعدها ستقلع طائرتي إلى لندن.

-بهذه السرعة !ابقَ معي يا ابني لبعض الوقت ربما لا نلتقي مرة أخرى .أشعر أني في طريقي إلى الرحيل.

-ما الداعي لمثل هذا الحديث!

-هذه حقيقة، لماذا علينا أن نهرب منها .إنها النهاية المحتومة!؟

حاول أن يمنح أباه بعضاً من الأنس كان هو نفسه في حاجة إليه، طلب بيتزا . وأخذتهما أحاديث طويلة عن حال الأقارب، والجيران، وأحوال البلد والغلاء، والزحام والمشاكل الأبدية، التي لن تنتهي بقيام مئات الثورات، وتمنى له أحلاماً سعيدة وذهب.

استيقظ على مكالمة من صديقه أخبره فيها أنه دبر لقاء في الثانية عشرة ظهراً مع مسؤول مهم في الوزارة، وهو المَعنِي بمثل هذه الأمور المتعلقة بالمقابر والمعابد الأثرية

الإسلامية.

في تمام الثانية عشرة ظهراً كان يستقبله رجل خمسيني بابتسامة واسعة تكشف عن أسنان بيضاء، هذا البياض الاصطناعي الذي يحصل عليه المرء في عيادات تجميل الأسنان ويعطي إيحاء بأن الابتسامة مصطنعة ومزيفة.

يرتدي بذلة أنيقة، وكلما حرك يده كان بريق الماس المزينة بها ساعته الرولكس يضوي مع شعاع الشمس المنعكس من زجاج النافذة.

كان مظهره يوحي أنه رجل أعمال ثري، وليس مديراً بمصلحة الآثار .أشار على موظف آخر كان يحضر لقاءهما وعرّفه به قائلاً:

-إنه (العقل المُدبِّر) في الوزارة.

لم يفهم ماذا يعني بعقلٍ مدبِّر؟ وما الذي تحتاجه وزارة للآثار ليكون فيها عقل مدبِّر؟

برقت نظرة ما في عيني الرجل وقال بحماس:

-حسنا، تحدث كلي آذان مصغية.

حكى لهما سبب طلبه فتح المقبرة وتحليل رفات محمد علي باشا.

أثارتهما القصة؛ فقد استمعا إليه بعيون تملؤها الدهشة والفضول دُون أن يقاطعاه وبعدما أنهى حديثه تطلع كلٌّ منهما في وجه الآخر.

-هل هذا هو السبب الحقيقي أم أن هناك سبباً آخر وراء ذلك؟

-عذراً لم أفهم ماذا تقصد بسبب آخر!

-أعتقد أن كلامي واضح .هل تريد فتح مقبرة أفندينا محمد علي، لشكك أن هناك من كان يدس له شيئاً أدى به للإصابة بالهلاوس أما هناك شيء آخر؟

-ليس هناك أسباب أخرى .وعند تحليل أظافره وعظامه أو شعره سنعرف كل شيء .فكما أخبرتك أن الحالة العقلية التي وصل إليها الباشا هي نتيجة شيء يتناوله المرء.

-شيءٌ مثل ماذا؟

-عقاقير طبية، أعشاب من نوع خاص .هناك الكثير من الأشياء قد تؤدي للهلاوس .فالإكسير المُستَخرَج من عصارة مخ حيوان الضبع يؤدي للجنون التام، وهذه الطريقة استعملت في البلاط العثماني في وقتٍ ما وذلك للتخلص من غير المرحّب بهم داخل أروقة القصر .والبلاط العثماني جهة

ضمن عدة جهات من مصلحتها التخلص من الباشا.

أخذ الرجل يتأمله وهو يفكر في كلامه بعينين مفعمتين بالحيرة.

-وسوف نستدعي للقيام بهذه العملية واحد من أكبر خبراء بريطانيا في علم (التوكسيكولوجيا) علم السموم .انتظر الموافقة لأحدثه في الأمر.

-ولكنك لا تملك أي دليل نستطيع به فتح مقبرة رجل في مقام محمد علي باشا، ما قلته مجرد افتراضات .أنت لا تملك حتى وثيقة واحدة تؤكد ذلك!

-وبإمكان هذه الافتراضات أن تحيلنا إلى نتائج لو بحثنا وراءها.

-على أي حال سنفكر في الأمر ونتصل بك.

شعر بالإحباط عندما سمع (ونتصل بك)، إنها إحدى الحجج الشهيرة في مصر للتخلص من شخص.

-أرجو أن يكون ذلك في أقصى سرعة.

ردد الرجل خلفه بنظرات يشوبها الشك والريبة (أقصى سرعة).

-حسناً ..سأحاول أن يكون ذلك بأقصى سرعة.

وقد كان ..لم تمضِ سوى ساعات حتى تلقى مكالمة من العقل المدبِّر يخبره فيها؛ أنه دبّر له موعداً مع شخصية مهمة ومؤثرة في اتخاذ القرارات في الوزارة .ورفض الإفصاح عن اسمه .تعجب جهاد من موقف الرجل ثم سرعان ما أقنع نفسه؛ ليكنْ اسمه ما يكون حتى وإن كان)اللهو الخفي(، يكفي أنهم أزاحوا البيروقراطية والروتين الحكومي جانباً واهتموا بموضوعه، وبسرعة فائقة أصبح قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفه.

62

في العاشرة من صباح اليوم التالي كان جهاد يجلس في بهو فندق الفورسيزون مع اللهو الخفي والعقل المُدبِّر .كان اللهو الخفي في نهاية الأربعينات بصلعة تلمع تحت الإضاءة الباهرة للتراس.

وبصوت بلوري وبثقة زائدة..

-بصراحة ودُون مواربة، هذه الحيلة لن تنطلي علينا، ودعنَا نتحدث على المكشوف .نعلم تماماً السر وراء طلبك، فتح مقبرة الباشا، والآن يا دكتور جهاد لا داعي للمراوغة وأخبرنا ما نوع الكنز الذي تبحث عنه!؟

كمَن أصابته صاعقة، ردّد جهاد..

-كنز!

رد العقل المدبِّر:

-عُمْلات ذهبية ..جوهرة ..صولجان ملكي أم وثيقة مهمة؟

قاطعه اللهو الخفي وهو ينفث من سيجاره الثخين..

-على أي حال أياً كان نوع الكنز وثمنه، لن تحصل سوى على نسبة 5في المئة والإجراءات ستُجرَى في طي الكتمان .كما تعلم كان بإمكاننا أن نقوم بذلك دُون علمك، ولكننا نتمتع بالشرف والأمانة، وبما أنك صاحب الفكرة فيجب أن تحصل على نصيبك من الكعكة.

أجابه جهاد وعيناه تتقدان شرراً:

-مؤكد أنك تمزح ..صحيح، أخبرني أنك تمزح.

وضع الرجل ساقاً فوق أخرى ونظر إليه بسخرية وهو ينفث من سيجاره..

-أمزح !لا يا عزيزي، أنا لا أمزح .ليس لديّ وقت للمزاح . أخبرني هل أنت غبي إلى هذا الحد لتعتقد أننا يمكن أن نصدق قصتك عن مؤامرة ضد الباشا أدت به إلى الخرف !؟ مِن الواضح حقًّا أنك أنت المصاب به لتعتقد أننا بهذا القدر من السذاجة لنصدقك .وعلى أي حال نحن نعلم أنك لا تعمل لوحدك ووراءك جهة دولية، وأيا كانت أخبرها أننا موافقون ولكن بالشروط التي أخبرناك بها.

فقد جهاد أعصابه، وأصابته حالة هستيريا، وعلت نبرة صوته، وأصبح يرغي

ويزبد، وتخرج الكلمات منه كقصف مدافع.

-أي حيلة !وأي كنز !وأي جهة دولية !هل وصل بكم الأمر لمثل هذه القذارة؟ هل حقًّا مَن يحميها هو مَن يسرقها؟ أنتم حُثالة الناس ومن المؤكد أنكم وراء سرقة المتحف المصري في أعقاب ثورة يناير، وكل السرقات الأثرية التي تفشت وانتشرت من بعد الثورة كان لكم يد فيها .سوف أكشفكم وأفضحكم في كل مكان.

انسكب كوب الماء على إثر خبط الطاولة بقوة، وهو يردد سأفضحكم، ثم خرج من المكان وهو يصيح (خونة - أنذال - لصوص).

ظل يمشي دُون هدف تلسعه رياح باردة كسوط، حتى جلس على مقعد أمام نهر النيل .يجري النهر على امتداد ناظره .تمنى لو يفيض كما في الماضي، ويبتلع في جوفه كل هؤلاء الأوغاد، وينظف البلد منهم .هؤلاء الذين يتكاثرون وينتشرون ويعيشون بيننا، يقتاتون من دمائنا، يسرقون منا أي تيار أمل في مستقبل مشرق.

للأسف الثورة التي قام بها ملايين المصريين، وضحى الكثيرون بحياتهم لتقضي على هؤلاء الأوغاد، وتمحوهم عن وجه الأرض ليزهر الوطن في تربة نظيفة، لم تفلح في ذلك.

عاد إلى الفندق، وذهب مباشرة ليقف تحت الماء الساخن .فرد ذراعيه على جانبي الحائط، ووضع رأسه تحت أقصى اندفاع للمياه.

ركل أحدهم باب الحمام عليه بقوة، ومن خلف الكابينة الزجاجية المغبشة ببخار الماء سمع صوتاً قوياً يأمره:

-اخرج حالاً.

تشنجت عضلاته، اعتقد أن اللهو الخفي أرسل وراءه رجاله لأنه هدده بكشف أمرهم .ارتدى روب الحمام وعندما خرج وجد قوة من الشرطة داهمت غرفته .وفتشتها وقلبتها رأساً على عقب.

-ما الذي حدث؟ ولِمَ كل هذا؟ عن ماذا تبحثون؟

أخبره المحقق بصوت هادئ وبارد..

-لست أنت من يوجه الأسئلة هنا.

-ولكن من حقي أن أعرف.

-هيا ارتدِ ملابسك لتأتي معنا.

-إلى أين؟

ضحك بسخرية..

-سنصحبك في جولة ترفيهية.

ثم تبدلت نبرة صوته وأصبحت عنيفة..

-إلى أين تعتقد يا سيادة الدكتور؟

-على الأقل أعرف التهمة التي ستصطحبني من أجلها؟

-للمرة الثانية دعني أخبرك أنك لست من يوجه الأسئلة.

في مركز تحقيق الأمن الوطني جلس محاطاً باثنين من الرجال.

أحدهما كان مختفياً خلف سحابة من دخان تبغه.

-ما سبب زيارتك للقاهرة؟

-جئت للبحث عن شخص.

-مَن هو؟

-شخص يُدْعَى حسن البربري؟

-وما علاقتك بهذا البربري؟

-لا تربطني به أي علاقة، فقد غادر الحياة منذ أكثر من مائة وخمسين عاماً.

هنا ضرب الرجل المختفي وراء سحابة دخانه المكتب.

-اسمع، هذه الطرق الملتوية بإمكانها أن تقودك إلى زنزانة مظلمة تتعفّن فيها لآخر عمرك.

-أي طرق ملتوية أنا أجيبك على سؤالك .الأمر يتعلق بحارس الزرافة التي أهداها محمد علي باشا إلى ملك فرنسا.

63

باريس - شتاء 1828

هبط الليل وانقلب لون السماء قرمزياً من فوق التلال. رقدت باريس تحت دثار أبيض سميك من الثلج. تناهى إلى سمعه وقع أقدام تتعقّبه، ما أن أدار رأسه إلى الخلف حتى قبض على ذراعيه رجلان؛ طويلان.. شديدان.. قاسيا الملامح.

هدّده أحدهما: لا تفتح فمك.

وصلا إلى الجانب الآخر من نهر السين، حيث لا أثر هناك للوجود البشري. لم يكن سوى صمت لا يعكره سوى خرير ماء وصرير أخشاب، وزعيق نوارس تحوم محلقة في سماء زرقاء معتمة.

راح يرتعد وأسنانه تصطك، كان البرد قارساً وقدماه تغوصان في وحل. تطلع حوله في هذا المكان الرهيب والمرعب، كان مكب قمامة نهريًّا لا يوجد فيه سوى هياكل للقوارب ومراكب مهجورة.

لاح عن بعد مسافة ضوء مصباح خافت في زورق. أشار له أحد الرجلين فتقدم إليهم.

لم يحاول حسن المقاومة. انصاع لرغباتهم بنفسٍ راضية. تذكر نصيحة الأوضة باشا لهم (الحياة سلسلة من الخيارات ليس بينها شيءٌ جديدٌ. أقدمها أن تكون الضحية أو لا تكون)، وكان دوماً ضحية فلماذا عليه أن يقاوم الآن!؟

في المركب، أوثق الرجال قدميه ويديه وكمّموا فمه. لم يشغل تفكيره ما الذي سوف يفعلونه به. ما كان يشغل تفكيره وقتها من الذي دبّر له هذا (هل هو واحد من عشاق شانتال- مسيو دروفيتي - محمد علي باشا - البلاط العثماني - أم ملك فرنسا نفسه)؟

على أي حال كون أحدهم يفكر في التخلص منه ويدبر خطة لذلك، فهذا يعني أنه ليس نكرة، فهو شخص مهم. شخص أثار فكر أحدهم، أقلق مضجع أحدهم.

هو الذي عاش عمره كله يعاني من أنه مجرد نكرة. يعيش وفق أهواء الآخرين، ويلبي رغبات الآخرين. حتى الحروب التي خاضها كانت من أجل أرض لم تكن أرضه، ووطن لم يكن ينتمي إليه.

حانت اللحظة ليكون شخصاً مهمًّا.. مهمًّا إلى حدّ أن يفكر أحد في قتله، ليس سجنه، وليس نفيه، بل قتله.

للمرة الأولى في حياته يشعر أنه مهم. ابتسم من أجل ذلك، ابتسم لأنها ستكون المرة

الأولى والأخيرة.

وضعه الرجال في جوال من الكتان الأصفر، لم يكن أصفر عاديًّا كان يُطلق عليه أصفر زرافيًّا.

حملوا الجوال وألقوا به في النهر بعد أن أثقلوه بالحجارة، ليقبع الجسد في القاع ولا يبارحه أبداً.

وهو يغطس تناهي لمسامعه صدى مدوٍّ حزين لقرع طبل الحرب .سبع ضربات متتالية، تهتز لها أوصال المدينة . تزعق النوارس، تموء القطط، تنبح الكلاب، ويهرول البشر.

وهو يغطس ارتجف جسده بقوة مثلما كان يرجف عند قرعها.

هذه الضربات أخذت تختفي شيئاً ..فشيئاً .تتلاشى شيئاً ..فشيئاً .حتى خرست.

64

الإسكندرية - شتاء 1828

أخذت أم مهجة تسمّنها بما لذّ وطاب كما لو أنها ذكر بط تنوي ذبحه بمناسبة الاحتفال بذكرى المولد النبوي، وذلك بعد أن زارهم عدد من حريم شيخ صيّاغ الذهب ليخطبوا مهجة لابنه البكر وسيكون مهر العروس وزنها من سبائك الذهب.

استسلمت مهجة إلى قدرها كغريق لا يجيد السباحة أمام أمواج متلاطمة. وقفت أمامها مكتوفة اليدين، ولم تحاول حتى أن تردها عنها. وتركت القدر يذهب ويأتي بها كيفما يشأ.

في غضون شهور قليلة تمت الاستعدادات للزفاف. خاطت الست نبوية ثياب العروس من قماش السيرما، وطرزت لها ثوب الزفاف بفصوص من الذهب والألماس، وصنع لها الإسكافي الأرمني خفافاً معقوفة من المخمل ومطرزة بخرج النجف.

كان الشرط الوحيد لأم العريس أن الوسادة التي سيضع ابنها رأسه عليها تكون محشوة بريش النعام. فحشاها المنجد من ريش نعام وكساها بقماش من الستان الأحمر. وقبل الزفاف بيومين حملت خمسة جِمال شوار العروس على ظهرها، وتجمعت النسوة فوق عربات الكارو وذهبن لفرش مسكن الزوجية.

توقف العتالون أمام منزل من دورين يقع على ضفاف جزيرة الروضة. وفي الداخل رُصّت الأرائك العاجية والأسرّة النحاسية والبُسُط الفارسية. وتمنت النسوة أن تحظى لابنتها بزوج ثري مثله.

لم تكُف أم مهجة من التمتمة بآية الكرسي والمعوذتين خوفاً من الحسد. وفي المساء أشعلت المبخرة، وطلبت من ابنتها أن تخطو فوقها سبع مرات من اليمين إلى الشمال وهي تردد: (رقيتك واسترقيتك من كل عين شافتك ولا صلتش على النبـي).

في صبيحة اليوم التالي، أقيم صوان كبير سُمِع فيه ضرب الدفوف ونفخ المزمار وقُدمَت عروض الحاوي والقردة والبهلوانات، وطاف الخدم بصواني الشربات ومدت الموائد بما لذ وطاب.

جلس العريس في أبهة يتوسط علِّية القوم وأكابر البلد وشيوخ التجار والصناع الذين جاءوا إلى الاحتفال مرتدياً عباءة من خيوط السيرما وحول كتفيه قفطان من الفراء.

رش السقاة الأرض بماء الورد، وارتدت طائفة المشعلجية جلابيب بألوان زاهية، وأشعلوا القناديل بزيت الزيتون، وطافوا الشوارع والأزقة، وهم يغنون ويصفقون ابتهاجاً بزفاف ابنة زميلهم.

حمّمت البلانة مهجة، ونزعت شعر جسدها كله، ثم زينتها وألبستها ثوب زفافها، وبدا وجهها خلف غلالة من الشيفون الأبيض كالبدر في تمامه.

دخلت النسوة لتهنئة العروس، وتركت كل واحدة منهن هديتها في صندوق وضع بمحاذاتها .بحثت المدعوات عن علامة تدل على الفرح على وجه مهجة الشاحب فلم يجدن . غمزتها أمها بأن تبتسم، فابتسمت .وعندما رن صدى صوته بـ (سأعود) بكت.

زفت فرقة من الغوازي العروسين تحمل كل غازية منهن فوق رأسها صينية عليها سبعة شمعدانات وتمايلن على صوت المطربة الشجي ذي البحّة (يا محلا جمالك يا عروسة.. يا حلوة ومن العين محروسة).

حملهما هودج على ظهر جمل مزين بستائر مخملية .رفع زوجها غلالة الشيفون عن وجهها وتطلع إليها بعينين معجبتين، ثم رمى في حجرها سرة فيها جنيهات ذهبية هدية كشف الوجه .للمرة الأولى تنتبه إلى ملامحه؛ عيناه واسعتان هادئتان يجللهما حاجبان كثيفان قليلاً .وضع كفه فوق كفها فخفضت بصرها.

خرج عدد من المدعوين خلف هودج العروسين الذي كان يترنح بهما وهم يصفقون ويزمرون وينشدون أغاني الأفراح.

وفي منزل الزوجية تجمع عدد من حريم الأُسرتين خلف باب غرفة النوم، ينتظرن فض البكارة .استغنى العريس عن مساعدة الداية وطلب أن يفعل ذلك بنفسه.

قبل الأيام التي سبقت العرس، كان شغل أمها الشاغل أن تلقنها ما عليها فعله لحظة فض البكارة .لا تخافي، أرخي جسدك وافتحي ساقيك. لم يمنحها زوجها الوقت لتخلع ثوبها، ألقاها على الفراش وباعد بين ساقيها فأغمضت عينيها .لمحت حسن، كان يعافر وسط أمواج عاتية، نظر إليها، رفع يده وطلب نجدتها.

مدت يدها إليه، كانت المياه تغمره وتبتلعه .فزعت وشعرت بوخز في قلبها.

صاحت، طمأنها زوجها وهو يمسح بكارتها بمنديل من البفتة البيضاء (انتهى كل شيء).

65

القاهرة - شتاء 2016

ختم الدكتور جهاد حديثه عن قصة الزرافة الدبلوماسية للمحقق..

-دوري كباحث تاريخي هو الذي جاء بـي إلى هنا، حتى أعرف مصير حسن البربري، لأني قررت أن أكتب كتاباً عن أحداث رحلة الزرافة، وبما أنني هنا وجدت أنها فرصة لأستكمل مشروعي وطلبت من المسؤولين فتح مقبرة محمد علي لتحليل رفاته.

-مَن الجهة التي تدعمك؟

أشار جهاد إلى رأسه :عقلي.

-للمرة الثانية أحذرك، عليك أن تعترف بكل شيء؟

-بماذا أعترف؟ حتى أني لا أعرف ما هي تهمتي؟

-حسناً، تريد أن تعرف تُهمتك ..تُهمتك هي أنك تحاول سرقة مقبرة ملكية وذلك بتمويل من جهة أجنبية..

قبل أن يستوعب ما قاله الرجل استكمل حديثه..

-ويمكنني أن أخبرك أيضاً بعقوبة هذه التُهمة إذا كنت تريد أن تعرف؟

-هذا كذب وافتراء.

-إذن أخبرنا الصدق.

الدكتور جهاد الذي اعتاد عند إلقاء محاضراته التاريخية جذب الآذان والعيون والعقول، ظل يحكي لمدة ساعة متواصلة ما دفعه لفعل ذلك، وكانت تظهر الصدمة والدهشة معاً على ملامح المحققين وهما يستمعان له وأخيراً أنهى حديثه:

-أعلم أن في ذلك مخاطرة كبيرة ولكن ألا يستحق هذا الرجل ذلك؟

-هل هناك وثيقة تثبت صحة ما تدّعيه؟

-ليست هناك وثائق فعلية .ولكن هناك بعض الوثائق لو قرأنا ما بين سطورها سنفهم .المعلومات التي كُتِبَت عن آخر أيام الباشا في الكتب على اختلافها، ذكرت جميعها إن حالة الباشا بدأت (القهقرى) من سيئ إلى أسوأ في

مدة قليلة جدًّا .لذلك كان لا بُدَّ أن أبحث لأصل إلى نتيجة تثبت كذب هذا الافتراء الذي أُلصِق به.

-أي افتراء تقصد؟

-إصابته بالخرف.

-ولماذا تعتبره افتراء .الباشا كان في مرحلة الشيخوخة وقتها.

-شخصية ﷴ علي كانت متعددة الجوانب، متقلبة ومتغيرة، قد لفتت انتباه المؤرخين النفسيين لدراستها وأنجز مؤرخ نفسي شهير دراسة عنه، جاء فيها أن عقله كان مُتقداً بالتفكير ومُشعًّا بالذكاء، وهذا العقل استطاع أن ينقله من مجرد تاجر تبغ بسيط إلى رجل صنع أقوى إمبراطورية في الشرق، وهذا النوع من العقل الذي يَعدَّه العلماء فذاً لا يشيخ ولا يتلف بسهولة، وذلك كله أثبته الطبيب وفقاً لتقارير وأبحاث علمية.

-ولو كان شكك في محله فكيف ستثبت هوية الفاعل!؟

-لقد تعرّض الباشا منذ توليه الحكم لعدد من المخططات للتخلص منه، فذات يوم وهو يجوب المدينة التقى أحد قادة الجيش الذي دعاه لتناول كوب من القهوة، وعندما تهيأ الباشا للنزول من حصانه، لمس عبد الله حارسه الخاص كتفه قائلاً :(لا قهوة اليوم إلا في القلعة)، ففهم الباشا أن القهوة كانت مسمومة .حصلت هذه الحادثة ولم يكن قد أرسى قواعد الحُكم، فما بالكم بعد أن أصبح قوة لا يُستهَان بها في الشرق !بالتأكيد أن هناك جهات كثيرة كان في مصلحتها التخلص منه، ولكن عليّ أن أُقر أن معرفة مَن الذي دبر له ذلك سيكون ضرباً من الخيال.

-إذن لماذا تحاول نبش القبور، فلتدع الرجل يرقد بسلام؟

واصل المحقق بنبرة أهدأ من المعتاد..

-دائماً كان لي نظرة ثاقبة، وحدس لا يخيب، ولكن معك لا أستطيع أن أحدد ما إذا كنت صادقاً حقًّا أم مخادعاً كبيراً !؟ على أي حال سنواصل البحث.

-بدلاً من التحقيق معي، عليكم أن تذهبوا إلى الذين ساوموني من لصوص البلد وتقبضون عليهم.

-المفارقة أنهم هم من أبلغوا عنك.

-كان من المتوقع أن يفعلوا ذلك، لأني هددتهم أني سأفضحهم .وهذا ما كنت أنوي فعله.

-لقد أفرغنا كاميرات الفندق الذي شهد لقاءكم وظهرت نوبة غضبك وتركك المكان بخطوات عصبية، ولكن التسجيل دُون صوت لذلك لم نتأكد من معرفة سبب الجدال بينكم.

-أوَليس هذا دليلاً؟

-مؤكد لا .هناك عدة تفسيرات لذلك منها أنكم شركاء واختلفتم على شيء ما، أو ربما هم الذين هددوك بإبلاغ الشرطة عنك كما يقولون.

هنا تحدث المحقق الآخر الذي كان من الواضح أنه متعاطف معه..

-أخبرتنا أنك لجأت إلى أحد زملائك القدامى ليرتب لك موعداً

معهم.

-نعم، صحيح.

مدّ له ورقة وقلماً..

-اكتب هنا اسمه وعنوانه من فضلك.

وقتها تذكر تحذير صديقه له، وشعر بالأسف لأنه ورّطه في ذلك.

-هل سأخرج من هنا؟

-ليس بعد .ولكن في حال إذا أردت محامياً لحضور التحقيق معك يمكنك أن تفعل ذلك.

-لا أحتاج إلى محامٍ .فهذا معناه أني مذنب وأنا لست كذلك.

في زنزانة مظلمة، باردة .تكوّر على نفسه بجوار الجدار .هل كان ساذجاً أم أحمقَ عندما لم ينصت لتحذيرات صديقه بأن هذا الأمر قد يقوده إلى هلاكه .لم يفهم أن الوضع بمثل هذا السوء وأن إثارة في إشكاليات تاريخية أو الخوض فيها قد أصبح وراءهما شُبهة تؤدي للاعتقال.

لم يشغل باله كم من الوقت سيقضيه هنا وهل ستتم تبرئته أم لا؟ عبارة وحيدة ظلت تتردد على عقله (دع الرجل يرقد بسلام)، هل تمادى عندما حاول نبش قبرَ رجلٍ رحل إلى العالم الآخر منذ أكثر من قرن ونصف من الزمن ومِن أجل ماذا؟ من أجل شكوكه التي صدقها .وحتى إن كان في هذه الشكوك جزء ولو صغير من الصحة هل كان سيعرف من فعلها؟ ما قيمة معرفة الحقيقة طالما لا تقود إلا إلى مزيد من الشكوك!؟

وسط العتمة كان هناك ضوء ساطع ينبع من داخله أخذ يتوهج أكثر فأكثر ..كضوء كشاف سلّط عليه وكان ضميره يستجوبه :لماذا؟ وأنت تعلم تماماً أن دوافعك جميعها مبنية على افتراضات صنعها عقلك الذي لم يصدق أن رمزه وأيقونته، أُصِيبا بالخرف.

رفض أن يصدق الحقيقة وغزل قصة لبطله، قصة نسجها من بين السطور ومن النوافذ الخلفية للكلمات والمرايا العاكسة للأحرف .وصدقها وحاول أن يقنع الجميع بتصديقها .وذهبت أوهامه إلى أبعد ما يكون، ذهبت به للنبش في مقبرة.

فليعترف إذن أنه مثلهم ..يشبههم ..لا يختلف عنهم، هؤلاء الذين يؤرخون التاريخ على هواهم ووفق رغباتهم، الذين يهاجمهم في محاضراته وفي مقالاته وفي لقاءاته التلفزيونية.

مرّ يومان عليه في هذا المكان الموحش كالكهف، شعر أنه يتعفّن ببطء .وفي اليوم الثالث سمع صرير الباب ولمح رجل قوي البنية يأمره بصوت أجش (هيا).

على طول الممر الطويل كانت الزنازين تحيطه من الجهتين وعيون تتلصّص من بين القضبان الضيقة للنوافذ .تساءل كم بريء تضم هذه الزنازين وكم مظلوم ضمت؟

قاده الحارس إلى الغرفة نفسها .كان المحقق كعادته يجلس مختفياً وراء سحابة من دخان تبغه.

-لقد قررنا الإفراج عنك لسببين :الأول، إننا لم نجد دليلاً قاطعاً للبلاغ الذي قُدِّم ضدك .أما الثاني، وهو الأهم ..لقد اقتنعنا برأيك وصدقنا شكوكك حول هذه القصة بشأن (آخر أيام الباشا).

ضحك جهاد بسخرية..

-لقد عرضنا طلبك بفتح المقبرة، وسيتم ذلك تحت إشراف الشرطة ومن الآن يمكنك أن تتواصل مع عالم السموم البريطاني، وسوف تتحمل الدولة تكاليف العملية بأكملها.

-لا ...ليس هناك داعٍ لذلك.

نظر إليه الرجل نظرة يملؤها الشك.

-لماذا؟

-لقد أخذت بنصيحتك .ما قيمة أن ننبش جثة الرجل، فلندعه يرقد بسلام .في كل الحالات ما قيمة أن نعرف إن كان دُسَّ له السم أم لا، طالما لن نستطيع أن نصل إلى الفاعل أبداً!

-غريب !أين ذهب حماسك؟

لم يجِب .وقّع على دفتر الأقوال، استلم هاتفه المحمول وجهاز الكمبيوتر الخاص به، اللذين تحفّظت عليهما الشرطة وذهب.

في الخارج تنفّس الصعداء .وشعر أنه أفاق أخيراً من كابوس، لو استمر أكثر من ذلك ربما كان فقد عقله.

التاكسي يقطع به الطريق وأفكار قاطعة تستحوذ عليه بأن هناك كثيراً من الأشياء في هذه الحياة تدفعنا إلى فقد عقولنا، تدبير المؤامرات وحَبْك الخطط والظلم أيضاً.

تلقى مكالمة من صديقه محمد عبد الجواد يطمئن عليه وبنبرة أقرب لليأس أجابه:

-ما زلت أجهل كيف قضيت هذين اليومين.

-لقد بحثت لك عن حسن البربري .وللأسف لم أجد أي معلومات . كل ما ذُكر عنه أنه رافق الزرافة في رحلتها إلى فرنسا مع شخص آخر يُدعى عطير.

شكر صديقه، وقام بحجز تذكرة طيران على أول رحلة متجهة إلى إنجلترا وبعدها ذهب إلى الفندق ليجمع أغراضه .كان أمامه عدة ساعات على إقلاع الطائرة فذهب لوداع والده.

-تبدو متعباً وكأنك لم تنم منذ دهر.

-كما أخبرتك .كان هناك كثير من الأعمال عليّ القيام بها.

-لقد خمّنت ذلك أيضاً عندما اتصلت بك ووجدت هاتفك مغلقاً.

ودَّعه بعناق طويل وذهب.

في طريقه إلى المطار كانت السيارة تسير به بجوار حافلة مكتظة بالركاب .لاحظ أن جميع الركاب فيها يهتزون بشكل جماعي على إثر اهتزاز الحافلة المستمر .وبالرغم من ذلك كان في استطاعتهم الثبات في وضع الوقوف .اندهش كيف بإمكانهم فعل ذلك .مدَّ رأسه من نافذة السيارة وتطلع إليهم، كان ارتكاز كل واحد منهم على الآخر هو السبب الوحيد الذي حافظ على توازنهم ومنعهم من السقوط.

أنهى إجراءات السفر، وكان يستعد لوضع هاتفه على وضع الطيران عندما تلقى مكالمة من دكتور أكمل أخبره فيها بصوت يملؤه الحماس.

-يسعدني أن أخبرك أنه بعد عدة مداولات ومناقشات وافقت اللجنة الدولية لحماية الحيوان منح الزرافات شعار (مهدّدة بالانقراض) .شكراً عزيزي جهاد، فأنا أشعر بسعادة بالغة لمشاركتي في إنقاذ هذا الحيوان الفريد من الاختفاء عن وجه الأرض.

هنأه جهاد وأخبره أنه لم يفعل شيئاً.

وفكّر أنه هو الذي عليه أن يشكره فلولا مكالمته في ذلك الصباح للسؤال عن زرافة دبلوماسية ما مرت به كل هذه الأحداث.

الطائرة ترتفع به، ومن نافذتها استطاع أن يميز القلعة .كانت دوماً شامخة بعنفوان ضد مكائد الزمن.

كلما ارتفعت الطائرة أكثر ..تضاءلت المدينة أكثر ..حتى تلاشت واختفت.

وهو معلق بين السماء والأرض صار منفصلاً عن كل شيء كما لو أن جميع ما مر به في الأيام الماضية لم يَعُد حقيقيًّا، جميع مَن صادفهم ولم يعرف عنهم شيئاً، جميع الأماكن التي زارها ولم يكن في مفكرة حياته موعد معها.

66

في البرنامج - ربيع 2017

-ولكن يا دكتور جهاد هل تعتقد أنه بموت الزرافة فقد الفرنسيون الولع بها؟

-الملك شارل العاشر الذي أهداه محمد علي الزرافة نُفِيَ إلى دولة سلوفينيا ومات هناك .أما هديته، فبقيت في الحديقة النباتية بباريس، وظل يَفِد لرؤيتها المئات يومياً حتى ماتت في 12يناير 1845م بسبب عدوى بالتهاب رئوي في عمر الحادية والعشرين .وظل ولع الفرنسيين بالزرافة حتى بعد موتها، فقد تم تشريح جثتها، ووُضِعَت أجزاء صغيرة من قلبها ورئتيها في محلول فورمالين لحفظه .أما عظامها فقد ركبت على شكل هيكل وقُدِمَت هدية إلى كلية العلوم لجامعة كاين بنورماندي في 1869م .وبقيت هناك حتى قيام الحرب العالمية الثانية .عندما قام جنود الحلفاء بقصف مقر الجامعة، واحترقت عظام تلك الزرافة من ضمن ما احترق في الجامعة .ولم يبقَ غير جلدها الذي أُعِيدَ حشوه ووُضِعَ في متحف بمدينة فردان .وحرص الفرنسيون على الحفاظ على بقايا الزرافة فهو دليل على أنها تمثل بالنسبة إليهم أكثر من مجرد حيوان .ومما يؤكد استمرار ولع الفرنسيين بهذه الزرافة؛ كتاب بعنوان (زرافة للملك) صدِر في ثمانينيات القرن الماضي للكاتب (غابرييل دارو)، وذُكِر فيه أن أكثر من ثلاثين صاحب فندق صغير ومكتب بريد ومخزن اختاروا الزرافة شعاراً لهم في ذلك الحين، ولا يزال هذا الشعار موجوداً حتى الآن.

-لم تُشِرْ في كتابك إلى ما حدث لحارسي الزرافة (حسن وعطير)، فدعنا نختم هذه الحلقة الشيقة من البرنامج بإخبارنا عمّا حل بهما؟

-استمر عطير في حراسة الزرافة حتى ماتت ثم عاد مرة أخرى إلى وطنه ومعه ثروة كبيرة كوّنها من تجارة بشيءٍ ما ولم تدل أي وثائق عن نوع هذه التجارة.

أما حسن فقد خرج من الحديقة في ليلة شتوية من عام (1828)، ولم يظهر مجدداً، نازعاً خلفه أي أثر، مثل أشخاص آخرين يختفون فجأة، تاركين لنا الحيرة والشك من أنهم قد وُجِدوا حقًّا ذات يوم.

تمت بحمد الله

عن الكاتب

رشا عدلي

روائية مصرية - باحثة في تاريخ الفن

صدر لها:

-صخب الصمت

-الحياة ليست دائما وردية

-نساء حائرات

-الوشم

-شواطئ الرحيل

-شغف

-وكتاب القاهرة المدينة الذكريات عن فن الاستشراق

للتواصل مع المؤلفة:

RASHA-ADLY@HOTMAIL.COM

https://www.facebook.com/gallery.art.n.history/



آخر أيام الباشا

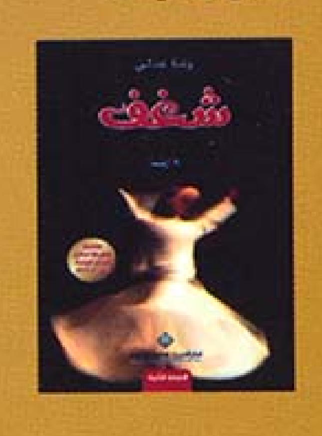
رشا عدلي

«أخر أيام الباشا» رواية حافلة برائحة التاريخ. إنها تقدمُ، انطلاقا من ذريعة رواية تتمثل في إهداء محمد علي باشا زرافة إلى ملك فرنسا، صورة مختلفة عن هذه الشخصية من منظور بطل العمل وهو الشخصية المحركة للأحداث، مدفوعا بحبه للباشا وإعجابه به وهو مؤرخ متمرد، على المناهج التي يتشغل بها المؤرخون في العادة، بحيث يتحول البحث إلى نوع من التحري والتحقيق الذي يستبعد كل الفرضيات الجاهزة إلى حد التشكيك في «الحقائق» المثبتة في الكتب، والمطالبة باستخراج رفات الباشا لتحديد أسباب وفاته !

تعيد الرواية إلى الواجهة مجموعة من المواقف حكمت العلاقة بين الشرق والغرب يكشف عنها حسن البربري الجندي السابق في قوات لانكشارية الذي ذهب به قدره ليصبح الحارس الخاص لقنصل فرنسا في القاهرة وهو الذي رافق (الزرافة الدبلوماسية) في رحلتها الي فرنسا وفي هذه هذه الرحلة يتعرف بعالم اخر غريب عليه من خلال تردده على اشهر الصالونات الفرنسية في ذلك الوقت صالون مدام شانتال ويعقد علاقات و صداقات مع اشهر ادباء فرنسا (ستندال.. فكتور هوغو.. الكسندر دوما وغيرهم ...) ليفاجأ بتناقض صارخ بين القناعات المعلنة والممارسات في الواقع. مواقف لا تعني فقط المستشرقين الذين نظروا دائما إلى هذا الشرق من زاوية متعالية بل، لم يسلم منها مثقفو فرنسا المتنورون أيضا.

«آخر أيام الباشا» رواية أخرى وفية للأسلوب الذي اختارته رشا عدلي في عدد من أعمالها السابقة. ذلك الأسلوب المعتمد على رحلة ذهاب وعودة بين فترتين تاريخيتين، حيث تتفاعل أحداث تاريخية مع أحداث الحاضر لتقديم قراءة «روائية تخيلية» للتاريخ قد تكون دعوة لإعادة النظر في مجموعة من المسلمات، كما قد تكونُ مجرد بناء تخيلي لأحداث من زمن آخر لم ينقطع تأثيرها في الزمن الراهن.

صدر لها أيضاً:






نيل وفرات.كوم
جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com


ISBN: 978-614-01-2800-2
9 786140 128002